آفات على الطريق

الدكتور السيد محمد نوح

دار اليقين
للنشر والتوزيع

دار القبلتين
للنشر والتوزيع

الطبعة الخليجية الأولى

مصر - المنصورة - ت : ٣٥٥٢٤١

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

آفَاتٌ عَلَى الطَّرِيقِ

(٥-٦)

الدكتور السّيّد محمّد نوح

دار اليقين
للنشر والتوزيع

الجزء الخامس

الآفة التاسعة والعشرون

رفض النقد والنصيحة

الآفة التاسعة والعشرون

رفض النقد والنصيحة

والآفة التاسعة والعشرون التي يكون الوقوع فيها سبباً في عواقب وخيمة ومخاطر جسيمة تكاد تهلك الحرث والنسل، وتحول دون النهوض والتقدم إنما هي: «رفض النقد والنصيحة».

وحتى يتحرر منها مَنْ ابتُلي بها، ويتوقَّاها مَنْ سلَّمه الله - عزَّ وجلَّ - منها، فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من الأعباء والمسؤوليات تجمعها هذه السطور على هذا النحو:

أولاً: تعريف «رفض النقد والنصيحة» لغة واصطلاحاً:

معلوم أنَّ «رَفْضَ النقد والنصيحة» مُركَّبٌ إضافي مُؤلف من كلمتين هما: «رفض»، و«نقد» أو «نصيحة»، والأمر يقتضي بيان معنى كلٍّ على حدة، قبل التركيب، ثم بيان معناهما بعد التركيب، ودونك البيان:

أ - الرفض لغة: الترك، تقول: رفضه يرفضه رَفْضاً، ورَفَضَاً: تركه[1].

الرفض اصطلاحاً: اسم للمعاندة أو القمع، وعند الفلاسفة لفظ

---

(١) انظر: القاموس المحيط ٢/ ٤٨٨ - ٤٨٩، الصحاح في اللغة والعلوم، ص ٣٩٥، مادة: «رفض» بتصرف كثير.

مدرسيٌّ يستخدمه المحدثون للدلالة على معاندة الإرادة لدافع معيَّن، أو قمع فعل على وشك التحقق، إذا لم تقف الإرادة عقبة في سبيل ذلك[1] .

ب. النقد : لغة : يأتي النقد لغة على معانٍ، منها :

١ - نقرُ الشيء لاختباره، أو لتمييز جيده من رديئه، تقول : نَقَدَ الطائر الفخَّ، ونقدْتُ رأسَه بأصبعي، ونَقَدَ الدراهم والدنانير، وغيرهما نقداً، وتنقاداً : ميَّز جيدها من رديئها، وتقول : نَقَدَ النثر، والشعر : أظهر ما فيهما من عيب أو حُسْن.

٢ - العيب والاغتياب، تقول : فلان ينقد الناس : يعيبهم ويغتابهم.

٣ - وقوع الفساد في الشَّيء، تقول : نَقِدَ الشيءُ نَقَداً : وقع فيه الفساد، ونَقِدَ الضِّرْسُ، أو القَرْن : تأكَّل وتكسَّر، ونَقِدَ الحافِرُ : تقشَّر.

٤ - المناقشة في الأمر، تقول : ناقَدَهُ في الأمر : ناقشه فيه[2] .

جـ - النقد : اصطلاحاً : والنقد : اصطلاحاً : له إطلاقان :

١ - الأول : إظهار عيب الشيء، وفساده.

٢ - مناقشة الأمر لإظهار ما فيه من جودة ورداءة، حسن وعيب[3] .

د - النصيحة : لغة : تأتي النصيحة لغة على معانٍ ، منها :

١ - تخليص الشيء من شوائبه، تقول : نصح الشيءُ، والشيءَ نصحاً،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر : القاموس المحيط ١/ ٦٤٢ - ٦٤٣، الصحاح في اللغة والعلوم ص ١١٩٥، المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٤ مادة : «نقد» بتصرف كثير.

(٣) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٤ بتصرف.

ونصوحاً، ونصاحةً خَلَصَ، ونصحتْ توبتُه: خَلَصَتْ من شوائب العزم على الرجوع.

٢ - الآلة التي بها يخلص الشيء من شوائبه حسية كانت أم معنوية، كالإبرة مثلاً في حياكة الثوب وإصلاحه، وكالكلمة أو السلوك في الإرشاد إلى فعل الخير، وتجنب الشرِّ.

٣ - الناصح والنَّصَّاح، وهو الذي يتولى تخليص الشيء من شوائبه وعيوبه[١].

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، فإنها قيام ناصح بتخليص الشيء من عيوبه وشوائبه بالآلة أو الوسيلة المناسبة.

هـ - النصيحة: اصطلاحاً: والنصيحة اصطلاحاً: الإرشاد بالأسلوب المناسب والوسيلة الملائمة إلى تخليِّ المرء عن كلِّ ما فيه عيب وفساد، مع تحليه ومحافظته على كلِّ ما ينبغي من خير وصلاح شريطة ألا يتعارض الأسلوب والوسيلة مع الشرع.

قال الخطابي: «النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظِّ للمنصوح له، ويُقال إن هذه الكلمة من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، فإنه ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، حتى يضمَّ إليها شيء آخر، كما قالوا في الفلاح: إنه ليس في كلام العرب أجمع لخير الدنيا والآخرة منه، حتى صار ليس يعدله شيء من الكلام في معناه، ولذلك قالوا:

---

(١) انظر: القاموس المحيط ١ / ٥٠٠-٥٠١، الصحاح في اللغة والعلوم ص ١١٧١، المعجم الوسيط ٢/ ٩٢٥ مادة: «نصح» بتصرف كثير.

أفلح الرجل : إذا فاز بالخير الدائم الذي لا انقطاع له»(١) .

وواضح مدى الترابط بين المعنى اللغوي للنصيحة، والمعنى الاصطلاحي، حتى قال الخطابي :

«ويُقال إن أصل النصيحة مأخوذ من قولهم : نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، والنِّصاح : الخيط، شبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بفعل الخيَّاط فيما يَسُدُّه مِنْ خلل الثوب، وَيَلأَمَه مِنْ فتوقه، ويجمعه من الصَّلاح فيه، وقيل : إنها مأخوذة مِنْ نصحتُ العسل إذا صفيته من الشمع : شبهوا تخليص القول والعمل مِنْ شوب الغش والخيانة، بتخليص العسل من الخلط الذي فيه»(٢) .

وحتى قال المازري :

«النصيحة تحتمل أن تكون مشتقة من نصحتُ العسل، إذا صفَّيتُه، ويحتمل أن تكون من النصح، وهي الخياطة، والإبرة : المنصحة، والنِّصاح : الخيط الذي يُخاط به، والناصح : الخياط، فمعناه أنه يلم شعث أخيه كما تلمُّ المنصحة : خرَق الثوب»(٣) .

وانطلاقاً مما تقدم فإنَّ : رفض النقد والنصيحة يعني : عدم النزول على رأي الناقد والناصح، بل عدم قبول المناقشة فيما عساه يكون فيه من عيب أو خلل، حتى وإن استوفى كلٌّ من النقد والصيحة الضوابط والآداب المعروفة .

---

(١) انظر : أعلام الحديث ١٠/ ١٨٩ ـ ١٩٠، وعنه نقل ابن حجر في : فتح الباري ١/ ١٣٨ .

(٢) انظر : أعلام الحديث ١/ ١٩٠، وعنه نقل ابن حجر في : فتح الباري ١/ ١٣٨ .

(٣) انظر : المعلم بفوائد مسلم ١/ ٢٩٣، وعنه نقل ابن حجر في : فتح الباري ١/ ١٣٨ .

ثانياً : موقف الشارع الحكيم من رفض النقد والنصيحة :

ويعيب الشارع الحكيم مَنْ يرفض النقد والنصيحة دون مبرر مقبول، إذ يقول سبحانه:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) ﴾ (الكهف).

يقول ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «لا أحد أظلم ممَّن هذه صفته : أن يعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، ويطرح كبائره التي أسلفها، هذه غاية الإهمال»[١].

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ (السجدة).

كما يحكي عن المكذبين رفضهم النقد والنصيحة في قوله سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ (المائدة).

ويحكي عن صالح خطابه لقومه حين رفضوا النصيحة، وكذَّبوه،

(١) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٩ / ٣٤٢ .

فأهلكهم الله، فيقول:

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ (الأعراف).

كما يحكي مثل ذلك عن شعيب مع قومه فيقول:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ (الأعراف).

ويحكي رفض الماضين للنصيحة التي جاءتهم على ألسنة الأنبياء والمرسلين على الرافضين لها منَّا يعتبرون، وينزجرون، فيقول:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⑩ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ⑪ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ⑫ ﴾ (إبراهيم).

ويجعل سبحانه ذلك من صفات المنافقين فيقول:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ⑳④ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ⑳⑤ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ⑳⑥ ﴾ (البقرة).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⑪ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ⑫ ﴾ (البقرة).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ⑥① ﴾ (النساء).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ⑤ ﴾ (المنافقون).

وتوعد ﷺ مَنْ لا يقوم بواجب النصيحة، ومَنْ لا يقبلها بقوله:

«ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم، ولا يُعلمونهم، ولا يعظونهم، ولايأمرونهم، ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولايتفقهون، ولا يتعظون، والله ليعلمنّ قوم جيرانهم: يفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم، وليتعلمنّ قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنّهم العقوبة»، وأعاد ذلك مراراً، حتى قال المعنيّون بالخطاب: أمهلنا سنة ليفقهوهم، ويعلموهم، ويعظوهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) ﴾ (المائدة) [(١)].

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على ذمّ مَنْ يوجه إليه نقد أو تُسدى له نصيحة، فلا يقبل.

وقد فهم السلف ذلك.

حسبنا قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ :

«إن من أكبر الذنب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله، فيقول: عليك نفسك أنت تأمرني؟»[(٢)].

---

(١) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد: كتاب العلم: باب في تعليم مَنْ لا يعلم ١/ ١٦٤، وعزاه إلى الطبراني قائلاً: «رواه الطبراني في الكبير، وفيه: بكر بن معروف، قال البخاري: ارم به، ووثقه أحمد في رواية، وضعّفه في أخرى، وقال ابن عديٍّ: أرجو أنه لابأس به»

(٢) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد: كتاب الفتن: باب فيمن يؤمر بالمعروف فلا يقبل ٧/ ٢٧١، وعزاه إلى الطبراني قائلاً: «رواه الطبراني، رجاله رجال الصحيح».

ثالثاً: أسباب أو بواعث رفض النقد والنَّصيحة:

ولرفض النقد والنَّصيحة أسبابٌ تؤدي إليه، وبواعث توقع فيه، ومنها:

١ - خلوُّ النقد والنصيحة من شروط وآداب القبول:

ذلك أن لقبول النقد والنصيحة شروطاً وآداباً من: تخير أنسب الظروف، وأحسن الأحوال، وأجمل الألفاظ، وإبراز المحاسن، ودقة التحرِّي، والتثبُّت، ومراعاة السرِّية، وترك الجدل واللجاج، وإرادة وجه الله، ثم الخير للمنتقد أو المنصوح، دون الشماتة، والفضيحة.. وهلمَّ جرا.

ويوم أن يخلو النقد أو النصيحة من هذه الشروط وتلك الآداب فإنه يكون محل رفض وعدم قبول.

ولذا رأينا ربَّ العزة سبحانه يقطع الطريق على فرعون حين يوصي موسى وهارون - عليهما السَّلام - أن يُحسنا التعامل معه في القول، فيقول لهما:

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ (طه).

ويقول لموسى عليه السلام:

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ (النازعات).

«والمعنى - كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما - لا تعنفاه في قولكما، وارفقا به في الدعاء، ويتحقَّق ذلك بعبارات شتَّى، منها ما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً، وهو ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، ومنها ما في النازعات، وهو ﴿ هَل

لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ، وهذا ظاهر غاية الظهور في الرفق في الدعاء فإنه في صورة العرض، والمشورة، وقيل: كنّياه، واستدل به على جواز كنية الكافر، وروي ذلك عن عليٍّ - كرم الله وجهه -، وابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً، وسفيان الثوري، وله كنى أربع: أبو الوليد، وأبو مصعب، وأبو العبَّاس، وأبو مرَّة، وقيل: عِداهُ شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا يُنزع منه إلا بالموت، وأن يبقى له لذَّة المطعم، والمشرب، والمنكح إلى حين موته، وعن الحسن: قولا له إن لك ربّاً، وإن لك معاداً، وإن بين يديك جنَّة، وناراً، فآمن بالله تعالى يدخلك الجنَّة، ويقك عذاب النار»(1).

وعن جرير - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنّه قال:

«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخير» (2).

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال:

«يا عائشة: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه» (3).

وعنها أيضاً أن النبي ﷺ قال:

---

(1) انظر: روح المعاني للألوسي ١٦/ ١٩٥ المجلد السادس.

(2) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب فضل الرفق ٤/ ٢٠٠٣ رقم ٢٥٩٢ بهذا اللفظ.

(3) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة، والآداب: باب فضل الرفق ٤/ ٢٠٠٣-٢٠٠٤ برقم ٢٥٩٣ بهذا اللفظ.

«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»[1].

٢ ـ الإعجاب بالنفس، بل الغرور، والتكبر:

وقد يكون الإعجاب بالنفس، بل الغرور والتكبر سبباً من أسباب رفض النقد أو النصيحة، ذلك أن المنتقد أو المنصوح يرىٰ نفسه والحالة هذه أرفع وأكبر من أن يوجه إليه نقد أو تُسدىٰ إليه نصيحة، ولا شك أن هذا خذلان وأي خذلان، قال تعالىٰ:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

وحكىٰ عن صنف من الناس تُوَجَّهُ إليه النصيحة أو النقد فتأخذه العزة بالإثم، ولا يقبل، قال تعالىٰ:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾ (البقرة).

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب البرّ، والصِّلة، والآداب: باب فضل الرفق ٤/ ٢٠٠٤ برقم ٢٥٩٤، وأبو داوود في: السنن: كتاب الجهاد: باب ما جاء في الهجرة، وسكنىٰ البدو ٣/ ٧ برقم ٢٤٧٨، كلاهما من حديث عائشة مرفوعاً، واللفظ لمسلم

كما حكى نصيحة قوم قارون له وردَّه عليهم، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ (القصص).

٣ ـ الخصومات أو العداوات:

وقد تكونُ الخصومات أو العداوات من أسباب عدم قبول النقد أو النصيحة ذلك أن الخصوم أو الأعداء لا يقبلُ بعضُهم مِنْ بعض عادةً أو بداهةً.

فالمؤمنون لا يقبلون من الكافرين الدعوة إلىٰ الإلحاد، أو الشرك والوثنية، والكافرون لا يقبلون من المؤمنين الدعوة إلىٰ التوحيد والتزام الصدق والفضيلة إلا من رحم الله.

قال تعالىٰ:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (البقرة: ١٤٥).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ (الروم).

٤ ـ المراء أو الجدل بالباطل :

وقد يكون المراءُ أو الجدلُ بالباطل من بين الأسباب التي تحمل على رفض النقد أو النَّصيحة .

ذلك أن المماري أو المُجادل بالباطل ليس سهلاً أو ميسوراً عليه أن يقبل النقد أو النَّصيحة ، لأنه بذلك يشعر بالانهزام والحقيقة أنَّه لا يريد أن ينهزم .

حكى الحق سبحانه ردَّ قوم نوح عليه في قوله :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ (هود) .

٥ ـ اتباع الهوى :

وقد يكون اتباع الهوىٰ من بين الأسباب التي تحمل علىٰ رفض النقد أو النصيحة ، ذلك أن من يتبع هواه إنما يجعل إلهه هذا الهوىٰ ، وتبعاً لذلك لايقبل من غيره أيَّ نقد وإن كان حقاً ، ولا نصيحة وإن كانت خيراً .

وصدق الله الذي يقول :

﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ (ص) .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ (القصص) .

٦ ـ البيئة التي ينشأ فيها المرء :

وقد تكون البيئة التي ينشأ فيها المرء ـ قريبةً كالبيت ، أم بعيدةً كالمجتمع ـ من بين الأسباب التي تحمل على رفض النقد أو النصيحة .

ذلك أن المرء إذا لم يُعلَّم في بيته الذي نشأ وتربىٰ فيه على قبول النقد والنصيحة ، وكذلك إذا كان أترابه وأقرانه الذين يعيش معهم مِمَّنْ يرفضون النقد أو النصيحة فإنه ينشأ ويظلُّ هكذا إلا أن تتداركه مَعيَّةُ الله ورحمته .

ولذلك كان الاهتمام باستقامة وصلاح البيئة التي ينشأ فيها المرء من أهم ما يساعد علىٰ استقامة وصلاح هذا المرء ، والله يهدي مَنْ يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم .

٧ ـ شعور المنتقد أو المنصوح دونية الناقد أو النَّاصح :

وقد يكون شعور المنتَقَد أو المنصُوح أن الناقد أو الناصح أدنىٰ منه منزلةً أو سِناً أو علماً ونحو ذلك ، فيحمله ذلك علىٰ رفض النقد أو النصيحة ولو درىٰ المنتقد أو المنصوح أنَّ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنَّىٰ وجدها فهو أحقُّ الناس بها لقبلها ولو من الصغير ، والأدنىٰ منزلة ، والأقل علماً .

ها هو الداخلي شيخ البخاري ـ وهو مَنْ هو علماً وفضلاً ـ يقول يوماً فيما كان يقرأ للناس : «سفيان ، عن أبي الزبير ، عن إبراهيم» فيرد عليه البخاري وهو ابن إحدىٰ عشر سنة قائلاً : «يا أستاذ : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم» فانتهره ، فقال له البخاري : «ارجع إلى الأصل إن كان عندك» ، فدخل ، فنظر فيه ، ثم رجع ، فقال : كيف هو يا غلام؟ فقال البخاري : «هو

الزبير، وهو ابن عديٍّ، عن إبراهيم» فأخذ القلم، وأصلح كتابه، وقال: «صدقْتَ»(١).

وهكذا كان المسلمون على مرِّ العصور يقبلون النقد أو النصيحة، ولو من الأدنى، ما دامتْ قد استوفتْ شروطها وآدابها.

٨ـ ظن المنتَقد أو المنصوح تشهير الناقد والناصح وشماتته:

وقد يكون ظنُّ المنتَقَد أو المنصوح تشهير وشماتة الناقد أو النَّاصح من بين الأسباب التي تحمل على رفض النقد أو النصيحة، دون أن يكون هناك دليل أو برهان على مثل هذا الظن، وقد قال الله تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً** ﴾ (الحجرات: ١٢).

وقال النبي ﷺ:

«**إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذب الحديث..**» الحديث(٢).

٩ـ اعتقاد المُنتَقَد أو المنصوح أنَّه في غنى عن النَّقد أو النصيحة:

وقد يكون اعتقاد المنتقد أو المنصوح أنَّه بلغ الكمال فصار في غنى عن النقد أو النصيحة من بين الأسباب التي تحمل على رفض النقد أو النصيحة، ناسياً أو متناسياً أن الكمال لله وحده، وأنه لا عصمة لأحد من الخلق سوى

---

(١) انظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر: باب ذكر نسب البخاري ومولده، ومنشئه، ومبدأ طلبه للحديث ص ٤٧٨.

(٢) الحديث سبق تخريجه في: الجزء الثالث، ص ١٤ الآفة الخامسة عشرة.

مَنْ ضَمِنَ الله لهم العصمة، وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة، والعاقل هو الذي يتهم نفسه ولا يبرِّئها من العيب أبداً .

وصدق الله الذي يقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ (يوسف) .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول :

«**الكَيِّس مَنْ دانَ نفسه، وعمل لما بعد الموت...**» الحديث [١] .

١٠ . الغفلة عن العواقب المترتبة على رفض النقد والنصيحة :

وأخيراً قد تكون الغفلة عن العواقب المترتبة على رفض النقد أو النصيحة من بين الأسباب التي تحمل على هذا الرفض، وهذا حق، فإن مَنْ جهل شيئاً عاداه، أو المرء عدوٌّ ما يجهل .

كما قال الله عز وجل - :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ .

(يونس : ٣٩) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠، وأحمد في : المسند ٤/ ١٢٤ كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعاً، وتمامه : «**والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله**»، وعقَّب الترمذي بقوله : «هذا حديث حسن» .

رابعاً : آثار رفض النقد والنصيحة :

ولرفض النقد والنصيحة آثار خطيرة، وعواقب وخيمة على العاملين وعلى العمل الإسلامي، ودونك بعض هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ. على العاملين :

فمن آثار رفض النقد والنصيحة على العاملين :

١. الاستمرار على الخطأ :

وربما يكون ذلك تكذيباً بحقٍّ، أو عدواناً على أبرياء، وحينئذٍ يكون الهلاك والعياذ بالله، وما خبر الرافضين للحق، المترفعين على النصيحة الذين أهلكهم الله بسبب ذلك عنَّا ببعيد، قال تعالى :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ (العنكبوت).

وقال في ثمود بخصوصهم :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ (الأعراف).

وحكى نصيحة صالح لهم بقوله :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ (الأعراف).

وقال في أهل مدين بخصوصهم :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) ﴾ (الأعراف) .

وحكى نصيحة شعيب لهم بقوله :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ (الأعراف) .

٢ ـ تعريض النفس للاحتقار والسخرية والطعن من الآخرين :

فإن الناس ينظرون إلى رافض النقد أو النصيحة على أنه امرؤ غير عارف قدر نفسه ، مدَّع اتصافها بما ليس فيها : الأمر الذي قد يحملهم على احتقاره والسخرية منه ، بل والطعن فيه ، ومَنْ وصل إلى هذا المستوى فأيُّ كرامةٍ ، أو منزلةٍ له بين قومه .

وصدق الله الذي يقول :

﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ . . . ﴾ (الحج : ١٨) .

٣ ـ فتح الباب أمام الناشئة ومَنْ لا حصانة لديهم أن يتصفوا بهذه الآفة تقليداً ومحاكاةً:

الأمر الذي يُحمِّل رافض النَّقد أو النصيحة إثمين : إثم نفسه ، وإثم مَنْ قلَّده ، وحاكاه ، ويصدق فيه قول النبي ﷺ :

«ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيء...» الحديث [1] .

وقد شاهدنا ومازلنا نشاهد قادة لبعض الجماعات والأحزاب، حملهم الترفع على النقد أو النصيحة أن شقوا طريق العنف في مواجهة السُّلطات، وقلدهم أو حاكاهم الناشئة ومَنْ ليستْ لديهم حصانة فكرية، وجرت بسبب ذلك وما زالت حمامات، وأنهار من الدم، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي أو تتوقف.

ب ـ على العمل الإسلامي:

ومن آثار رفض النقد والنصيحة على العمل الإسلامي:

١ ـ التوقف عن التنمية والعطاء:

ذلك أن الاستمرار على الخطأ دكتاتوريةٌ أو استبدادٌ، وتلك تتوقف بالعمل الإسلامي عن التنمية، والعطاء، ومواكبة مستجدات العصر.

وحسبنا أنَّ نفراً من الإسلاميين الغيوريين مازال يصرُّ على أن يبقى الجهاد بالسَّيف في عصر راجمات الصواريخ، والأسلحة الجرثومية، والكيماوية، والنووية... ونحوها، رافضاً كل نقد أو نصيحة، وأن نفراً آخر من هؤلاء مازال يصر على ترك مقاعد الدراسة العلمية التجريبية ليشتغل بتحصيل العلم الشرعي، معتمداً على عدوه في طعامه، ولباسه، وشرابه، وسكناه، ومواصلاته، وتطبيبه، ونحوها، غير مبالٍ بأيٍّ نقدٍ أو نصيحة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

٣ ـ تشويه صورة العمل الإسلامي بل العمل على القضاء عليه بضربه أو على الأقل إجهاضه :

وهذا أمر بدهي من مجتمع متوقف عن التنمية والعطاء، حيث يفتح الباب أمام الحاقدين، والكارهين لهذا العمل لتشويهه، وربما محاولة القضاء عليه بضربه، أو على الأقل إجهاضه فلا يؤتي ثماره إلا بعد عشرات السنين، وهذا فيه من الخسارة ما فيه.

كما هو قائم الآن في أكثر من بلد من بلدان العالم العربي والإسلامي.

خامساً: علاج رفض النقد والنصيحة :

وإذ قد وقفنا على ماهية رفض النقد والنصيحة، وموقف الشارع الحكيم من ذلك، والأسباب أو البواعث، والآثار والنتائج، فإنه يسهل تقديم العلاج بل الوقاية، ويكمن ذلك في اتباع هذه الخطوات :

١ ـ التعريف بالنفس :

وذلك بأن يوضع بين يَدَيْ المنصوح والمنتقَد: أن النَّفْسَ البشرية جُبِلتْ على الخطأ إلا من عصم الله من النبيين، والمرسلين، وأنه ليس عيباً على المرء أن يخطئ، وإنما العيب كل العيب أن يُصرَّ على الخطأ.

قال تعالى :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ (يوسف).

وعلّقَ ابن عطية على الآية بقوله :

«وهذه أيضاً مختلف فيها ـ هل هي مِنْ كلام يوسف أم من كلام المرأة حسب التي قبلها؟»(١) ، ولخص أن فيها رأيين :

الأول : أنها مِن كلام يوسف عليه السلام، وذكر أدلة مرفوعة، وموقوفة، ومقطوعة لا تخلو من ضعف الإسناد، بل ضعف المتن لمعارضتها العصمة التي هي من خصائص الأنبياء والمرسلين.

والآخـر: أنها من كلام المرأة، امرأة العزيز، ووجه كلامها : «الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأنها قالتْ: وما هذا ببدع، ولا ذلك بنكير على البشر فأبرئ أنا منه نفسي، والنفوس أمارات بالسوء مائلة إليه»(٢) ، وقال ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » (٣) .

٢ ـ التذكير بعواقب الرافضين للنقد والنصيحة :

وذلك بأن يوضع بين يدي المنصوح كذلك : عواقب الرافضين للنقد والنصيحة مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط،

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١ ـ ٢ بتصرف كثير .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب منه ٤/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩ رقم ٢٤٩٩ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر التوبة ٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥١ ، والدارمي في : السنن : كتاب الرقائق : باب في التوبة ٢/ ٣٠٣ ، وأحمد في : المسند ٣/ ١٩٨ كلهم من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً، وعقب الترمذي بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة»، وزاد أحمد : «ولو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»

وأصحاب مدين، وفرعون وقومه، وسائر المكذِّبين، قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ (العنكبوت).

إذ وَضْعُ هذه العواقب على هذا النحو من شأنه أن يحمل المرء إذا كان عاقلاً أن ينزعج قلبه، ويخاف العقاب بمثل هذه العواقب، فيقبل النصيحة، وحين يقبل القلب النصيحة يأمر الجوارح أن تفارق الإثم والخلل، وتنزل على ما يوجبه النقد أو النصيحة من باب قول النبي ﷺ:

«.. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحتْ صَلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسدتْ فَسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

٣ـ التربية على التواضع:

وذلك بالتركيز على تحرير النفس من الإعجاب، والغرور، والتكبر،

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

فتصبح صالحة لقبول التواضع الذي يدل على التحلي به: قبول النقد، أو النصيحة، وسبيل ذلك: ما مضى آنفاً من علاجات لهذه الآفات، وكذلك ببيان فضل التواضع، ومنزلة صاحبه عندالله كقوله ـ سبحانه ـ في صفات عباد الرحمن:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ (الفرقان).

وقوله ﷺ: «.. **وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه**»(١).

«**مَنْ تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في عليين..**» الحديث(٢).

٤. التربية على نبذ الخصومات والعداوات والمراء والجدل بالباطل واتباع الهوى:

وذلك ببيان العواقب الوخيمة التي تتركها الخصومات أو العداوات، وكذلك المراء والجدل بالباطل، واتباع الهوى وسبيل ذلك: ما مضى وما

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البرّ والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع ٤/ ٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨ / ٦٩، والترمذي في: السنن: كتاب البرّ والصلة: باب ما جاء في التواضع ٤/ ٣٣٠ رقم ٢٠٢٩ والدارمي في: السنن: كتاب الزكاة: باب في فضل الصدقة ١/ ٣٩٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٨٦ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٣/ ٧٦، وابن ماجه في: السنن: كتاب الزهد: باب في البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٨ رقم ٤١٧٦ كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وعقّب عليه شهاب الدين البوصيري في: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٤/ ٢٢٩ بقوله: «هذا إسناد ضعيف، ودراج بن سمعان أبو السمح المصري ـ وإن وثّقه ابن معين ـ فقد قال أبو داود وغيره: حديثه مستقيم إلا ما كان عن أبي الهيثم، وقال ابن عديّ: عامة أحاديث دراج مِمّا لا يتابع عليه، وضعفه أبو حاتم، والنسائي، والدارقطني».

سيأتي من علاجات لهذه الآفات، وأيضاً ببيان فضل ومنزلة سلامة الصدر من الأحقاد، كقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾.

(الحشر).

وقوله تبارك وتعالى:

﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ (الشعراء).

وكان من دعائه ﷺ:

«ربِّ أعنّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسِّرْ الهدى لي، وانصرني على مَنْ بغى عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكاراً، لك ذكاراً، لك رهاباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أوّاهاً منيباً، ربِّ تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبِّتْ حُجَّتي، وسدِّدْ لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري» (١).

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن: كتاب الدعوات: باب في دعاء النبي ﷺ ٤/ ٥١٧ - ٥١٨ رقم ٣٥٥١، وابن ماجه في: السنن: كتاب الدعاء: باب دعاء رسول الله ﷺ ٢/ ١٢٥٩ رقم ٣٨٣٠ كلاهما من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً، وعقب عليه الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

٥ - التحويل عن البيئة السيئة إلى بيئة صالحة :

وذلك بالتنفير من البيئة السيئة، وبيان عواقبها الضارة وآثارها الخطيرة، ثم تحسين البيئة الصالحة، وبيان عواقبها النافعة، وآثارها الحميدة، بل التحويل بالفعل من الأولى إلى الثانية، ومن خير ما يفيد في ذلك قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ (الزخرف).

وقوله ﷺ :

«إنما مَثَلُ الجليس الصالح، وجليس السُّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إمَّا أنْ يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»[1].

٦ - إشعار المنتقد والمنصوح بتجرد النقد والنصيحة عن التشهير والشماتة:

وذلك بجعل النقد أو النصيحة في السِّرِّ دون العلانية، وقرنها بالرحمة واللين، والشفقة، والإكثار من الدعاء، والتواضع، والتأكيد على إرادة الخير والمثوبة، والإصلاح قدر الطاقة والإمكان، على نحو ما صنع نوح في قوله لقومه :

﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ (هود: ٢٩).

وعلى نحو ما قال هود لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي

(١) الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول : آفة الفتور .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ (هود) .

وعلىٰ نحو ما قال نبينا ﷺ للمكذبين من قومه :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص) .

وعلىٰ نحو ما قاله شعيب لقومه :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ (هود) .

٧ ـ مراعاة شروط وآداب النقد والنصيحة :

وذلك بتخير أنسب الظروف، وأحسن الأحوال، وأجمل الألفاظ، وإبراز المحاسن، ودقَّة التحري والتثبت، ومراعاة السِّريَّة، وإرادة وجه الله، ثم الخير للمنتقد أو المنصوح، والتناسب سِنّاً ومقاماً بين الناصح والمنصوح، إلىٰ غير ذلك من الشروط والآداب التي لو رُوعيت بحق وصِدْق لعادت بأحسن الثمار، وأجمل النتائج .

٨ ـ التذكير بواقع السلف، وفرحهم بالنقد والنصيحة :

حيث كان عمر يقول : «رَحِمَ الله امرءاً أهدىٰ إليَّ عيوبي»[1] .

وقال رجل له : اتق الله يا عمر، وأكثر عليه، فقال له قائل : اسكت فقد أكثرت على أمير المؤمنين، فقال له عمر : دَعْهُ، لا خير فيهم إن لم يقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبل»[2] .

(١ و٢) انظر : الخراج لأبي يوسف ص ١٤، وعنه نقل الطنطاويان في : أخبار عمر .

وعن جبير بن مطعم أن نفراً قالوا لعمر بن الخطاب: والله ما رأينا رجلاً أقضىٰ بالقسط، ولا أقول بالحقّ، ولا أشد علىٰ المنافقين منك يا أمير المؤمنين، فأنت خير الناس بعد الرسول ﷺ، فقال عوف بن مالك: كذبتم والله، لقد رأيت بعد رسول الله ﷺ خيراً من عمر : أبا بكر.

فقال عمر : «صدق عوف، وكذبتم، ولقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا أضل من بعير أهلي - يعني قبل أن يُسلم»(١) .

وخرج ذات يوم من المسجد، والجارود العبدي معه، فبينما هما خارجان إذ بامرأة علىٰ ظهر الطريق، فسلَّم عليها عمر، فردَّت عليه السلام، ثم قالت: رويدك يا عمر حتىٰ أكلمك كلمات قليلة، قال لها: قولي: قالت: يا عمر، عهدي بك وأنت تسمَّىٰ عميراً في سوق عكاظ، تصارع الفتيان، فلم تذهب الأيام حتىٰ سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتىٰ سُمِّيتَ أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت.

فقال الجارود : هيه قد اجترأتِ علىٰ أمير المؤمنين.

فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه يا جارود؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها مِنْ فوق سمائه، فعمر - والله - أحرىٰ أن يسمع كلامها .

أراد بذلك قوله تعالىٰ :

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ..﴾ (المجادلة) (٢) .

---

(١) انظر : سيرة عمر لابن الجوزي ١ / ١٢٨، وعنه نقل الطنطاويان في: أخبار عمر.

(٢) انظر : نهاية الأرب للنويري ٣ / ٢٤٥، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، ص ١٢٨، وعنهما نقل الطنطاويان.

وقال ابن عون : كان الرجل يقول لمعاوية : والله لتستقيمنَّ بنا يا معاوية أو لنقوِّمنَّك ، فيقول : بماذا؟ فيقول : بالخشب ، فيقول : إذن نستقيم(1) .

وقال عبيد القواريري : لما لقي الرشيد الفضيل قال له : يا حسن الوجه أنت المسؤول عن هذه الأمة ، حدثنا ليث عن مجاهد ﴿ **وتقطعت بهم الأسباب** ﴾ قال : الوصلة التي كانتْ بينهم في الدنيا ، فجعل هارون يبكي ويشهق(2) .

وقال الرشيد لشيبان : عظني ، قال : لأن تصحب من يخوِّفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تَصْحَبَ مَنْ يؤمنك حتى يدركك الخوف ، فقال الرشيد : فسِّر لي هذا ، قال : مَنْ يقول لك أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله ، أنصح لك مِمَّنْ يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيِّكم ﷺ ، فبكى الرشيد حتى رحمه مَنْ حوله(3) .

إلى غير ذلك من المواقف .

٩ - تحليْ الناقد والناصح بالأمل والثقة في الله - عز وجل - :

وعلى الناقد أو الناصح أن يكون متفائلاً ذا أمل وثقة في الله الذي بيده مقاليد السموات والأرض ، والذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فإن ذلك الأمل وتلك الثقة يحملان على الاستمرار مع عدم اليأس والقنوط إلى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده .

ولقد رسم لنا رسول الله ﷺ هذا المعلم وثبَّته .

كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت :

(١ و٢ و٣) انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ .

يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشدَّ مَنْ يوم أُحد؟ قال:

«لقد لقيتُ مِنْ قومك [١]، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة [٢] فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي [٣]، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب [٤]، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلِكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ [٥] إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين [٦]».

---

(١) تقدير الكلام: «لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ».

(٢) يوم العقبة: هو اليوم الذي وقف ﷺ عند العقبة بمنى داعياً الناس إلى الإسلام، فما أجابوه، وآذوه، وذلك اليوم صار معروفاً.

(٣) «على وجهي» يعني: على الجهة المواجهة لي، فالجار والمجرور متعلقان بانطلقتُ، أي: انطلقتُ هائماً لا أدري أين أتوجه.

(٤) قوله ﷺ: «فلم أستفق إلا بقرن الثعالب» أي لم أفطن لنفسي، وأتنبه لحالي، وللموضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه إلا وأنا عند قرن الثعالب لكثرة همِّي الذي كنتُ فيه، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ٤/ ٤٣٨، ثم ينقل عن القاضي عياض قوله: «قرن الثعالب هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وأصل القرن: كل جبل صغير ينقطع مِنْ جبل كبير».

(٥) قوله: «فما شئت؟» استفهام، وتقدير الكلام: ما الذي شئت حتى أنفذه لك؟

(٦) جواب الشرط محذوف تقديره: «أطبقت» يعني: إن شئت ضممتُ الأخشبين، وجعلتهما كالطبق عليهم حتى يهلكوا تحته فعلتُ، والأخشبان هما الجبلان المحيطان بمكة: أبو قبيس، والأحمر، وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان، والأخشب: كلُّ جبلٍ خشن غليظ الحجارة، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٢٩٤، والمنهاج للنووي ٤/ ٤٣٩.

فقال له رسول الله ﷺ :

« بل أرجو أن يُخرج الله مِنْ أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئاً »[1] .

وقد حقق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ ما رجا ، إذا أقبل هؤلاء يُسلمون عام الفتح ، وما بعده ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، كما ظهر هذا الأمل ، وتلك الثقة عنده ﷺ في دعوته لعمر بالهداية ، إذ كان يكثر في دعائه من قوله :

«اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب»[2] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب إذا قال أحدكم «آمين» ، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرىٰ غُفر له ما تقدم من ذنبه ٦/ ٣١٢ ـ ٣١٣ برقم ٣٢٣١ (فتح الباري) بهذا اللفظ ، وكتاب التوحيد : باب «وكان الله سميعا بصيرا» ١٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣ برقم ٧٣٨٩ (فتح الباري) بلفظ : «إن جبريل ـ عليه السلام ـ ناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك ، وما ردُّوا عليك» .

ومسلم في : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب ما لقي النبي ﷺ مِنْ أذىٰ المشركين والمنافقين ٣/ ١٤٢٠ ـ ١٤٢١ برقم ١٩٥ / ١١١ بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب المناقب : باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ٥/ ٦١٧ برقم ٣٦٨١ من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً به ، وقال : «حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر» ، غير أن في إسناده : «خارجة بن عبدالله» وهو كما قال ابن حجر في : التقريب ص ٢٨٣ برقم ١٦٢١ : «صدوق له أوهام» وله شواهد منها : ما أخرجه الطبراني في : المعجم الأوسط ١/ ٣٤٤ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بإسناد فيه مبارك بن فضالة وقد قال عنه ابن حجر في : التقريب ص ٩١٨ برقم ٦٥٠٦ : «صدوق يدلس ويسوِّي» ولكنه صرح بالسماع من شيخه .

ومنها ما أخرجه الطبراني في : المعجم الكبير ١٠ / ١٩٦ ـ ١٩٧ من حديث ابن مسعود بإسناد فيه مجالد بن سعيد ، وقال عنه ابن حجر في : التقريب ص ٩٢ برقم ٦٥٢٠ : «ليس بالقوي ، وقد تغيَّر في آخر عمره» ، وفيه : محمد بن الحسن الأسدي ، =

وقد أجاب الله دعاءه ﷺ، فهدىٰ عمر إلىٰ الإسلام، وأسلم، وكان إسلامه عزّاً وفتحاً ونصراً للإسلام والمسلمين.

وظهر هذا الأمل، وهذه الثقة أيضاً لدىٰ رسول الله ﷺ عندما جاءه

=وقد قال عنه ابن حجر في: التقريب ص ٨٣٦ـ٨٣٧ برقم ٥٨٥٣: «صدوق فيه لين».

ومنها ما أخرجه ابن ماجه في: السنن: المقدمة ١/ ٣٩ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بإسناد فيه ضعف، ومنها ما عند الحاكم في المستدرك ٣/ ٨٣ من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأقره الذهبي، وبهذه الشواهد جميعاً يصير الحديث ـ كما يقول الدكتور أكرم ضياء العمري ـ السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٧٨: «صحيحاً لغيره».

ولكن الشيخ محمد الصادق عرجون في: محمد رسول الله ١/ ٦١١ ـ ٦٢٧ بتصرف كثير وَهَّىٰ الحديث من حيث المتن، مستنداً إلىٰ أمور، منها:

١ ـ أنه مضطرب الألفاظ في الروايات، فقد رواه صاحب الصفوة بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بعمرو ـ أي أبي جهل ـ أو عمر»، ورواه ابن إسحاق عن خباب بن الأرت بلفظ: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، ورواه ابن سيِّد الناس في عيون الأثر بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: إمَّا أبو جهل بن هشام، وإمَّا عمر ابن الخطاب»، قال: وهذا الاضطراب في ألفاظ الحديث يضعف روايته، ويوهي نصَّه.

٢ ـ أن أبا جهل كان ـ منذ جاء الإسلام ـ لعين الله تعالىٰ وملائكته، ورسوله والمسلمين أجمعين بسبب عداوته الشديدة، وإيذائه المستمر للرسول والمسلمين، حسبه ما صنع مع سميَّة أول شهيدة في الإسلام، وما صنع مع أسماء بنت أبي بكر الصديق يوم الهجرة، وهما امرأتان لا حول لهما ولا قوة، فكيف يتصور أن يدعو رسول الله ﷺ ربَّه أن يؤيد دينه برجل يفقد العزة والكرامة والمروءة؟.

٣ ـ أن جعل هذا الخبيث ـ أبا جهل ـ في ميزان مع عمر بن الخطاب، وهو مَنْ هو في جاهليته: رجولة، وفتوة، وعزة، وجدةً، لا يستقيم مع موازين الرجال، والتطلع إليهم ليسهموا في معالي أمور الحياة، وقيادتها، ولو كان وضع الرجلين في ميزان مستقيماً لكانت الدعوة بإعزاز الدين بالرجلين معاً أجدىٰ وأنفع، والإسلام لا يضيق بإسلام الرجلين، وإعزازهما، وتأييدهما له.

٤ ـ أنه ثبت في الصحيح دعاء النبي ﷺ علىٰ أبي جهل لما أفرط في إيذائه له، فكيف يدعو عليه، وله، وهو مُجاب الدعوة؟.

الطفيل بن عمرو ويقول له: إن دوساً قد هلكت: عَصَتْ، وأَبَتْ، فادع الله عليهم، فقال ﷺ:

«اللهم اهد دوساً، وائت بهم» [١].

قال ابن حجر:

«وقع مصداق ذلك، فذكر ابن الكلبي أن حبيب بن عمرو بن حثمة الدوسي كان حاكماً على دوس، وكذا كان أبوه من قبله، وعمِّر ثلاثمائة سنة، وكان حبيب يقول: إني لأعلم أن للخلق خالقاً، لكن لا أدري مَنْ هو، فلما سمع النبي ﷺ خرج إليه، ومعه خمسة وسبعون رجلاً من قومه، فأسلم وأسلموا» [٢].

١٠. مشاهدة الأحياء من ذوي الأسوة والقدوة الذين يفرحون بالنقد والنصيحة ويبادرون بالتنفيذ:

ومن أحسن طرق علاج رفض النقد أو النصيحة، مشاهدة الأحياء من ذوي الأسوة والقدوة الذين يفرحون بالنقد أو النصيحة، وينزلون على مقتضاهما، فإن ذلك يحمل على الاقتداء والتأسي أو على الأقل: المحاكاة والتشبُّه.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب المغازي: باب قصة دوس، والطفيل بن عمرو الدَّوسي ٨/ ١٠١ برقم ٤٣٩٢ (فتح الباري)، ومسلم في: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل غفار، وأسلم، وجهينة... ٤/ ١٩٥٧ برقم ٢٥٢٤ / ١٩٧ كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) انظر: فتح الباري ٨/ ١٠٢.

فالابن إذا رأىٰ أبويه قد وجه إليهما نقد أو أُسديتْ إليهما نصيحة ونزلا علىٰ مقتضاهما: حمله ذلك علىٰ النسج علىٰ منوالهما، وقِس علىٰ ذلك كل المواقف التي من هذا القبيل.

١١ ـ الإنكار بالوسيلة المناسبة، وأقلها بالقلب:

ومن أساليب العلاج: الإنكار بالوسيلة المناسبة، وأقلها بالقلب، فإن ذلك أفعل في التغيير والإصلاح.

إذ يقول النبي ﷺ:

«مَنْ رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (١).

ويقول أيضاً:

«ما مِنْ نبيٍّ بعثه الله فى أمةٍ قبلي إلا كان له من أمَّته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف مِنْ بعدهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان كون النَّهي عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩ رقم / ٤٩ ٧٨، ٧٩ وأبو داوُد في: السنن: كتاب الصلاة: باب الخطبة يوم العيد ١/ ٦٦٧ـ٦٧٨ برقم ١١٤٠، والترمذي في: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان، أو بالقلب ٤/ ٤٦٩ـ٤٧٠، والنسائي في: السنن: كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان ٨/ ١١١ـ١١٢ برقم ٥٠٠٨، ٥٠٠٩، وابن ماجه في: السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء في صلاة العيدين ١/ ٤٠٦ برقم ١٢٧٥، وكتاب الفتن: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢/ ١٣٣٠ برقم ٤٠١٣، وأحمد في المسند ٣/ ١٠ كلهم من حديث أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وقال الترمذي عقب حديثه: «هذا حديث حسن صحيح».

خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» [(١)] .

ولقد تحقَّقَ أثر هذا الإنكار على أرض الواقع حين تخلَّف كعب بن مالك، وهلال بن أميَّة، ومُرارة بن الربيع عن الذهاب مع النبيِّ إلى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة بغير عذر سوى عذر التسويف، والقدرة على الجهاز واللحاق بالجيش في أيِّ لحظة .

ودعاهم النبيُّ ﷺ لما عاد من الغزو، وسألهم : ما الذي خلَّفكم؟ فكلهم صدق النبي ﷺ. . . الحديث .

فأمر المسلمين بمقاطعتهم إلى خمسين ليلة، ثم جاء القرآن إلى النبي ﷺ بقبول توبتهم بعد ما أصابهم ما أصابهم .

قال تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩ـ٧٠ برقم ٨٠، وأحمد في : المسند ١/ ٤٥٨ـ٤٦٢ كلاهما من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به، إلا أن رواية أحمد انتهت عند قوله: «يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون» .

إلاَّ إلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ (التوبة).

فقد علمتهم المقاطعة الانتباه وعدم الرجوع إلىٰ الخطأ، وكذلك يمكن أن يحمل الرافضين للنقد، أو للنصيحة علىٰ القبول وعدم التمادي.

١٢ - تربية ملكة المراقبة لله - عزَّ وجلَّ - وخوف الآخرة:

وقبل هذا وذاك فإنه ينبغي التركيز علىٰ ملكة المراقبة لله - عزَّ وجلَّ - أنه يسمع ويرىٰ ويعلم، وأننا راجعون إليه لا محالة، ومجزيُّون علىٰ أعمالنا بالسوء سوءًا، وبالإحسان إحساناً.

إذ لو تحقق ذلك فإنه يقود لا محالة إلىٰ قبول النقد، والنزول علىٰ النصيحة خوفاً من سوء العاقبة، ولذا كانت الدعوة والتربية - أول الأمر - قائمتين علىٰ ذلك، قال تعالىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ (الشمس).

وقال تعالىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾ (الأعلىٰ).

وقال تعالىٰ:

﴿إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

حتىٰ إذا قويت هذه الملكة زال الجدل والمراء من صدور الناس، وصاروا أطوع ما يكونون لحكم الله ورسوله، وعندئذ أثنىٰ عليهم ربُّ العزة بقوله:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ (الأحزاب) .

وقوله :

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ (النور) .

❊ ❊ ❊

الآفة الثلاثون

اللغو

الآفة الثلاثون

اللغو

والآفة الثلاثون التي يتهاون بها الناس كثيراً وهي من الخطورة بمكان: اللغو، وحتى يتخلص منها من ابتلي بها، ويتوقاها مَنْ سلَّمه الله - عزَّ وجلَّ - منها، فإنه لابدَّ من القيام بسلسلة من الأعباء تبدأ بالتعرف على أبعاد ومعالم هذه الآفة على النحو التالي:

أولاً: تعريف اللغو لغة واصطلاحاً:

لغةً: يُطلق اللغو على معانٍ عدة منها:

١ - الميل عن النافع إلى غيره، تقول: لغا عن الصواب، وعن الطريق مال منه إلى غيره من الخطأ ونحوه.

٢ - الخطأ أو الباطل، تقول: لغا فلانٌ لغواً، وباللغو: تكلم الخطأ أو الباطل، وبالخطأ أو بالباطل.

٣ - لزوم الشيء أو الولع به وعدم مفارقته، تقول: لَغِيَ بالشيء وفي الشيء لزمه أو أولع به وفيه فلم يفارقه.

٤ - الإكثار من الشيء مع عدم جدواه، تقول: لَغِيَ بالماء والشَّراب أكثر منه مع عدم ريِّه.

٥ - المزاح، تقول: لاغاه: مازحه.

٦ ـ التنغيم ، تقول : لَغيَ بصوته : نغَّم به .

٧ ـ الفحش ، تقول : كلمة لاغية : فاحشة .

٨ ـ ما لا يُعتد به ، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع ، تقول : تكلَّم باللَّغا : قال : ما لا يُعتد به ، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع .

٩ ـ ما لا يعقد عليه القلب ، مثل : لغو اليمين ، وهو قول القائل : لا والله ، وبلىٰ والله ، مما يصدر باللسان ولا يُراد منه عقد القلب (١) .

وظنِّي أنَّـه لا تعارض بين هذه المعاني جميعاً ، إذ بعضها يحدد حقيقة اللغو وهو الميل عن النافع إلىٰ غيره ، أو الاشتغال بما لا يُعتد به ، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع ، وبعضها يحدد صوره من : المزاح ، والتنغيم ، والفحش ، وما يجري علىٰ اللسان دون قصد أو نيَّة ، وبعضها يحدِّد مقداره ، وحجمه ، وهو لزوم الشيء أو الولع به مع عدم مفارقته ، وبعضها يجمع ذلك كلَّه ، ولكن علىٰ سبيل الإجمال لا البسط ، وهو الإكثار من الشيء مع عدم جدواه .

اصطلاحاً : اختلفت عبارات العلماء في تعريفه اصطلاحاً ، ودونك أشهر هذه التعاريف :

١ ـ تعريف ابن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ ، إذ قال : «واللغو كلُّ كلام أو فعل باطل ، وكل ما يستقبح ، كسبُ الإنسان ، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن ، وسماع الغناء مما هو قبيح ، كل ذلك يدخل في معنىٰ اللغو الذي

(١) انظر : القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤ / ٥٥٩ ـ ٥٦٠ باب الواو والياء : فصل اللام ، والمعجم الوسيط ٢ / ٨٣١ ، الصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص ١٠٥٥ مادة : «لغا» بتصرف كثير .

يجب أن يجتنبه المؤمن»[1].

٢. **تعريف الزجاج ت ٣١١هـ**، إذ قال: «واللغو: كل لعب، ولهو، وكل معصية فهي مُطَّرحة ملغاة»[2].

٣. **تعريف أبي حيان الأندلسي ت ٧٥٤ هـ**، إذ قال: «اللغو: فضول الكلام وما لا طائل تحته»[3]، وقال أيضاً: «اللغو ما لا يغنيك مِنْ قول أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة طرحه»[4]، وقال: «كل ما ينبغي أن يُلغىٰ ويُطرح»[5].

٤. **تعريف الحافظ ابن كثير ت ٧٧٤هـ**، إذ قال: «اللغو: الباطل، وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال، والأفعال»[6].

٥. **تعريف ابن عطية ت ٥٤١ هـ**، إذ قال: «واللغو: سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأصحابه»[7].

٦. **تعريف صديق حسن القنوجي ت ١٣٠٧ هـ**، إذ قال: «وقيل المراد باللغو: كل ما كان حراماً، أو مكروهاً، أو مباحاً لم تدع إليه ضرورة، ولا حاجة»[8].

---

(١) انظر: جامع البيان: ١٩ / ٣٢.
(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٤٦٠.
(٣ و ٤ و ٥) انظر: البحر المحيط ٦ / ٢٠٢، ٣٩٥، ٥١٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٣٨ بتصرف.
(٧) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٠ / ٣٣١.
(٨) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ٩ / ٩٧.

ومع أن هذه التعاريف جميعاً متقاربة إلا أن أجمعها، وأكثرها إيجازاً ودلالة على المراد هو تعريف الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ ت ٧٧٤هـ، وتعريف أبي حيان ت ٧٥٤هـ الأخير: «كل ما ينبغي أن يُلغى ويُطرح»، ولامانع من صياغته بعبارة أكثر سهولة ويسراً بأن يُقال:

هو الاشتغال بغير النافع المفيد عن النافع المفيد.

ثانياً: بعض المظاهر الدالَّة على اللغو مع بيان موقف الإسلام منه:

وهناك مظاهر كثيرة دالة على اللغو، نذكر منها:

١ ـ رفع الصوت بقبيح الغناء، وكذلك سماعه.

٢ ـ كثرة الكلام، من غير مبرر ولا موجب.

٣ ـ استخدام الألفاظ النابية أو القبيحة في التعبير عن الشيء.

٤ ـ اللعب غير المشروع، مثل اللعب بالحمَام، والميسر، ونحو ذلك.

٥ ـ اللهو الباطل على نحو ما جاء في الحديث الشريف: «**كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبتُه أهله، ورميُه بقوسه ونبله، فإنهنَّ من الحق**» الحديث [1].

---

(١) الحديث قطعة من حديث طويل أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب الجهاد: باب الرمي ٣/ ٢٨ـ٢٩ رقم ٢٥١٣، والترمذي في: السُّنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ٤/ ١٤٩ رقم ١٦٣٧، والنسائي في: السُّنن: كتاب الخيل: باب تأديب الرجل فرسه ٦/ ٢٢٢ـ٢٢٣ من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً عند أبي داود والنسائي، ومن حديث عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي حسين، وعقبة عند الترمذي، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الجهاد: باب الرمي في سبيل الله ٢/ ٩٤٠ رقم ٢٨١١ من =

٦ ـ المزاح غير المنضبط بضوابط الشرع الحنيف، إذ كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، أو الإكثار من المزاح ولو كان منضبطاً بضوابط الشرع.

٧ ـ الوقوف مع أهل اللغو، أو الخوض معهم، ومشاركتهم باطلهم.

٨ ـ الحلف بغير مبرر ولا موجب ولو كان حقاً، ومن باب أولى الحلف بالباطل.

٩ ـ التدخل فيما لا يعني، وإقحام النَّفْسُ فيما لا ينفع ولا يفيد.

١٠ ـ السخرية واللمز، والاستهزاء، ونحو ذلك.

ويجمع ذلك كله قول صديق بن حسن القنوجي المذكور آنفاً وهو: «كل ما كان حراماً، أو مكروهاً، أو مباحاً لم تدع إليه ضرورة ولا حاجة».

ولقد ذم الشارع اللغو بكل أشكاله وصوره ومظاهره، حيث جعل الإعراض عنه، وعن أهله من صفات المؤمنين فقال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾ (المؤمنون).

قال أبو حيان:

«لـمَّا وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعهم الوصف بالإعراض عن

=حديث عقبة بن عامر الجهني، وأوله: «إن الله ليدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفر الجنَّة..» الحديث، وعقَّب عليه الترمذي بقوله: «وفي الباب عن كعب بن مُرَّة، وعمرو بن عَبَسَة، وعبدالله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح».

اللغو، ليجمع لهم الفعل، والترك الشَّاقَّينْ على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف»[1].

وقال تعالىٰ :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ (الفرقان).

قال أبو حيان :

«والمعنىٰ : وإذا مرُّوا بأهل اللغو مرُّوا مُعرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم، والخوض معهم لقوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ انتهىٰ»[2].

وقال تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ (القصص) .

وحذَّر من مجالسة أهله فقال تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ (الأنعام) .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٦/ ٣٩٥ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٦/ ٥١٦ .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ (النساء) .

وطهَّر سبحانه الجنة منه بقوله عن أهلها :

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ (مريم) .

وقوله :

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣) ﴾ (الطور) .

وقوله :

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) ﴾ (الواقعة) .

وقوله :

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) ﴾ (النبأ) .

وقوله :

﴿ وجوه يومئذ ناعمة (٨) لسعيها راضية (٩) في جنة عالية (١٠) لا تسمع فيها لاغية (١١) ﴾ (الغاشية) .

وجاء عن النبي ﷺ قوله:

«مِنْ حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(1).

---

(1) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن: كتاب الزهد: باب منه ٤ / ٤٨٣ ـ ٤٨٤ رقم ٢٣١٧ من حديث الأوزاعي، عن قرَّة، عن الزهري، عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه»، ورقم ٢٣١٨ من حديث مالك بن أنس، عن الزهري، عن علي بن حسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وعقَّب عليه بقوله: «وهكذا روىٰ غير واحد من أصحاب الزهري، عن الزهري، عن علي بن حسين عن النبي ﷺ نحو حديث مالك مرسلاً، وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة، وعلي بن حسين لم يدرك علي بن أبي طالب».

والإسناد الأول عند الترمذي حسن، ولا يضره أن قرَّة بن عبدالرحمن ـ مع كونه صدوقاً ـ له مناكير، إذ الحديث ليس واحداً منها، انظر: التقريب ص ٨٠٠ ـ ٨٠١ رقم ٥٥٧٦، وهكذا حسنه الإمام النووي في الأربعين النووية ووافقه ابن رجب، وأمَّا الإسناد الثاني فصحيح غير أنه مرسل لأن علي بن الحسين لم يلق النبي ﷺ، وبيَّن الأئمة اختلاف في المحفوظ من هاتين الروايتين: فبينما يقول ابن عبد البر: هذا الحديث محفوظ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، نجد أكثر الأئمة يقولون: ليس هو بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنما هو محفوظ عن الزهري، عن علي بن حسين، عن النبي ﷺ مرسلاً، وأياً ما كان فالحديث حسن، انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/ ١٧ ـ ١٩ بتصرف كثير. دار الكتب الجديد، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٦ / ٦٠٨ بتصرف، وأخرجه ابن ماجه في: السنن: كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة ٢ / ١٣١٥ ـ ١٣١٦ رقم ٣٩٧٦ بالإسناد الأول عند الترمذي، وأحمد في: المسند ١ / ٢٠١ عن ابن نمير، ويعلىٰ كلاهما عن حجاج بن دينار الواسطي، عن شعيب بن خالد عن حسين ابن علي عن النبي ﷺ، وعقَّب ابن رجب علىٰ ذلك ٢/ ١٩، وعنه نقل المباركفوري ٦ / ٦٠٨ بقوله: وضعفه البخاري في تاريخه من هذا الوجه أيضاً، وقال: لا يصح إلا عن علي ابن الحسين مرسلاً».

ومما يتعجب منه بعد كلُّ ما تقدم إيراد الألباني له في: صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ برقم ١٨٨٦ / ٢٤٣٣ وتعقيبه عليه بقوله: «صحيح ـ ابن ماجه ٣٩٧٦»، ورقم ١٧٨٧ / ٢٤٣٤ وتعقيبه عليه بقوله: «صحيح بما قبله».

وقوله : «**كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه..**» الحديث(١) .

وقوله : «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(٢) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب خوف المؤمن من أن يحبط عَمَلُهُ وهو لا يشعر ١/ ١٩ ، وكتاب الفتن : باب قول النبي ﷺ : «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ٩/ ٦٣ عن زبيد بن الحارث اليامي ، والأعمش : سليمان بن مهران كلاهما عن شقيق بن سلمة الأسدي أبي وائل الكوفي ، عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ ، وكتاب الأدب : باب ما يُنهى من السِّباب واللعن ٨/ ١٨ عن سليمان ابن حرب ، عن شعبة عن منصور عن أبي وائل ، عن ابن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ ، وعقَّب عليه البخاري بقوله : «تابعه غندر عن شعبة» ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان قول النبي ﷺ : «سِباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» ١/ ٨١، رقم ١١٦ / ٦٤ من حديث محمد بن طلحة، وسفيان، وشعبة كلهم عن زبيد، عن أبي وائل، عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ ، وعقَّب عليه بقوله : «قال زبيد : فقلت لأبي وائل : أنت سمعته من عبدالله يرويه عن رسول الله ﷺ؟ قال : نعم، وليس في حديث شعبة قول زبيد لأبي وائل»، ورقم ١١٧ / ٦٤ من حديث شعبة عن منصور والأعمش كلاهما عن أبي وائل ، عن عبدالله ، عن النبي ﷺ بمثله ، والترمذي في : السنن : كتاب البرِّ : باب منه ٤/ ٣١١ رقم ١٩٨٣ من حديث زبيد بن الحارث ، عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ ، وعقَّب عليه بقوله : «قال زبيد : قلتُ لأبي وائل : أأنتَ سمعتَه من عبدالله؟ قال : نعم ، وهذا حديث حسن صحيح» ، وكتاب الإيمان : باب ما جاء : سباب المؤمن فسوق ٥/ ٢١ ـ ٢٢ رقم ٢٦٣٤ من حديث عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه مرفوعاً : «قتال المسلم أخاه كفر ، وسبابُه فسوق» ، وعقَّب عليه بقوله : «وفي الباب عن سعد ، وعبدالله بن مغفَّل ، وحديث ابن مسعود حديث حسن صحيح ، وقد روى عن عبدالله بن مسعود مِن غير وجه» ، ورقم ٢٦٣٥ من حديث أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعاً : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ، وقال عقيبه : «هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائي في : السنن : كتاب تحريم الدم : باب قتال المسلم ٧/ ١٢١ ـ ١٢٢ (المجتبى) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً بلفظ : «قتال المسلم كفر ، وسبابه فسوق» ، ومن حديث أبي الأحوص عن عبدالله =

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال :

«أعظم الناس خطايا يوم القيامة : أكثرهم خوضاً في الباطل»(١) .

=ابن مسعود موقوفاً : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وفي رواية : «فسق» بدل «فسوق»، ومن حديث عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه مرفوعاً : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، ومن حديث أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعاً، وموقوفاً، وابن ماجه في : السنن : المقدمة : باب اجتناب البدع، والجدل ١/ ١٨ رقم ٤٦ من حديث أبي الأحوص، عن ابن مسعود مرفوعاً على أنه قطعة من حديث : «إنما هما اثنتان : الكلام والهَدْيُ. . .»، وباب في الإيمان ١/ ٢٧ رقم ٦٩ من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ، وكتاب الفتن : باب سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر ٢/ ١٢٩٩ رقم ٣٩٣٩ من حديث ابن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ. ومن حديث محمد بن الحسن الأسدي، عن أبي هلال، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقَّب عليه البوصيري في : مصباح الزجاجة ٤/ ١٦٥ ـ ١٦٦ بقوله : «إسناد حديث أبي هريرة حسن، وأبو هلال اسمه : محمد بن سليم، مختلف فيه، وكذلك محمد بن الحسن وله شاهد من حديث ابن مسعود، رواه الشيخان وغيرهما»، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٥، ٤١١، ٤٣٣، ٤٣٩، ٤٥٤ ـ ٤٥٥ من حديث أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعاً، هذا وقد خرَّج الحافظ ابن حجر في : فتح الباري ١/ ١١٢ الحديث تخريجاً مستوعباً كما ساق له سبب ورود، فقال في : فتح الباري ١٣/ ٢٧ : «وورد لهذا الحديث سبب أخرجه البغوي والطبراني من طريق أبي خالد الوالبي، عن عمرو بن النعمان بن مُقَرِّن المزني قال : انتهى رسول الله ﷺ إلى مجلس من مجالس الأنصار، ورجل من الأنصار كان عرف بالبذاء، ومشاتمة الناس، فقال رسول الله ﷺ : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، زاد البغوي في روايته : «فقال ذلك الرجل : والله لا أُسَابُّ رجلاً».

كما فسر إطلاق الكفر على قتال المؤمن بقوله : «إن أقوى ما قيل في ذلك أنه أطلق عليه مبالغة في التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه، أو أنه على سبيل التشبيه لأن ذلك فعل الكافر».

(١) أورده الغزالي في : إحياء علوم الدين : الكتاب الرابع من ربع المهلكات : الآفة الثالثة :=

وقال سلمان ـ رضي الله عنه ـ :

«أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة : أكثرهم كلاماً في معصية الله» (١) .

إلىٰ غير ذلك مما يشهد بذمِّ الشارع للغو ، وتنفيره منه .

ثالثاً : أسباب الوقوع في اللغو :

والأسباب التي توقع في اللغو كثيرة، نذكر منها :

١ ـ البيئـة :

فقد تكون البيئة التي يولد بها المرء ، وينشأ ويعيش فيها من أبرز الأسباب التي توقع في اللغو بغض النظر عن كون هذه البيئة قريبة كالبيت أو الأسرة التي ينتمي إليها أم بعيدة كالمجتمع الذي يخالطه ، ولذا تقدم التنبيه غير مرَّة علىٰ ضرورة الالتزام بضوابط الشرع الحنيف عند بناء الأسرة ، وكذلك في تحديد مكان السكنىٰ والإقامة ، وأيضاً الدقة في اختيار مجتمع الأصحاب والأصدقاء ، إذ هذه جميعاً إذا كانت غارقة في اللهو منغمسة فيه ، حملتْ الناشئة حملاً علىٰ التأثر والاصطباغ بنفس الصبغة ، أما إذا كانت بمنأىٰ عن هذا اللغو فإنها تصبغ الناشئة بصبغتها ، وتسقيهم من حياضها .

= الخوض في الباطل ٣/ ١١٦ ، وعقَّب عليه العراقي في : المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار بهامش الإحياء بقوله : «أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ، ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفاً علىٰ ابن مسعود بسند صحيح» .

(١) انظر : إحياء علوم الدين : الكتاب الرابع من المهلكات : الآفة الثالثة : الخوض في الباطل ١١٦/٣ .

٢ـ عدم إدراك المرء رسالته في الأرض :

وقد يكون عدم إدراك المرء رسالته في الأرض من بين الأسباب التي توقع في اللغو.

إذ المرء حينئذٍ يكون أشبه بالعجماوات التي لا همَّ لها سوىٰ ملأ البطون، وإشباع الفروج، وتلك والعياذ بالله سمة الكفار، إذ يقول الحقُّ سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾ (محمد).

أَجَلْ: إنَّ عدم معرفة الإنسان لرسالته ودوره في الأرض يعني: أن نفسه صارت فارغة من الحق، ومَنْ فرغت نفسه من الحقِّ امتلأت بالباطل، وذلك هو اللغو.

٣ـ تلاشي أو ضعف مراقبة الله عز وجل :

وقد يكون تلاشي أو ضعف مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من بين الأسباب التي توقع في اللغو، ذلك أن المرء إذا لم يؤمن أن الله معه في كل ظروفه وأحايينه: يسمع، ويرىٰ، ويعلم، أو تضعف لديه هذه المراقبة يقع لا محالة في كلِّ إثم ورذيلة، وليس هذا سوىٰ اللغو.

وقد جاء في الحديث ما يكشف عن ذلك، إذ يقول النبي ﷺ:

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب

نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» (١) .

يقول المهلب في معنى نفي الإيمان عنه :

«تنزع منه بصيرته في طاعة الله » (٢) .

ويقول ابن الجوزي :

«إن المعصية تذهله عن مراعاة الإيمان ، وهو تصديق القلب ، فكأنَّه نسي مَنْ صدَّق به» (٣) .

ويقول ابن حجر :

« معنى قوله ليس بمؤمن : أي ليس بمستحضر في حالة تلبُّسِه بالكبيرة جلال مَنْ آمن به ، فهو كناية عن الغفلة التي جلبتها له غلبة الشهوة» (٤) .

ويقول الطيبي : (ويحتمل أن يكون الذي نقص من إيمان المذكور : الحياء ، وهو المعبَّر عنه في الحديث الآخر بالنور ، وقد مضى أن الحياء من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المظالم : باب النهبى بغير إذن صاحبه ٣/ ١٧٨ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب نقصان الإيمان بالمعاصي ١/ ٧٦ ـ ٧٧ رقم ٥٧/ ١٠٠ ـ ١٠٥ ، وأبو داود في : السُّنن : كتاب السُّنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ، ونقصانه ٥/ ٦٤ ـ ٦٥ رقم ٤٦٨٩ ، والترمذي في : السنن : كتاب الإيمان : باب لا يزني الزاني وهو مؤمن ٥/ ١٦ ـ ١٧ رقم ٢٦٢٥ ، والنسائي في : السنن : كتاب قطع السارق : باب تعظيم السرقة ٨/ ٦٤ ـ ٦٥ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الفتن : باب النهي عن النهبة ٢/ ١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ رقم ٣٩٣٦ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه .

(٢) انظر : فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٢/ ٦٠ .

(٣) انظر : فتح الباري ١٢ / ٦١ .

(٤) انظر : فتح الباري ١٢/ ٦١ .

الإيمان، فيكون التقدير: لايزني حين يزني وهو يستحيي من الله، لأنه لو استحيا منه، وهو يعرف أنَّه مُشاهد حاله لم يرتكب ذلك، وإلىٰ ذلك تصح إشارة ابن عباس تشبيك أصابعه، ثم إخراجها منها، ثم إعادتها إليها، ويعضِّده حديث «**مَنْ استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى**»[1].

ويقول الإمام النووي:

(اختلف العلماء في معنىٰ هذا الحديث، والصحيح الذي قاله المحقِّقون أنَّ معناه: لا يفعل هذه المعاصي، وهو كامل الإيمان، هذا من الألفاظ التي تطلق على الشيء، والمراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا ما يُغَلُّ، ولا عيش إلا عيش الآخرة، وإنما تأولناه لحديث أبي ذرٍّ: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق**»، وحديث عبادة الصحيح المشهور: «**أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على ألا يسرقوا، ولا يزنوا..**» الحديث، وفي آخره: «**..ومَنْ فعل شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة، ومَنْ لم يُعاقب فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه**»، فهذا مع قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ:

﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (النساء: ٤٨).

مع إجماع أهل السنة على أن مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك يضطرنا إلىٰ تأويل الحديث ونظائره، وهو تأويل سائغ في اللغة مستعمل فيها كثيراً، وتأوَّله بعض العلماء على من فعله مستحلاً، مع علمه بتحريمه)[2].

---

(١) انظر: فتح الباري ١٢ / ٦٢.

(٢) انظر: فتح الباري ١٢/ ٦٠ـ٦٢ حيث يقول ابن حجر: «وحاصل ما اجتمع لنا من =

٤ ـ نسيان يوم الحساب والجزاء :

وقد يكون نسيان يوم الحساب والجزاء من بين الأسباب التي توقع في اللغو، ذلك أن الإنسان إذا نسي أن أعماله محصية ومكتوبة عليه، وأنَّه رجع إلىٰ ربه لا محالة، ومجزي عن هذه الأعمال بالسوء سوءاً، وبالإحسان إحساناً إذا نسي ذلك : وجد من نفسه الجرأة علىٰ اقتحام اللغو والوقوع فيه، وقد نبَّه ربُّ العزة إلىٰ ذلك بقوله :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ (ص) .

٥ ـ العمل على تحقيق العبودية على غير هدي وبغير منهاج :

وقد يكون المرء عرفاً بدوره ورسالته في الأرض، وأنها العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثلة في عمارة الأرض إلىٰ حدِّ السيادة فيها مع ربط ذلك بمنهج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكنه يسعىٰ لتحقيق هذه العبودية بغير هدىٰ، وعلىٰ غير منهاج، فتراه يقدم الفروع علىٰ الأصول، والنوافل علىٰ الفرائض، والمختلف فيه علىٰ المجمع عليه، بل ربما توسع في المباحات إلىٰ حدِّ الولع بها، وعدم الاستغناء عنها، وتلك إحدىٰ صور اللغو التي مضىٰ الحديث عنها آنفاً .

٦ ـ اتباع الهوى :

وقد يكون اتباع الهوىٰ من بين الأسباب التي توقع في اللغو، ذلك أن

=الأقوال في معنىٰ هذا الحديث ثلاثة عشر قولاً خارجاً عن قول الخوارج، وعن قول المعتزلة» من جملتها هذه الأقوال المذكورة في بيان المراد مِنْ سلب الإيمان عَمَّنْ ارتكب جريمة أو أكثر من الجرائم المذكورة في الحديث .

الإنسان إذا تبع هواه من غير هدي من الله، زيّن له شياطين الإنس والجن الوقوع في اللغو، وسولّت له نفسه الأمارة بالسوء ذلك، وقد يكون من الضعف بحيث يستجيب لهؤلاء جميعاً إشباعاً لهواه، وهذا هو اللغو، وصدق الله القائل:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ (القصص).

٧- الاحتجاج بحديث: ساعة وساعة:

وقد يكون الاحتجاج بحديث: «ساعة وساعة» (١)، من بين الأسباب التي توقع في اللغو، ذلك أن النفس تسأم وتمل، ولابدّ لها من المرح، والرفاهية، ولكن بالمشروع، وقد يفهم نفر من الناس أن اللغو هو من المرح،

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب التوبة: باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ٤/ ٢١٠٦- ٢١٠٧ رقم ٢٧٥٠ / ١٢- ١٣ من حديث حنظلة الأسيدي- وكان من كتّاب رسول الله ﷺ- قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلتُ نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلتُ: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلتُ: يا رسول الله! نكون عندك، تذكّرنا بالنار والجنّة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة، وساعة»**، ثلاث مرات، وله لفظ آخر عند مسلم أيضاً.

والرفاهية التي تخفف عن النفس السأم والملل، ويزعمون أن ذلك مباح على لسان النبي ﷺ، حيث أجاب حنظلة الذي جاء إليه ﷺ يشكو له أنه قد نافق، لأنه يجد قسوة من قلبه بعد انصرافه من عند النبي ﷺ واشتغاله بملاعبته أهله وولده، ومعالجة شؤون معاشه، بقوله: «**لو تكونون في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في الشوارع، والطرقات، وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة**»، وبئس ما زعموا، فإن النبي ﷺ لا يبيح اللغو، وقد نهى الله عنه في الآيات التي مضت آنفاً، كما نهى عنه النبي ﷺ في الأحاديث التي سقناها من قبل في بيان موقف الإسلام من اللغو، وإنما المراد أن الحياة عدة ساعات، فمنها ساعة للعلم، والذكر، وساعة للأهل والولد، وساعة للمعاش، وساعة للأضياف، وساعة للعلاقات الاجتماعية، وساعة للنوم والراحة. . . وهكذا.

وحياته ﷺ خير تطبيق لذلك، حيث كانت أوقاته ﷺ دائرة بين حق الله، وحق نفسه، وحق أهله، وحق أولاده، وأحفاده، وحق أصحابه، وحق أقاربه وأرحامه. . وهلم جرا.

٨ ـ عدم القيام بالواجب نحو المشتغلين باللغو:

وقد يكون عدم القيام بالواجب من الأمة، ومن ولي الأمر نحو المشتغلين باللغو من بين الأسباب التي توقع المرء في اللغو، وربما تحمله على استمرائه، والتمادي فيه، إذ المؤمنون ـ كما ذكر رب العزة سبحانه ـ بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ومَنْ ينسى منهم هذا الواجب، أو يهمله، فإنه يفسح المجال لأهل اللغو أن يستمروا أو يتمادوا، وربما يحتجون بعدم نهي الآخرين لهم أو إنكارهم عليهم.

٩ ـ عدم محاسبة النفس :

وقد يكون عدم محاسبة النفس من بين الأسباب التي توقع في اللغو، ذلك أن المرء مطلوب منه أن يحاسب نفسه أولاً بأول عن كلٍ ما كسبتْ، فإن وجد خيراً حمد الله، وإن وجد غير ذلك تاب وأناب ورجع إلى الله الواحد القهار، وعزم ألا يعود وإن قطِّع، وحرِّق بالنار، وحين ينسى المرء أو يهمل هذه المحاسبة يقع في اللغو من حيث لا يدري ولا يشعر.

١٠ ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الوقوع في اللغو :

وأخيراً قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الوقوع في اللغو من بين الأسباب التي توقع في اللغو، ذلك أن المرء إذا غفل أو نسي العواقب الضارة، والآثار الخطيرة لعمل مَّا فإنه يقع في هذا العمل، وربما يقيم عليه ولا ينفك عنه بحال.

رابعاً : العواقب والآثار المترتبة على الوقوع في اللغو :

هذا وهناك عواقب خطيرة ، وآثار مهلكة مترتبة على الوقوع في اللغو سواء على العاملين ، أم على العمل الإسلامي، ودونك هذه الآثار والعواقب :

أ ـ على العاملين :

وهي كثيرة نذكر منها :

١ ـ قسوة القلب :

ذلك أن اللغو إثم، وكل إثم يقترفه العبد يسوِّد جانباً من القلب حتى

يسوَّد القلب كله، ومع الاستمرار يقفل، ويطبع عليه بطابع، أو يختم عليه بخاتم، كما جاء في الحديث :

« إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ سوداءُ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقِلَ قلبُه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرانُ الذي ذكر الله: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (١) .

وإذا انتهت الحال بالقلب إلىٰ هذا المستوىٰ ، فإنه يصبح غاية في القسوة يأمر الجوارح بكل منكر وشرٍّ .

٢ ـ تبديد القوى والطاقات فيما لا فائدة فيه :

ذلك أن المقارف للغو يبدد قواه وطاقاته فيما لا طائل تحته، ولا فائدة من ورائه، وبذلك يضيِّع أغلىٰ ما يملك، وهو عمره، وفي الحديث :

« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ » (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب التفسير : باب ومن سورة المطففين ٥/ ٤٠٤ رقم ٣٣٣٤ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الذنوب ٢/ ١٤١٨ رقم ٤٢٤٤ ، وأحمد في : المسند ٢/ ٢٩٧ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً، واللفظ للترمذي، وعقب على حديثه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في : السنن (الكبرىٰ) : كتاب التفسير : باب قوله تعالىٰ : ﴿ كلا بل ران.. ﴾ ٦/ ٥٠٩ ، رقم ١١٦٥٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الرقاق : باب ما جاء في الرِّقاق وألا عيش إلا عيش الآخرة ٨/ ١٠٩ ، والترمذي في : السنن : كتاب الزهد : باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ٤/ ٤٧٧ رقم ٢٣٠٤ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب الحكمة ٢/ ١٣٩٦ رقم ٤١٧٠ ، وأحمد في : المسند ١/ ٣٤٤ كلهم من حديث عبدالله بن عباس مرفوعاً بهذا اللفظ .

٣ ـ تضييع ثواب الطاعات :

ذلك أن المرء المسلم لا ينفك عمله عن بعض الطاعات ، وبوقوعه في اللغو يبطل ثواب هذه الطاعات ، وبالتالي تضيع عليه ، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ شيء من ذلك حين قال :

«إذا قلتَ لصاحبك يوم الجمعة أنصتْ، والإمام يخطب فقد لغوت»[(١)] .

وحين قال : « ... **ومَنْ مسَّ الحصا فقد لغا** »[(٢)] .

٤ ـ فتح الباب أمام الآخرين للاقتداء والتأسي به في الإثم :

ذلك أن المقارف للغو يفتح الباب أمام الآخرين لاسيَّما الناشئة ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الجمعة : باب في الإنصات والإمام يخطب ٢/ ١٦ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الجمعة : باب في الإنصات يوم الجمعة في الخطبة ٢/ ٥٨٣ رقم ١٨٥١ / ١١ ـ ١٢ ، وأبو داود في : السنن : كتاب الصلاة : باب الكلام والإمام يخطب ١/ ٦٦٥ ، رقم ١١١٢ ، والنسائي في : السنن : كتاب الجمعة : باب الإنصات للخطبة يوم الجمعة ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء في الاستماع للخطبة ، والإنصات لها ١/ ٣٥٢ رقم ١١١٠ ، وأحمد في : المسند ٢/ ٤٧٤ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الجمعة : باب فضل من استمع وأنصت في الخطبة ٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨ رقم ٨٥٧/ ٢٧ علىٰ أنه قطعة من حديث لفظه : «مَنْ توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتىٰ الجمعة فاستمع وأنصت ، غفر له ما بينه وبين الجمعة ، وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مسَّ الحصا فقد لغا» ، وابن ماجه في : السنن : كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١/ ٣٢٧ رقم ١٠٢٥ ، وأحمد في : المسند ٢/ ٤٢٤ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً واللفظ لمسلم

ومَنْ لا حصانة لهم، فيتحمل إثمين: الأول: إثم لغوه، والآخر: إثم اقتداء هؤلاء وتأسيهم به من غير أن ينقص من آثامهم شيء.

على حدِّ قوله ﷺ:

«.. مَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[1].

ب. على العمل الإسلامي:

وأمَّا آثار اللغو على العمل الإسلامي فكثيرة من أهمِّها:

١. الفرقة والقطيعة:

ذلك أن اللغو يفسد القلوب ويبدد الطاقات والإمكانات على النحو الذي ذُكِر آنفاً، والنتيجة الحتمية لذلك كله: إنما هي الفرقة والقطيعة، إذ:

«الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[2].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح مختصراً (تعليقاً): كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب إثم مَنْ دعا إلى ضلالة، أو سنَّ سنة سيئة ٩/ ١٢٧، ومسلم في: الصحيح: كتاب العلم: باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة، ومَنْ دعا إلى هدىً أو ضلالة ٤/ ٢٠٦٠ رقم ٢٦٧٤ / ١٦، وأبو داود في: السنن: كتاب السنة: باب لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم ٤٦٠٩، والترمذي في: السنن: كتاب العلم: باب ما جاء فيمن دعا إلى هدىً ٥/ ٤٣ رقم ٢٦٧٤، وابن ماجه ١/ ١٣٠ـ١٣١، وأحمد في: المسند ٢/ ٣٩٧، ٥٠٥ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً

(٢) الحديث سبق تخريجه.

٢ ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :

وهذا أمر بدهي ، لأنه إذا سرىٰ الخراب والخلل إلىٰ النفوس بسبب اللغو ، ودبَّتْ الفرقة والقطيعة ، علت راية الباطل وانتفشت ، الأمر الذي يؤدي إلىٰ طول الطريق مع كثرة التكاليف ، والتبعات .

خامساً : علاج اللغو ، والوقاية منه :

ويمكن علاج اللغو ، وكذلك الوقاية منه باتباع هذه الخطوات :

١ ـ الفقه الصحيح للحدود الفاصلة بين اللغو وبين غيره :

إذ مضىٰ معنا من الأسباب : ظن بعض الناس أن اللغو مباح شرعاً بحديث : «ساعة وساعة» ، وهذا ناشئ من سوء الفهم للحديث ، ولو فهم الحديث علىٰ وجهه الصحيح لعرف الحد الفاصل بين اللغو ، وبين غيره ، إذن فبداية التخلص من اللغو بل الوقاية منه إنما تبدأ بالفقه الصحيح لتمييز اللغو عن غيره لئلا يقع المرء في المحظور ، وهو يظن أنه مشروع .

٢ ـ المعايشة الدائمة لكتاب الله وسنة وسيرة النبي ﷺ :

إذ هذه المعايشة تثمر أموراً منها : التعريف بالله ، وكمالاته ، بحيث تُبنىٰ ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في النفس فيستحيي المرء مقارفة اللغو لاطلاع ربِّه عليه ، ومنها : اليقين بالرجوع إلىٰ الله وإن طال الزمن للحساب والجزاء فيزجره ذلك عن الوقوع في اللغو ، وإن وقع كانت التوبة والإنابة ، ومنها معرفة المرء دوره ورسالته في الأرض ، والطريق القويم لأداء هذا الدور ، وهذه الرسالة اقتداءً وتأسياً بالنبي ﷺ ، ومنها معرفة جزاء مَنْ حفظ نفسه من اللغو ،

ومنها معرفة ما يمكن أن يخفف عن النفس من اللهو المباح أو المشروع، إلى غير ذلك من ثمرات هذه المعايشة.

٣. العيش في بيئة نظيفة نقية من اللغو:

إذ البيئة النظيفة أو النقية من اللغو سواء أكانت قريبة كالبيت، أم بعيدة كالأصدقاء والمجتمع تساعد المرء أن يتخلص من اللغو، بل تحميه أن يقع فيه ابتداءً، حيث قيل: الإنسان ابن بيئته، فإن كانت خيِّرة كان خيِّراً، وإن كانت شرِّيرة كان شرِّيراً.

٤. قيام المجتمع بواجبه نحو المعروفين باللغو:

إذ المؤمنون بينهم ولاء مبناه التكافل المادي والمعنوي، قال تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١).

ومن التكافل الإنكار على مقترفي اللغو، ولكن بالأسلوب المناسب، انطلاقاً من قوله ﷺ: «**مَنْ رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

٥. قيام ولي الأمر بواجبه في تنقية وتطهير الحياة من اللغو:

ثم متابعة وملاحقة هؤلاء المقارفين اللغو، ومداواتهم بالأسلوب المناسب، والطريق المجدي، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

٦ـ التذكير الدائم بحسن حال الإعراض عن اللغو، وعقاب الوقوع فيه:

وذلك ببيان أجر المعرضين عن اللغو وأهله، ومنزلتهم عند الله، وعند الناس، وثمرة ذلك في الدنيا والآخرة، وكذلك ببيان عواقب وعقاب المقارفين اللغو المصاحبين الخائضين فيه، المحبِّين لهم، فإن النفس تنسىٰ، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير لقوله تعالىٰ:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ (الذاريات).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ (الأعلىٰ).

٧ـ التدرج مع النفس في التخلص من اللغو:

ذلك أن الإقلاع عما جبلت عليه النفس جملة واحدة قد يكون شاقاً وصعباً علىٰ النفوس، وخير سبيل إنما هي التدرج، وحسبنا أن رب العزة سبحانه حرَّم الخمر وكذلك الربا علىٰ أربع مراحل، مراعاة لطبيعة النفس البشرية، وانطلاقاً من واقعها.

فمثلاً يصاحب اللاغي فترة للإقلاع عن اللغو الحرام، وثانية للإقلاع عن اللغو المكروه، وثالثة للإقلاع عن الإكثار من اللغو المباح، والولع به، والحبِّ له.. وهكذا.

٨ـ معاملة النفس بحزم وعزم:

ذلك أن النفس إذا رأتْ من صاحبها تهاوناً سولت له بإعانة شياطين الإنس والجن، وإغراءات الدنيا الوقوع في اللغو، أمَّا إذا رأت منه الحزم، والإرادة القوية، والعزيمة الصادقة فإنها ترتدع، وترعوي عن الوقوع في

اللغو، بل تقلع عنه بسرعة على حدّ قول القائل:

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شبَّ على

حبِّ الرضاع، وإن تفطمه ينفطم [1]

٩ ـ دوام النظر في قصص النبيين وسير الصالحين:

ذلك أن قصص هؤلاء النبيين، وسير أولئك الصالحين مليء بالكثير الذي يكشف عن حرصهم على طهارة حياتهم من اللغو والإثم، والوقوف على ذلك، مما يولِّد في النفس معنى الاقتداء والتأسي، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وصدق الله القائل:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب﴾ (يوسف: ١١١).

١٠ ـ الترويح عن النفس بالمباح المشروع:

وذلك أن النفس إذا أشبعت بالمباح المشروع امتلأت وقنعتْ، وغضَّتْ الطرف عن الوقوع في اللغو ونحوه من كلِّ ما ليس بمباح ولا مشروع، وليكن ذلك بقدر من غير غلوٍّ أو إفراط.

١١ ـ محاسبة النفس على الدوام:

وليكنْ ذلك بعد كل سلوك، قولي أو فعلي، وبعد كلِّ ساعة، وبعد كل صلاة، وفي نهاية كل يوم، وفي آخر كل أسبوع، وبانتهاء كل شهر، ومع

---

(١) البيت من قصيدة البوصيري ت ٦٩٥ هـ المعروفة بالبردة.

ربع السنة، ونصفها، وثلاثة أرباعها، وفي آخرها لمعرفة جوانب الخلل، ومحاولة سدِّها أولاً بأول، ليظل القلب مضيئاً، والنفس مشرقة، والصدر منشرحاً، والعمل مرضيّاً عنه من الله والرسول، ومُفْرِحاً للمؤمنين الصادقين.

على أن يكون سدُّ الخلل هذا بالمشروع، ومطابقاً للحال أو المقام.

١٢ - الاستعانة التامة بالله - عزَّ وجلَّ -:

وذلك باعتماد مَنْ يريد التوبة من اللغو، والاحتراز من العود إليه مرة أخرى، وكذلك مَنْ حوله ممن يريدون علاجه وحمايته من ذلك. اعتماد هؤلاء جميعاً - بعد تنفيذهم ما سبق التنبيه إليه من خطوات - على الله الذي بيده مقاليد السموات والأرض، والذي له الحول والطول، والذي يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه لا يبخل على عباده بعطائه وهم مقيمون على المعصية، فكيف لو أرادوا الطاعة، وشقوا طريقهم إليه؟

وصدق الله الذي يقول:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ (النساء).

والذي يقول:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)﴾ (الطلاق).

* * *

الآفة الحادية والثلاثون

الكبت

الآفة الحادية والثلاثون

الكبت

والآفة الحادية والثلاثون التي كانت وراء شيوع كثير من الفتن والمنكرات، وصارت حجر عثرة في طريق النبوغ والنهوض والتقدم، إنما هي: «الكبت»، وحتى يتخلص منها مَنْ شاعت وانتشرت بينهم، ويتوقاها مَنْ سلَّمهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من القيام بطائفة من الأعباء والمسؤوليات وفي مقدمتها: الوقوف على أبعاد ومعالم هذه الآفة، وفي هذه السطور بيانٌ لهذه الأبعاد، وتلك المعالم على هذا النحو:

أولاً: تعريف الكبت لغةً واصطلاحاً:

لغةً: يأتي الكبت في اللغة على عدَّة معانٍ، منها:

١ ـ الصرع والهزم، تقول: كبت فلان فلاناً: صَرَعَه وهزَمَه.

٢ ـ الكسر، والذل، تقول: صرع المسلمون عدوَّهم: كسروه وأذلُّوه.

٣ ـ الصرف، والردُّ بغيظ وخزي، تقول: كبت فلان فلاناً: صرفه، وردَّه بغيظ، وخزي، وكبت الله العدوَّ كبتاً: غاظه، وأذله، وأخزاه، ومنه قوله تعالى:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) ﴾

(آل عمران).

٤ ـ الحبس، تقول: كَبَتَ فلانٌ غيظه أو شهوته: حبسه.

٥ ـ الامتلاء غيظاً أو غمّاً، تقول: اكتبتَ فلانٌ: امتلأ غيظاً أو غمّاً، يقول الفيروزآبادي: «كَبَتَهُ، يكبِتُهُ: صرَعَهُ، وأخزاه، وصرَفه، وكَسَرَهُ، وردَّ العدوَّ بغيظه، وأذلَّه، والمكتبتُ: الممتلئ غمّاً» (١)، وقيل: التاء بدل من الدال، كأنَّ الأصل، كبده، أي فعل به ما يؤذي كبده(٢).

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، لأن بعضها يعبِّر عن جوهر الكبت إجمالاً، وهو: فعل كل ما يؤذي، وبعضها يعبر عن جوهر الكبت تفصيلاً، وهو الصرع، والهزم، أو الكسر، والذل، أو الصرف والرد بغيظ وخزي، أو الحبس للشيء، أو الامتلاء غيظاً أو غماً.

اصطلاحاً: أما في الاصطلاح فقد عرّفه الفلاسفة بأنه عملية نفسية لاشعورية تحول دون خروج الأفكار والرغبات المؤلمة أو المحرَّمة إلى نطاق الشعور رغم بقائها حيَّة فعالة في اللاشعور (٣).

وتصوري: أن منع خروج الأفكار السيئة، والرغبات المحرَّمة ليست كَبْتاً، وإنما هو نوع من قوة الإرادة، وصدق العزيمة، وعلوُّ الهمة يمنع هذه من الخروج لما فيها من أذىً للنفس، وللغير، مع إبدالها بالأفكار السليمة، والرغبات النافعة للنفس وللغير.

---

(١) انظر: القاموس المحيط ١ / ٣٣٦.

(٢) انظر: القاموس المحيط ١ / ٣٣٦، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ٣ / ٤٢٧ ـ ٤٢٨، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٣، والمعجم الوسيط ٢ / ٧٧٢، والصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٩٧٥.

(٣) انظر: الصحاح في اللغة والعلوم ص ٩٧٦.

وانطلاقاً من ذلك فإن التعريف المناسب للكبت : أنه اسم لمنع أو حبس الأفكار السليمة، والرغبات النافعة، والسلوكيات المستقيمة من الخروج إلى الواقع بصورة تملأ النفس حزناً وكمداً، أو غيظاً وغماً.

ثانياً : أهم المظاهر الدالة على الكبت مع بيان موقف الإسلام منه :

وهناك مظاهر كثيرة دالة على الكبت، نذكر منها :

١ ـ إلصاق التهم بأصحاب الأفكار النيرة، والسُّلوكيات المستقيمة، والعمل على تشويه صورتهم، وتدنيس سمعتهم.

٢ ـ ملاحقة، ومحاصرة أصحاب الأفكار السليمة، والسلوكيات الحميدة، بل إيقاع العقوبات : البدنية، والمالية، والأدبية، ونحوها بهم.

٣ ـ وصف أفكار هذا الصنف من الناس بأنها رجعية، وسلوكياتهم بأنها متأخرة ومنحطة، وغير ملائمة لأفكار العصر وسلوكياته.

٤ ـ فرض الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحرفة على الناس، وهلم جرا.

والإسلام يحظر كبت الآخرين بالمعنى الذي مضى آنفاً لما فيه من حرمان الأمة من إسهامات أصحاب الأفكار النافعة، والسلوكيات السديدة، ويتجلى هذا الخطر في هذه الصور :

١ ـ الوعيد بالعذاب الشديد يوم القيامة لكل من يحارب الدعاة إلى الله ويعمل على كبتهم أو تكميم أفواههم، والحيلولة بينهم وبين إبلاغ كلمة الله إلى عباد الله، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) ﴾.

(آل عمران).

يقول الألوسي ـ رحمه الله ـ:

« أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الشنيعة الذين بطلت أعمالهم، وسقطت عن حيِّز الاعتبار، وخَلَتْ عن الثمرة في الدنيا، حيث لم تحقن دماؤهم وأموالهم، ولم يستحقوا مدحاً، وثناءً، وفي الآخرة حيث لم تدفع عنهم العذاب ولم ينالوا بسببها الثواب. . . والمراد من انتفاء الناصرين: انتفاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفت مِنْ جمع، فانتفاؤها من واحد أولى، ثم إن هذا الحكم وإن كان عامّاً لسائر الكفار كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ إلا أنه له هنا موقعاً، حيث إن هؤلاء الكفرة وصفوا بأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط، وهم ناصرو الحق، ولا يوجد فيهم ناصر يحول بينهم وبين قتل أولئك الكرام، فقوبلوا لذلك بعذاب لا ناصر لهم منه، ولا معين لهم فيه، ومن الناس مَنْ زعم: أن في الآية مقابلة ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء: الكفر بالعذاب، وقتل الأنبياء بحبط الأعمال، وقتل الآمرين بانتفاء الناصر، وهو كما ترى»(١).

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال: قلتُ: يا رسول الله! أيُّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال:

---

(١) انظر: روح المعاني ٣ / ١٠٩ ـ ١١٠.

«رجل قتل نبياً، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ الآية، ثم قال ﷺ: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة أو أربعين نبياً أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عُبَّاد بني إسرائيل، فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف، ونهونهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله تعالى» [1] .

٢ ـ الدعوة إلى رفض هذا الكبت بطريق أو بأخرى، وإلا كان العقاب الشديد من الله لمن رضوا بذاك ممثلاً هذا العقاب في اللعن والطرد من رحمة الله مع التباغض والفرقة .

عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال :

«إن مَنْ كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة فنهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغد جالسه، وواكله، وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، على لسان داوُد وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على أيدي المسيء، ولتأطرنَّه على الحق أطراً [2] **، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم »** [3] .

---

(١) الحديث أورده ابن جرير الطبري في : جامع البيان في تفسير القران ٣ / ١٤٤ ـ ١٤٥، وعنه وعن ابن أبي حاتم نقل السيوطي في : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩ من حديث أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٢) لتأطرنَّه على الحقِّ : يعني لتعطفنَّه، ولتحملنَّه على الحق حملاً، تقول : أطر الشيء يأطره : عطفه، وثناه، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٣٤ .

(٣) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الفتن : باب وجوب إنكار المنكر =

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال:

«إذا رأيتَ أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت ظالم فقد تودع[1] منهم»[2].

٣ ـ سقوط منزلة الأمة عندما ترضى بالكبت إلىٰ حدٍّ تسليط غيرها من الأمم عليها، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال:

لما رجعتُ إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر، قال: «ألا تحدثوني

=٧/ ٢٩٦ من حديث أبي موسىٰ الأشعري مرفوعاً بهذا اللفظ، وعزاه إلىٰ الطبراني قائلاً: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(١) تُوُدِّعَ منهم ـ بضم التاء والواو ـ: مبني للمجهول من التوديع، والمعنىٰ استُريح منهم، وخُذِلوا، وخلِّي بينهم، وبين ما كانوا يرتكبون من المعاصي، وقيل المعنىٰ: أُسلِموا إلىٰ ما استحقوه من النكير عليهم، وتُركوا وما استحبوه من المعاصي حتىٰ يكثروا منها فيستوجبوا العقوبة، وهو من المجاز لأن المُعْتَني بإصلاح شأن الرجل إذا يئس من صلاحه تركه، واستراح من معاناة النَّصَب معه، ويجوز أن يكون من قولهم: تودَّعتُ الشيء إذا صُنته في مِيْدَع، يعني: قد صاروا بحيث يتحفظ منهم، ويتوقـون، كما يُتوقَّىٰ شرار الناس. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٠١.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في: المسند (١٩/ ١٧٥، ١٧٦ الفتح الربَّاني) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص مرفوعاً بهذا اللفظ، وأورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب الفتن: باب وجوب إنكار المنكر ٧/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠، وقال: «رواه أحمد والبزَّار، والطبراني، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح، وكذا إسناد أحمد، إلا أنَّه وقع فيه في الأصل غلط»، بيد أن الساعاتي عقَّب على الهيثمي في: بلوغ الأماني ١٩/ ١٧٦ بقوله: الغلط الذي أشار إليه الحسن بن عمرو ـ كما جاء في النسخة التي وقعت ـ: حدثنا الحسن عن عمرو، والصواب: حدثنا الحسن بن عمرو، كما جاء في نسختنا، وأورده المنذري في: الترغيب والترهيب، وقال: «رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقرَّه الذهبي»، وأورده السيوطي في: الجامع الصغير، وعزاه للإمام أحمد، والطبراني في الكبير، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان».

بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتيةٌ منهم: بلى يا رسول الله بينما نحن جلوس مرّت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرّتْ بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها، ثم دفعها فخرّت على ركبتيها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعتْ التفتتْ إليه، فقالت: سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسيَّ، وجمع الأولين، والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً، فقال رسول الله ﷺ: «صدقتْ، صدقتْ، كيف يقدّسُ الله أمّةً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم» [1] .

ورغم هذا فالإسلام لا يمنع الناس أن يدينوا بدين آخر بشرط عدم الدعوة إليه بوسيلة أو بأخرىٰ، قال تعالىٰ:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

وقال تعالىٰ:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (الكافرون) .

وقال تعالىٰ:

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في: السنن: كتاب الفتن: باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ - ١٣٣٣ رقم ٤٠١٩ من حديث أبي أيوب عن أبي مالك، عن أبيه، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر مرفوعاً، وأورده الشهاب البوصيري في: مصباح الزجاجة ٤/ ١٨٥ - ١٨٦، وعقّب عليه قائلاً: «هذا حديث صالح للعمل به، وقد اختلف في ابن أبي مالك، وأبيه، وأخرجه كذلك بنحوه: الحاكم في: المستدرك: كتاب الفتن: باب ذكر خمس بلاء أعاذ النبيُّ ﷺ منها المسلمين ٤/ ٥٤٠ - ٥٤١ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأقرّه الذهبي في: تلخيص المستدرك.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ (يونس) .

فإن أصروا على الدعوة إلى كفرهم وباطلهم فلابد من مدافعتهم يعني كبتهم لئلا تتحول الأرض إلى بؤرة من الشرِّ والفساد ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ .

(البقرة: ٢٥١) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ (الحج) .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من كبت الشعوب لتختفي الفضيلة ، وتنتشر الرذيلة ، فإن الموقف لا يختلف كثيراً عن كبت الأفراد ، إذ الشعوب هي مجموع الأفراد وما يشعر به الفرد يظهر صداه في الشعب .

وفي ضوء ما تقدم يمكن فهم قوله تعالى :

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) ﴾

(آل عمران) .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

(وأما قوله «أو يكبتهم» فقد فسروه بأقوال ، منها : أن معناه يخزيهم ،

ومنها: أن معناه يصرعهم لوجوههم، وفي الأساس: كبت الله عدوَّه، أكبَّه، وأهلكه، ولكن صاحب الأساس فسَّر الكلمة في الكشاف بقوله: «ليخزيهم، ويغيظهم بالهزيمة»، وقال الراغب: الكبت الرد بعنف، وتذليل، وقال البيضاوي: أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وكل هذه المعاني وردت في كتب اللغة، وصرح البيضاوي بأن «أو» هنا للتنويع لا للترديد، والمعنى: أنه يقطع طرفاً، وطائفة، ويكبت: طائفة أخرى، أي: ويتوب على طائفة، ويعذب طائفة كما في الآية الآتية»[1].

كما يمكن فهم قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ (المجادلة).

يقول ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «هذه الآية نزلت في المنافقين، وقوم من اليهود وكانوا في المدينة يتمرسون برسول الله ﷺ «يحتكون به»، ويتربصون بهم الدوائر، ويديرون عليهم، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك فنزلتْ.. «والذين من قبلهم»: هم منافقوا الأمة الماضية الذين حادُّوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماًفليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين»[2].

ثالثاً: أسباب الكبت وبواعثه:

وللكبت أسباب توقع فيه، وبواعث تدعو إليه، نذكر منها:

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ٤ / ١١٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٤ / ٣٤١-٣٤٢.

١ ـ حرمان المرء حقه من التعبير عن رأيه بصراحة ووضوح منذ الصغر:

ذلك أن المرء إذا شبَّ محروماً من التعبير عن رأيه بصراحة ووضوح صعب عليه إعلان ذلك عندما يشب عن الطوق إذ مَنْ نشأ على شيء شاب عليه إلا أن تتداركه رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ..

ولذا كان من أسس التربية : إعطاء الصغير حرية التعبير عمَّا عنده بصراحة ووضوح مع تقويم وتهذيب ما يمكن أن ينطوي عليه ذلك من خلل أو عوج .

٢ ـ الخوف من الوقوع في الخطأ لمرض ونحوه مع عدم استيعاب المحيطين بالمرء لذلك فيسخرون منه ويستهزءون:

ذلك أن المرء قد يكون مصاباً ببعض عيوب النطق أو لم يدرَّب على الحديث مع الآخرين منذ الصغر، وحينئذ لا يحب أن يبدي رأيه في شيء خوفاً من الوقوع في الخطأ، والمحيطون به لا يستوعبون ذلك فينالون منه بسخرية أو استهزاء أو نحو ذلك .

ومن هنا لزم الانتباه للصغير بحيث إذا ظهرتْ به بعض الأمراض لاسيما أمراض النطق أن يعالج بسرعة، وكذلك ينبغي تعويده وتدريبه على لقاء الآخرين، والحديث معهم بحيث يزول حاجز الخوف والرهبة، وتكون الجرأة والشجاعة في التعبير عن الرأي، وإتيان السلوك الحميد .

٣ ـ عدم تقدير رأي الآخرين والانتفاع به :

ذلك أن عدم تقدير رأي الآخرين ، والانتفاع به كما يفعله ذوو المسؤولية، وصنَّاع القرار في بلادنا العربية والإسلامية مع أصحاب الآراء

الحرَّة النزيهة النافعة من الإهمال والإهدار، بل السخرية والاستهزاء، مما يكون سبباً في الوقوع في الكبت، والاصطلاء بناره.

ومثل ذلك يمكن أن ينطبق على الأبوين مع صغارهما، والأصحاب مع بعضهم البعض.. وهكذا.

٤ ـ ضغط العادات والتقاليد الباطلة مع الحرص على الاستمساك بالعادات والسلوكيات التي جاء بها الشرع الحنيف:

ذلك أن ضغط العادات والتقاليد الباطلة مع الحرص على الاستمساك بالعادات والسلوكيات التي جاء بها الشرع الحنيف، مما يصيب المرء بالكبت، لاسيما إذا كان عوده لا يزال غضاً طرياً لم يكتسب حصانة ولا مقاومة ضد باطل هذه العادات والتقاليد.

وهذا واضح في عصرنا الذي كثر فيه الخبث، وانتشرت فيه الفتن، وصار أهل الفضيلة فيه أندر من الكبريت الأحمر، أو حبات اللؤلؤ المتناثرة في صحراء مترامية الأطراف.

٥ ـ تقديم فاقد الأهلية أو الضعيف على ذي الكفاية مع عدم القدرة على التعبير:

ذلك أن تقديم فاقد الأهلية أو الضعيف على ذي الكفاية مع عدم القدرة على التعبير مما يصيب المرء بالإحباط والكبت ليس حقداً أو حسداً، وإنما لحرمان الأمة من طاقات وإمكانات ذوي الكفاية من أبنائها، وإيقاعها فيما لا تحمد عقباه بواسطة فاقدي الأهلية أو الضعفاء.

٦ ـ العبث بالقيم العليا والمبادئ السامية مع عدم القدرة على التعبير:

ذلك أن العبث بالقيم العليا، والمبادئ السامية كالنيل من الذات الإلهية، وإهانة الأنبياء والمرسلين، والملائكة، والعدوان على القرآن، والسخرية من اليوم الآخر، وتحقير الفضيلة، ونحو ذلك مع عدم القدرة على التغيير.. ذلك كله قد يورث الكبت والقهر والعياذ بالله، والواقع الذي تعيشه الأمة المسلمة اليوم سواء في بلاد العرب أم في غيرها من البلدان، والقائم على تسليط وسائل الإعلام، ودور التربية والتعليم للنيل من الإسلام وأهله هو الذي صنع ظاهرة الكبت والقهر التي شاعتْ وانتشرتْ في ربوع الأمة لاسيَّما بين الشباب، وأثمرتْ هذه الثمار المرة التي سيأتي الحديث عنها في آثار وعواقب الكبت.

٧ ـ اختلال معايير تقييم الناس:

ذلك أن معيار تقييم الناس الثابت الذي لا يتغيَّر أبداً من قديم: إنما هو التقوى التي مبناها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، ثم العمل الصالح، وقد ينسى الناس لسببٍ أو لآخر ذلك، وتنشأ معايير أخرى لتقييم الناس من: المال، والجاه، والنسب، والعشيرة.. ونحوها، وكلها معايير يدخل فيها الهوى، ويغطيها الخداع بحيث يحترم الضعيف الذي لا يحسن شيئاً، سوى أنه من الأثرياء، أو من عائلة، أو صاحب مركز ومنصب، ويُهان ذو الكفاية والنباهة، وحينئذٍ لا يجد هؤلاء الأقوياء أصحاب الكفاية والنباهة من ملجأ سوى كبت ما لديهم من خير مع شدة الحسرة والحزن.

٨ـ خلو الحياة من الصديق الصادق الوفيِّ :

ذلك أن شخصية المرء إنما تنضج وتكتمل من خلال الصديق الصادق الوفي الملتزم بمبادئ الشرع الحنيف، وقد يحدث ـ لكثرة الخبث ـ أن تخلو الحياة من هذا الصديق الصادق الوفيِّ الذي يفضي إليه المرء بهمومه، ومكنونات نفسه كي يشاركه في حمل ذلك، وحينئذٍ لا يكون أمامه سوىٰ الكبت والقهر، ولذا رأينا موسىٰ يطلب من ربه حين كلَّفه الذهاب إلىٰ فرعون ليردَّه عن طغيانه يطلب من ربه الإعانة بأخيه هارون قائلاً :

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ (طه) .

٩ ـ سوء المعاملة المتمثل في السخرية والسب والتعذيب ونحو ذلك :

وقد يكون سوء المعاملة المتمثل في السخرية، والسَّبِّ، والسجن، والتعذيب، والتنكيل بالأهل والأقارب، ونحو ذلك علىٰ نحو ما تصنعه كثير من الحكومات العربية والإسلامية بأبنائها ممَّن يستمسكون بالفضيلة، ويرفضون الرذيلة، ويرضون بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، بدعوىٰ الإرهاب والتطرف، حتىٰ حاول نفر من هؤلاء الذين لم يتحملوا سوء المعاملة هذه الظهور بمظهر المتحللين من كل قيمة فاضلة أو خُلق سامٍ فتراه يرتاد أماكن اللهو والفجور، وإن لم يمارس فيها شيئاً أو يعلق في بيته صوراً خليعة ماجنة، كل هذا ليبعد عنه تهمة أنه مسلم متطرف أو أصولي، وما هذا كله سوىٰ الكبت والقهر، وقديماً اضطر عمار بن ياسر أن يخفي

إسلامه تحت وطأة التعذيب لعدم تحمله، ويجيب المشركين إلىٰ ما طلبوا، وجاء بعدها يشكو إلىٰ النبي ﷺ الهلاك، وسأله النبي ﷺ :

«كيف تجد قلبك؟».

قال: أجده مطمئناً بالإيمان.

قال: «إن عادوا فَعُدْ»، ونزل قول الله عز وجل:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ (النحل).

١٠ - ضعف الإيمان:

وقد يكون ضعف الإيمان هو السبب في الكبت والقهر، ذلك أن ضعيف الإيمان إذا نزلت به شدة أو محنة ولم يُحسن التصرف فيها أصابه الهلع والجزع، وكان الكبت والقهر، بينما أقوياء الإيمان يقدرون أنَّ الأمر محض ابتلاء من الله ـ عز وجل ـ وعليهم الرضا والتسليم، واستئناف المسيرة ليبدل الله حالهم من ذل إلىٰ عز، ومن هوان إلىٰ رفعة، ومن محنة إلىٰ منحة.. وهكذا.

١١ - عدم تقدير عواقب الكبت:

وقد يكون عدم تقدير عواقب الكبت من بين الأسباب التي توقع فيه، ذلك أن من جهل العواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر مَّا وقع فيه دون أن يشعر، لذا وجب التفكير في عواقب أيِّ أمر وآثاره قبل الإقدام عليه.

رابعاً : العواقب والآثار المترتبة على الكبت :

وللكبت عواقب ضارة، وآثار مهلكة سواء على العاملين أم على العمل الإسلامي، ودونك هذه الآثار وتلك العواقب:

أ- على العاملين :

وهي كثيرة نذكر منها :

١- اضطراب الأعصاب :

ذلك أن الكبت نوع من الضغط على الأعصاب، الأمر الذي ينتهي إلى انحراف السلوك، وعدم السَّداد في الرأي، بل عدم القدرة على التكيُّف الاجتماعي، ومَنْ يتابع التدرج التاريخي لمقترفي الجرائم يجد أن نسبة عالية منها مردها إلى الكبت والقهر.

٢- عدم الرحمة أو الشفقة على الغير حين يصير أمره بيده :

ذلك أن الذي عانى الكبت يشعر أنَّه لم يحظ بشيء من الرحمة أو الشفقة، وبالتالي يحاول أن يشفي غليله، وأن يُنَفِّس عن غيظه وحقده بعدم الرحمة والشفقة على الآخرين حين يصير مسؤولاً عنهم، وكأنه يرى أن ذلك نوع من الثأر أو القصاص، ومَنْ ينقب في حياة المستبدين أو المتسلطين أو الطغاة يجدها في الأعم الأغلب مبناها الكبت والقهر في مرحلة من مراحلها.

٣- الانتقام الشديد مِمَّن كان سبباً في الكبت حين تُتاح الفرصة :

وموقف بلال من أميَّة بن خلف يوم بدر ذلك الذي كان يتفنَّن في تعذيبه وكبته وقهره في مكة خير شاهد على ذلك، إذ يقول عبدالرحمن بن عوف:

(كاتبتُ أميَّة بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمن قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتَبتُه: عبد عمرو، فلما كان في يوم بدر خرجتُ إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال أميَّة بن خلف: لا نجوتُ إن نجا أميَّة، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيتُ أن يلحقونا خلفتُ لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبَوا حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً فلما أدركونا قلتُ له: ابرك، فبرك، فألقيتُ عليه نفسي لأمنعه فتخلَّلوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه[1] .

٤ ـ العزلة والانقطاع عن الناس أو ما يسمى بالاكتئاب :

وقد لا تتاح الفرصة للمكبوت أو المقهور أن يبدي ما بداخله، فيترجم ذلك إلى عزلة وانقطاع، أو ما يُعرف بالاكتئاب، وبذلك تخسر الأمة طاقات وإمكانات كان بمقدورها الإسهام في دفع مسيرة الأمة إلى الأمام، ورفع رايتها خفاقة في العالمين.

٥ ـ النفاق، أو إظهار خلاف ما يبطن :

وقد ينتهي الكبت والقهر بصاحبه إلى النِّفاق أو إظهار خلاف ما يُبطن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الوكالة: باب إذا وكَّل المسلم حربياً في دار الحرب، أو في دار الإسلام جاز ٣/ ١٢٩ ، وكتاب المغازي: باب قتل أبي جهل ٥/ ٩٦ من حديث عبدالرحمن بن عوف بهذا اللفظ، ومختصراً.

اتقاء أذىٰ الجبارين والمتسلطين، أو المستبدين، فإن صاحب المسؤولية إذا ابتغىٰ الريبة فيمن تحت سلطانه أفسدهم.

٦ - الحقد على الآخرين:

وقد تكون عاقبته كذلك: الحقد علىٰ الآخرين خصوصاً إذا استمر هذا الكبت أو القهر دون تنفيس أو تفريج، ويوم تنتشر الأحقاد بين الناس فقد تودع منهم، وصارت الأبواب مفتوحة أمام الأعداء للنيل من حريتهم وكرامتهم.

ب - على العمل الإسلامي:

ومن آثار الكبت علىٰ العمل الإسلامي:

١ - حرمان المجتمع من خيرة طاقاته وإمكاناته:

إذ ما يصيب الأفراد ينعكس علىٰ المجتمع، وتكون النتيجة حرمان هذا المجتمع من خيرة طاقاته وإمكاناته، الأمر الذي يؤدي إلىٰ طول الطريق مع كثرة التكاليف.

٢ - انتشار الجريمة:

وقد يؤدي الكبت إلىٰ انتشار الجريمة بين ربوع المجتمع فيغيب الأمن والأمان، ويتأخر هذا المجتمع، فتعظم التكاليف كذلك وتطول الطريق.

٣ - الفرقة والشتات:

وأخيراً تكون الكراهية بين أبناء المجتمع، وتكون الفُرقة والشتات، الأمر الذي يُطمع الأعداء، ويدفعهم إلىٰ النيل من كرامة وعزة الأمة.

خامساً: علاج الكبت والوقاية منه:

يمكن علاج الكبت والوقاية منه على ضوء ما تقدم باتباع هذه الخطوات:

١ ـ تعريف المرء رسالته في الأرض ومعوِّقات الطريق وسبيل النجاة:

ذلك أن الإنسان إذا عرف رسالته في الأرض، ووقف على معوِّقات الطريق، وسبيل النجاة، وتجاوز هذه العقبات انطلق يؤدي هذه الرسالة غير مبال بما يلحقه من أذىً أو شدة، بل إنه ليحتسب ذلك كله عند الله، فأين الكبت إذاً والقهر، وصفحات تاريخنا كلها إشراقة وبهاء في هذا المعنى.

تروي عائشة ـ رضي الله عنها ـ فتقول:

(لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحَّ أبو بكر على النبي ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر: إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضُرِبوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووَطِئ أبو بكر، وضُرِب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عُتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلتْ المشركين عن أبي بكر، وحملتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعتْ بنو تيم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب

فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟، فمسُّوا منه بألسنتهم، وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمِّه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلَتْ به ألحَّت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالتْ: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلىٰ أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.

فخرجتْ حتىٰ جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد ابن عبدالله؟ فقالتْ: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبدالله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلىٰ ابنك؟ قالت: نعم، فمضيتْ معها حتىٰ وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنتْ بالصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسوق وكفر، وإنِّي لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: فأين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله عليَّ ألا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتا حتىٰ إذا هدأتْ الرِجْل، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتىٰ أدخلتاه علىٰ رسول الله ﷺ، قال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي برَّةٌ بولدها، وأنت مبارك فادعها إلىٰ الله، وادع الله لها عسىٰ الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلىٰ الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً ـ وهم تسعة وثلاثون رجلاً ـ وقد كان حمزة بن عبدالمطلب أسلم يوم ضُرِبَ أبو بكر»[1].

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٣٠-٣١.

ولما أسلم أبو ذر الغفاري قال له النبي ﷺ :

«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري».

فقال : والذي بعثك بالحق لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم قام فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكبَّ عليه قال : ويلكم ألستم تعلمون أنه مِنْ غفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام ، فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه ، وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه . . . الحديث[1] .

والنماذج من حياة الصحابة أكثر من أن تحصى ، ومثل ذلك وقع في عصر المُلك الجبري الذي تعيشه الأمة المسلمة اليوم ، فقد وقف أبناء الحركة الإسلامية في وجه الطغيان ومحاولة فرض المناهج الشيوعية ، والصليبية ، والصهيونية ، والعلمانية ، والبعثية ، والطائفية ، ونحوها ، وتحملوا ومازالوا يتحملون في ذلك الشيء الكثير رافضين أن يكونوا أسرى الكبت والقهر ، ومحتسبين كل ما يصيبهم في ذات الله ، موقنين أن هذه طريق أصحاب الدعوات : شدائد ، وامتحانات ، وتعذيب ، وتنكيل ، ثم يكون النصر والتمكين ، والأمن والأمان .

٢ ـ التنشئة على إبداء الرأي وتقويمه بحكمة إن كان خاطئاً :

عن سهل قال : مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال :

---

(١) الحديث قطعة من حديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب مناقب الأنصار : باب إسلام أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ ٥ / ٥٩ ـ ٦٠ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ ٤/ ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ رقم ٢٤٧٤ / ١٣٣ كلاهما من حديث ابن عباس مرفوعاً به .

«ما تقولون في هذا؟» قالوا: حريٌ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُستمع، قال: ثم سكت، فمرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حريٌ إن خطب ألا يُنْكَح، وإن شفع ألا يُشفَّع، وإن قال ألا يُستمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا»(1).

وعن خنساء بنت خذام الأنصارية: أن أباها زوَّجها، وهي ثيِّب، فكرهتْ ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحه(2).

وكان ﷺ يشاور أصحابه فيما لا نصَّ فيه نزولاً على قوله سبحانه: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾، وتشجيعاً لهم على إبداء الرأي، واحترامه، وتقويمه بحكمة إن كان به شيء من الخلل، وكذلك فعل الأئمة من بعده ﷺ إلى وقت قريب جداً.

عن الحسن قال: «ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم»، وفي لفظ «إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع»(3).

---

(1) الحديث أخرجه البخاريُّ في: الصحيح: كتاب النكاح: باب الأكفاء في الدين ٧/ ٩ ـ ١٠، وكتاب الرِّقاق: باب فضل الفقر ٨/ ١١٨ ـ ١١٩، وابن ماجه في: السنن: كتاب الزهد: باب فضل الفقراء ٢/ ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠ رقم ٤١٢٠ كلاهما من حديث سهل بن سعد السَّاعدي مرفوعاً واللفظ للبخاري.

(2) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب النكاح: باب إذا زوَّج ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود ٧/ ٢٣ من حديث عبدالرحمن، ومجمِّع ابني يزيد بن جارية عن خنساء بنت خذام الأنصارية مرفوعاً بهذا اللفظ.

(3) الحديث أورده ابن حجر في: فتح الباري ١٣/ ٣٤٠ وعزاه إلى البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي حاتم قائلاً: «أخرج البخاري في الأدب المفرد: وابن أبي حاتم بسندي قويٍّ عن الحسن قال: **«ما تشاور قوم قطُّ بينهم إلا هداهم الله...»** الحديث.

وعنه أيضاً قال : «قد علم أنه ما به إليهم حاجةً، ولكن أراد أن يستنَّ به مَنْ بعده»[1] .

وقال الشافعي :

«إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبهه على ما يغفل عنه، ويدلُّه على ما لا يستحضره من الدليل لا ليقلدَ المشير فيما يقوله، فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ، وقد ورد من استشارة الأئمة بعد النبي ﷺ أخبار كثيرة منها : مشاورة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في قتال أهل الردة، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، واستشارة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد . . وهلم جرا»[2] .

٣ ـ احترام آراء الآخرين ومحاولة توظيف هذه الآراء إن كانت نافعة :

هذا عبدالله بن الزبير بن العوام يأتي النبي ﷺ ـ كما تقول أمُّه أسماء ـ بعد سبع سنين ليبايع النبي ﷺ وقد أمره بذلك أبوه الزبير، فتبسَّم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً، ثم بايعه[3] .

وهذا عمر بن الخطاب يدعوه رسول الله ﷺ ليبعثه برسالته إلى أهل مكة

---

(١) الحديث أورده ابن حجر في : فتح الباري ١٣/ ٣٤٠ وعزاه إلى ابن أبي حاتم قائلاً : «وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن الحسن قال : **«قد علم أنه ما به إليهم حاجة...»** الحديث.

(٢) انظر : فتح الباري ١٣ / ٣٤٢ ـ ٣٤٣ بتصرف كثير.

(٣) الحديث قطعة من حديث طويل أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الآداب : باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله ٣/ ١٦٩٠ ـ ١٦٩١ رقم ٢١٤٦/ ٢٥، وانظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٣٦٥ .

يوم الحديبية يخبرهم بمقصده، وأنه لا يريد الحرب، وإنما يريد بيت الله الحرام للعمرة، فيبدي عمر رأيه في هذه المهمَّة قائلاً: «يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بها من بني عديٍّ أحد يمنعني، وقد عرفتْ قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزُّ مني: «عثمان ابن عفَّان»، واحترم النبي ﷺ رأيه، فدعا عثمان فبعثه برسالته إلى قريش[1].

ولما انتهى عقد الصلح بين النبي ﷺ وبين سهيل بن عمرو ـ ممثل قريش في الحديبية ـ قام رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس انحروا، واحلقوا، قال: فما قام أحد، قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل، حتى عاد بمثلها فما قام رجل، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أمِّ سلمة، فقال: يا أمَّ سلمة، ما شأن الناس؟ قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت، فلا تكلمَنَّ منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، فقام الناس ينحرون، ويحلقون. . . » الحديث[2].

إلى غير ذلك من الصور الدالة على احترامه ﷺ آراء الآخرين، ومحاولة توظيف هذه الآراء إن كانت نافعة، وهكذا ينبغي اتباع هذا المنهج في علاج الكبت بل توقيه.

(١ و٢) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في: المسند ٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦ من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قالا: «**خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة...**» الحديث، وابن هشام في: السيرة النبوية ٣/ ٣٠٨، وعنهما نقل الدكتور أكرم ضياء العمري في: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٦ بتصرف كثير.

٤ - السماح للقيم العليا، والمبادئ السامية أن تسود :

ذلك أن السَّماح للقيم العليا، والمبادئ السامية أن تسود من شأنه أن يقضي على القيم الهابطة، والمبادئ الساقطة، أو على الأقل يحاصرهما ويحصرهما في دائرة ضيِّقة، فيزول بهذا سبب أساسي من أسباب الكبت، والقهر من منطلق أن القيم العليا، والمبادئ السامية استجابة لنداء الفطرة، وإذا استجيب لنداء الفطرة كان الأمن والأمان، والسكينة، والطمأنينة، والعكس بالعكس.

وما غاية الجهاد في ديننا الحنيف، بل في رسالات الأنبياء والمرسلين جميعاً سوى إفساح المجال أمام القيم العليا، والمبادئ السامية أن تأخذ طريقها إلى عقول الناس وقلوبهم، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾.

(البقرة: ٢٥١).

وإذ يقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

وصدق النبي ﷺ إذ يقول :

« مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كَمَثَلِ قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في

نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ مَنْ فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَـوا ونَجَـوا جميعاً»[1] .

٥ ـ حُسن المعاملة للغير ولو كان مخطئاً :

ذلك أن حسن معاملة الغير ـ ولو كان مخطئاً ـ تجعل العدو صديقاً، والبعيد قريباً، وتقضي على الكبت والقهر، أو تخفف من حدتهما، وصدق الحق ـ تبارك وتعالى ـ في قوله :

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ (فصلت) .

ومن حُسن المعاملة : الحوار الهادف الهادئ، والإصغاء للرأي الآخر، ومحاكمة الحجة بالحجة، والنزول على الحقّ بغض النظر عمَّنْ هُدِيَ إليه، وأبرزه في الناس، وفي كتاب الله وسنة النبي ﷺ وسيرته من الجدل والمجاورة ومقارعة الحجة بالحجة الشيء الكثير، وحسبنا هنا ما دار بين موسىٰ وهارون وبين الطاغية الجبار الذي قال للناس :

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ (النازعات) .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الشركة : باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ٣/ ١٨٢، وكتاب الشهادات : باب القرعة في المشكلات ٣/ ٢٧٣، والترمذي في : السنن : كتاب الفتن : باب منه ٤/ ٤٧٠ رقم ٢١٧٣، وأحمد في : المسند ٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤ كلهم من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، واللفظ للبخاري، وقال الترمذي عقيبه : «هذا حديث حسن صحيح» .

وقال لهم أيضاً :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص : ٣٨) .

وقال :

﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ (غافر) .

٦ ـ مراعاة المعايير الإلهية في تقييم الناس، وإسناد المهام إليهم :

إذ بيَّن ربُّ العزَّة في كتابه الكريم معايير وموازين تقييم الناس بقوله :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات) .

وبقوله :

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ (سبأ) .

كما بيَّن ذلك على لسان نبيه ﷺ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن ربكم واحد، وأباكم واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى»**[1] .

(١) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ٨/ ٨٤، وعقَّب عليه بقوله : «رواه الطبراني في الأوسط، والبزَّار بنحوه إلا أنه قال : إن أباكم واحد، وإن دينكم واحد، أبوكم آدم، وآدم خُلِقَ من تراب، ورجال البزَّار رجال الصحيح» .

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال له:

«انظر فإنَّك لست بخير من أحمر، ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ سُئل: أي الناس أكرم؟ قال:

«أكرمهم عند الله أتقاهم..» الحديث[2].

وبيَّنه أيضاً في قول ابنة العبد الصالح لأبيها في شأن موسىٰ عليه السلام:

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾.

(القصص).

وجملة هذه المعايير: الكفاية والتقوىٰ، أو القوة والأمانة، ومراعاتهما

(١) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٥/ ١٥٨ من حديث أبي ذر بهذا اللفظ، وأورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب الأدب: باب لا فضل لأحد علىٰ أحد إلا بالتقوىٰ ٨/ ٨٤، وعزاه إلىٰ أحمد قائلاً: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن بكر بن عبدالله المزني لم يسمع من أبي ذر».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ ٤/ ١٨٢، وكتاب التفسير: سورة يوسف: باب قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ ٦/ ٩٥ من حديث أبي هريرة مرفوعاً، ولفظه ـ كما في الرواية الثانية ـ قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس: يوسف نبي الله بن نبيِّ الله ابن نبيِّ الله بن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»، وعقَّب عليه بقوله: «تابعه أبو أسامة عن عبيد الله».

في تقييم الناس، وإسناد المهامّ إليهم يقضي على الكبت والقهر، بل يحمي النفس أصلاً من ذلك.

٧ـ معايشة الصديق الصادق الوفيُّ:

ذلك أن معايشة الصديق الصادق الوفيِّ تقضي على الكبت أو القهر، بل تحمي النفس أصلاً من الإصابة بهذا النوع من الآفات، إذ من خصائصها: المواساة التي منها حكاية ما يعاني منه المكبوت أو المقهور لصديقه وأسباب ذلك، ورسم طريق العلاج والوقاية، وقد صوَّر ذلك نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ في قوله لربه:

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) ﴾ (طه).

كما صوره علقمة في وصيته لولده بقوله: «يا بنيَّ إذا عرضتْ لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب مَنْ إذا خدمتَه صانَك، وإن صحبتَه زانَك، وإن قعدت بك مؤونة مانَكَ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدَّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى سيئة سترها، اصحبْ مَنْ إذا سألته أعطاك، وإن سكتَّ عنه ابتداك، وإن نزلتْ بك نازلةٌ واساك، اصحب مَنْ إذا قلتَ صَدَّقَ قولك، وإن حاولتَ أمراً آمرك، وإن تنازعتما آثرك».

٨ـ الإكثار من ذكر الله بمعناه العام الشمولي:

ويُعدُّ الإكثار من ذكر الله بمعناه العام الشمولي الجامع لذكر الله العقلي

بالعلم والتفكر، والقلبي بالتعظيم لله، والحبِّ، واللساني بالثناء عليه سبحانه بما هو أهله، والبدني بتوظيف البدن فيما يرضيه سبحانه وتعالىٰ، ثم دعوة الآخرين إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، فإن المواظبة علىٰ الذكر تفرغ النفس من كل كبت أو قهر، وتملؤها بالأمن والأمان والطمأنينة وسكينة النفس، وصدق الله الذي يقول:

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ (الأنعام).

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ (البقرة).

علىٰ أن هذا الذكر من شأنه إلانة القلوب، وحمل النفس علىٰ العفو والصفح الجميل طمعاً في الأجر من الله والمثوبة كما قال سبحانه:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾.
(الشورىٰ).

وكما قال:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ (الشورىٰ).

٩ - التذكير بعواقب الكبت:

ولعل التذكير المستمر بعواقب الكبت أو القهر علىٰ النحو الذي تقدم مما يعين علىٰ التخلص من هذا الداء أو هذه الآفة، بل الحماية والوقاية، إذ النفس

من شأنها النسيان والغفلة والتذكير خير علاج لذلك ، قال تعالى :

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ (الذاريات) .

وقال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) ﴾ .
(الأعلى) .

* * *

الآفة الثانية والثلاثون

اليأس والقنوط

الآفة الثانية والثلاثون

اليأس والقنوط

والآفة الثانية والثلاثون التي يُراد للأمة الإسلامية : أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين: بلوغها والوقوع في شباكها وحبائلها إنما هي: «اليأس والقنوط»، وحتى يعالج منها مَنْ ابتلي بها، ويتوقاها، ويتحصن منها مَنْ سلّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من الواجبات تجمعها هذه السطور :

أولاً : تعريف اليأس والقنوط لغة واصطلاحاً :

أ ـ اليأس لغة : يأتي اليأس لغة على معانٍ منها :

١ ـ انقطاع الأمل من الشيء، وانتفاء الطمع فيه، تقول : يئس من الشيء ييأسُ، ويَيِئس يائساً، ويأسةً : انقطع أمله منه، وانتفى طمعه فيه فهو يائس، ويؤوس، ويئس، ومنه: يئست المرأة: عقمتْ، فهي يائسة، ويئسة، ويقال للعقيم من النساء: يائس(١) .

٢ ـ الذل أو القهر والخضوع، أو اللين والتصاغر، تقول : آس أيساً، ذلَّ وخضع، وأس فلانٌ فلاناً : قهره، وتأيَّس فلانٌ فلاناً : لان وتصاغر(٢) .

(١ و ٢) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٦٢ مادة: «يئس» ١٠/ ٥٣ مادة «أيس»، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف المعروف بالسّمين الحلبي ت ٧٥٦هـ ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٢، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/ ٢٨٩ مادة: «أيس» ٢/ ٣٧٩ مادة: «يئس»، والمعجم الوسيط ١/ ٣٤، ٢/ ١٠٦٢ .

ولا تعارض بين المعنيين: إذ انقطاع الأمل من الشيء، وانتفاء الطمع فيه يفضي إلىٰ الذلّ والقهر، أو اللين والتصاغر مع الخضوع.

ب. اليأس اصطلاحاً: هو انقطاع الرجاء في الخروج من المأزق الراهن الذي تعيشه الأمة: أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين بصورة تفضي إلىٰ الذل والقهر، أو اللين والتصاغر، والخضوع والاستسلام[1].

أ. القنوط لغة:

١ - هو أشد اليأس من الشيء، تقول: قَنَط يقنِط فهو قانط، وقَنوط: شديد اليأس من الشيء، ومنه قوله تعالىٰ:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ (الشورىٰ: ٢٨).

٢ - هو اليأس نفسه، ومنه قوله تعالىٰ في التنزيل:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر)[2].

ب. القنوط اصطلاحاً: هو شدة انقطاع الرجاء في الخروج من المأزق الراهن الذي تعيشه الأمة: أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين بصورة تفضي إلىٰ الذل والقهر، أو اللين والتصاغر، والخضوع والاستسلام[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢ و٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٧٩، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٣/ ٤٠١، والقاموس المحيط ٢/ ٥٦٢، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٦٢ مادة: «قنط» بتصرف.

ثانياً : بعض المظاهر الدالة على اليأس والقنوط مع بيان موقف الإسلام من هذه الآفة :

وهناك مظاهر كثيرة تدل على اليأس والقنوط، نذكر منها :

١ - التخلّي عن الالتزام بالإسلام بدعوى أن الالتزام بالإسلام جرَّ علينا ويلات، وويلات، وأعطى الأعداء فرصة لحربنا مرَّة باسم : الإرهاب، وثانية باسم : التطرف، وثالثة باسم : الأصولية . . . وهكذا .

٢ - القعود عن جهاد الدعوة إلى الله ، والتربية بدعوى أننا ندعو الآخرين ونربيهم على العمل بدين الله، ولدين الله، من أجل تصدير هؤلاء إلى سجون ومعتقلات الطغاة والجبارين الذين ابتليت بهم هذه الأمة، أو بدعوى أنَّ ما نصل إليه من نجاحات مع هؤلاء في سنوات تهدمه وسائل الإعلام، ومدارس، ومعاهد التعليم ذات التوجه المخالف لعقيدة الأمة في لحظات .

٣ - عدم الثقة بأيِّ شيء ينتمي إلى الإسلام سواء في المجال الاقتصادي، أو التعليمي، أو الصحي، أو الإعلامي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو غير ذلك من المجالات، بل السخرية، والاستهزاء .

٤ - تثبيط همم الملتزمين بالإسلام، والداعين إليه، بدعوى : أنكم ما عملتم شيئاً سوى إفناء أعماركم في سلسلة طويلة من الشدائد والامتحانات عادت بالضرر عليكم وعلى أهليكم، وذويكم، بل على الأمة جميعاً .

٥ - الثقة المطلقة بأعداء الأمة بدعوى نجاحهم في كلِّ شيء، أو إمساكهم بزمام العالم، وقدرتهم على متابعتنا، وملاحقتنا حتى في مخادع النوم، وإنزال الضرر بنا إن أرادوا .

٦ - تصديق أعداء الأمة في كلّ ما يقولونه عنا لاسيَّما في مجال تشويه تاريخنا، ومسيرتنا الإسلامية، بل ترديد ذلك، وإشاعته، وإذاعته بيننا بكل ما يمكن من أساليب ووسائل إلى غير ذلك من المظاهر الدالة على اليأس والقنوط.

هذا.. ويقف الإسلام من هذه الآفة موقف المحرِّم لها، الرافض الوقوع في حبائلها، وشباكها، ومن باب أولى الدعوة إليها، قال تعالى على لسان يعقوب - عليه السلام - وهو يستحث أبناءه الضرب في الأرض طلباً ليوسف وأخيه يحدوهم الأمل، والرجاء في الله دون يأس أو قنوط من باب أن اليأس والقنوط من أخلاق الكافرين:

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ (يوسف).

يقول الإمام الألوسي - رحمه الله -:

« ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾: أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه، وتنفيسه ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾: لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال، أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك»(١).

وقال تعالى مبيِّناً أنه من أخلاق الكافرين في أكثر من آية: منها قوله تعالى:

(١) انظر: روح المعاني ١٣ / ٤٤ المجلد الخامس.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ (العنكبوت).

وقوله تعالىٰ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾ (الممتحنة).

وفي معنىٰ يأس هؤلاء قال ابن جرير الطبري:

«واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فقال بعضهم: معنىٰ ذلك قد يئس هولاء القوم الذين غضب الله عليهم من اليهود مِنْ ثواب الله في الآخرة، وأن يُبعثوا كما يئس الكفار الأحياء من أمواتهم الذين هم في القبور أن يرجعوا إليهم... وقال آخرون: بل معنىٰ ذلك قد يئسوا من الآخرة أن يرحمهم الله فيها، ويغفر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبور قد ماتوا، وصاروا إلىٰ القبور من رحمة الله، وعفوه عنهم في الآخرة، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم».

ثم ساق من المأثور ما يؤيِّد كلاً من القولين[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ (هود).

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٨/ ٥٣-٥٤.

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ (الإسراء).

وقال تعالى:

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾ (فصلت).

والإنسان في هذه الآيات الثلاث الأخيرة: هو الكافر أو هو الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

وقال تعالى:

﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ (الحجر).

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ (الروم).

ودعا صراحة إلى التحرر منها بقوله سبحانه:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر).

ولا يقولنَّ قائل كيف يكون اليأس حراماً، والله حكىٰ عن الأنبياء سريانه إلىٰ نفوسهم بقوله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾ (يوسف).

والجواب أن في تحديد المراد من الاستيئاس هنا أقوالاً، منها:

١ - أن الرسل أيسوا من إيمان قومهم، وأن قومهم ظنُّوا أن الرسل كذبوا بدليل ما رواه الطبري بأسانيد متنوعة من طريق عمران بن الحارث، وسعيد بن جبير، وأبي الضُّحىٰ، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي، كلهم: عن ابن عباس في هذه الآية قال: «أيس الرسل مِنْ إيمان قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل كذبوا»[1].

وعند النسائي من طريق أخرىٰ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: (قد كذبوا) قال: «استيأس الرسل مِنْ إيمان قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم»[2].

٢ - أو أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر أن يتخلف النصر لا من تهمة بوعد الله، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثتْ حدثاً ينقض ذلك الشرط، فكان الأمر إذا طال، واشتد البلاء عليهم دخلهم الظنٌّ

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ١٣ / ٥٤ - ٥٦ م٧، وعنه نقل ابن حجر في: فتح الباري ٨/ ٣٦٨.

(٢) انظر: السنن الكبرىٰ: كتاب التفسير: باب قوله تعالىٰ: «حتىٰ إذ استيأس الرسل» ٦/ ٧٣٠ رقم ١١٢٥٧ من حديث ابن عباس بهذا اللفظ، وقال عنه ابن حجر في: فتح الباري ٨/ ٣٦٩: «وإسناده حسن».

من هذه الجهة(١)، والراجح هو القول الأول تنزيهاً للرسل الذين جاءوا لزرع الثقة والأمل في النفوس بعد اقتلاع جذور اليأس والقنوط(٢).

ثالثاً: أسباب وبواعث اليأس والقنوط:

وهناك أسباب تؤدي إلىٰ اليأس والقنوط، وبواعث تحمل عليهما نذكر منها:

١ - كثرة الإخفاق، ودوام الفشل مع إهمال النفس من المحاسبة:

ذلك أن المرء عرضة في عمله للنجاح والفشل، والفوز والإخفاق، بيد أن الإخفاق إذا كثر، وتتابع الفشل، ولم يراجع المرء نفسه ليعرف سبب هذا الإخفاق، وبواعث هذا الفشل، ويعمل علىٰ التخلص منها، فإنه قد يصاب بنوع من اليأس والقنوط ينتهيان به إلىٰ أثر أو أكثر من آثار اليأس والقنوط التي سنعرض لها بعد قليل.

والمتأمل في جهاد الأمة المسلمة في نهاية القرن الميلادي الماضي وهذا القرن يجد أن هذه الأمة بذلت الكثير من نفسها ومالها لتطهير أرضها من الغاصبين والمحتلين، ولكن المتربصين ممن لا دين لهم ولا خلاق من أبناء هذه الأمة استطاعوا - بطريق أو بأخرىٰ - سرقة هذا الجهاد، وتوظيفه لصالح الغاصبين المحتلين من ناحية، وتحقيق مآربهم ومصالحهم الشخصية من ناحية

---

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ١٣/ ٥٦-٥٧ م٧، وعنه نقل ابن حجر في: فتح الباري ٨/ ٣٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ١٣/ ٥٧-٥٨ م٧، وعنه نقل ابن حجر في: فتح الباري ٨/ ٣٦٩.

أخرىٰ، ولـم تفكر الأمة في مراجعة نفسها، ومعرفة سبب هذه المحنة، بل سبب تكرارها في أكثر من مكان، الأمر الذي يوشك أن يلقي علىٰ الأمة ظلالاً من اليأس والقنوط، إلا أن تتداركها رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقس علىٰ ذلك تصفية شركات توظيف الأموال، وحل النقابات والجمعيات العلمية، ونوادي أعضاء هيئة التدريس، وتغيير مناهج التعليم، وتشويه تاريخ الأمة المجيد في أكثر من بلد وناحية، مع إهمال البحث عن سبب ذلك، والعمل علىٰ التخلص منه، ومداواته بما يناسب من الدواء.

٢ ـ الجهل بموقف الإسلام من اليأس والقنوط:

ذلك أن الإسلام يحرِّم اليأس والقنوط، ويحذر منهما أشدَّ التحذير علىٰ النحو الذي مضىٰ آنفاً.

والجهل بهذا الموقف يوقع المرء في اليأس والقنوط دون أدنىٰ شعور من وخز النفس، وتردد الصدر.

٣ ـ الوقوف عند حالات الفشل مع نسيان حالات النجاح في الماضي والحاضر:

ذلك أن حياة المرء لا تخلو من حالات نجاح، وحالات فشل، وقد يقف المرء عند حالات الفشل ناسياً أو متناسياً حالات النجاح، وعند ذلك يصاب باليأس والقنوط.

وبالمثل لا تخلو حياة الأمة المسلمة من حالات نجاح لا حصر لها: حسبنا بقاؤها عزيزة الجانب، مرهوبة الكلمة ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وحسبنا الإقبال علىٰ الإسلام اليوم من غير المسلمين بصورة عديمة النظير، بل إقبال الكثير من المسلمين لاسيَّما الناشئة والشباب علىٰ الالتزام بالإسلام والغيرة

أشد الغيرة لانتهاك الحرمات في النفس، وفي المال، وفي العِرض، وفي الأوطان والمقدسات، ومقارعة الكافرين والمستعمرين في: أفغانستان، والبوسنة والهرسك، وفلسطين. . . وغيرهم، بل العمل على تطبيق شرع الله في كل شيء، وإن غضب الكافرون، وأذنابهم، كما في السودان ولكن لا تخلو حياة الأمة كذلك من جوانب الفشل على النحو الذي تعيشه الآن، والوقوف عند جوانب الفشل هذه، ونسيان جوانب النجاح، وما أكثرها يوقعها لا محالة في اليأس والقنوط.

٤ ـ الغفلة عن جوانب الفشل في حياة الأعداء:

ذلك أن حياة الأعداء رغم ما فيها من نجاحات تتمثل في هذا التقدم العلمي الهائل في كلِّ شؤون الحياة، والذي به كانت سيادة وسيطرة هؤلاء على غيرهم من الأمم الضعيفة أو المستضعفة، إلا أنها لا تخلو من جوانب فشل وإخفاق في جانب القيم والأخلاق، فمنها ما ينكر وجود الله بالمرَّة، ويقول: الكون مادة، ولا إله، والدين أفيون الشعوب، ولا آخرة، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتبعاً لذلك يطلق العنان لنفسه أن تنال حظها من الشهوات بكل ما تيسَّر لها من سبل وأساليب، ومنها ما يشرك بالله ويتصور الجزاء في الآخرة قائماً على مبدأ المحاباة، والمحسوبية وتبعاً لذلك يُقبل على الشهوات واتباع الهوى غير ملتزم بأي ضابط خُلقي وإنساني، ولقد انتهتْ الأمور بهؤلاء وأولئك إلى القلق والاضطراب النفسي، والفرقة، والقطيعة، والعلل، والأمراض البدنية المستعصية على العلاج، وشيوع الجريمة، وتمرد الظواهر الكونية ونحوها، وأخيراً اليأس والقنوط إلى حدِّ كراهية الحياة، ومحاولة التخلص منها بطريق أو بأخرى.

وهكذا.. لا تخلو حياة الأعداء من جوانب فشل نهايتها اليأس والقنوط، وغفلة المسلم عن هذه الجوانب يوقعه في اليأس والقنوط لا محالة.

٥- عدم معرفة الله حقَّ المعرفة:

وقد تؤدي عدم معرفة الله حق المعرفة من أنَّه سبحانه موصوف بكل كمال، منزه عن كلِّ نقص، ومن كماله سبحانه: نصر المؤمنين، وإعزاز الدين، شريطة أن يكون المؤمنون أتقياء أقوياء، فإن اختل هذان الشرطان أو أحدهما كانت السيادة والغلبة لغيرهما ليفيق المؤمنون، ويعودوا للأخذ بأسباب القوة والغلبة، قد تؤدي عدم معرفة الله على النحو المذكور إلى الوقوع في اليأس والقنوط.

٦- سوء الظنِّ بالله- عزَّ وجلَّ-:

وقد يؤدي سوء الظن بالله- عزَّ وجلَّ- من أنَّه لا ينصر دينه ولا يؤيد أهله، وأولياءه، وأن دينه سيضمحل، وأن أهله وأولياءه سيقضى عليهم، وينتهون، كما قال سبحانه:

﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وكما قال- عزَّ من قائل-:

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) ﴾ (الفتح) .

إذ يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« فَمَنْ ظنَّ بأنَّه لا ينصر رسوله، ولا يُتمُّ أمره، ولا يؤيِّده، ويؤيِّد حزبه ويعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنَّه لا ينصر دينه، وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالاً، لا يقوم بعده أبداً، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوْء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله، وجلاله، وصفاته، ونعوته »(١) .

قد يؤدي سوء الظن بالله هكذا إلى الوقوع في اليأس والقنوط .

٨ ـ ضرب أو إجهاض كل محاولة نجاح أو فوز :

وقد يكون الحرص على ضرب كل محاولة نجاح أو فوز أو على الأقل إجهاضها من البواعث التي تحمل على اليأس والقنوط، ذلك أنَّ مرور النجاح أو الفوز بسلام واستقراره على أرض الواقع مما يبعث الأمل في النفوس، ويبثُّ الثقة في القلوب، أمَّا القضاء على كل نجاح أو فوز بالضرب أو الإجهاض فإنه يسمح بتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس .

وأمثلة ذلك من الواقع المُعاش اليوم كثيرة لا تخفى على كل ذي لُبٍّ،

---

(١) انظر : بدائع التفسير لابن قيم الجوزية ١ / ٥١٩ .

وذي بصيرة على المستوى الفردي، والجماعي، والحكومي، والشعبي، والدولي، والعالمي.

٩. عرض تاريخ الأمة: أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين، عرضاً مشوهاً مبتوراً:

وقد يكون عرض تاريخ الأمة: أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين، عرضاً مشوَّهاً، مبتوراً من الأسباب التي توقع في اليأس والقنوط، ذلك أن قيمة كل أمَّة في صفاء تاريخها، ونقاء سيرتها أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين، فإذا ما شوِّه هذا التاريخ، وعُرض عرضاً مبتوراً ناقصاً فقد قضى على ما تُفاخر به الأمة وتباهي به بين الأمم والشعوب، وفتح الباب لتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس على النَّحو الذي صنعه الأعداء والمغرضون بتاريخنا، وحسبنا من ذلك ما عرضه جورج زيدان في كتابه: «تاريخ التمدن الإسلامي»، وما عرضته إسرائيل وهي تحتفي بمرور خمسين عاماً على إنشائها من تزييف النجاح الذي حققته الأمة في حرب رمضان عام ١٩٧٣م، وتشويه المستشرقين والمستغربين لجهاد المجاهدين من أبناء هذه الأمة، بدءاً بالشيخ محمد بن عبدالوهاب، وانتهاءً بالشيخ حسن البنا عليهما من الله الرحمة والرضوان.

١٠. القطيعة والفرقة:

وقد تكون القطعية والفرقة من بين الأسباب التي توقع في اليأس والقنوط، ذلك أن المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، والدين لا يمكن له التمكين الصحيح إلا بجماعة تتمتع بكل مواصفات الجماعة، كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ:

«لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا ببيعة، ولا بيعة إلا بطاعة»[1] .

وإذا دبت القطيعة بين أبناء الأمة الواحدة، وعلتها الفرقة والتمزق زال وانمحى مبعث الأمل والرجاء من نفس المسلم، وحلّ محله اليأس والقنوط .

١١ ـ الغفلة عن سنن الله في مواجهة الإخفاق والفشل :

وقد تكون الغفلة عن سنن الله في مواجهة الإخفاق والفشل من بين الأسباب التي تبعث على الوقوع في اليأس والقنوط، ذلك أنّ لله سنناً في مواجهة الإخفاق والفشل، وتتمثل هذه السنن في العمل بحكمة، واستمرار، مع استعانة بالله ـ عزّ وجلّ ـ، وحُسن توكل عليه حتى يقضي على هذا الإخفاق، ويزول الفشل والغفلة عن هذه السنن، والأخذ بها يوقع لا محالة في اليأس والقنوط .

١٢ ـ العيش في وسط يسيطر عليه اليأس والقنوط :

وقد يكون العيش في وسط يسيطر عليه اليأس والقنوط سواء أكان قريباً كالبيت، أم كان بعيداً كالمجتمع، مما يبعث على اليأس والقنوط، لاسيَّما إذا لم يكتمل نضج المرء، ولم يكن يتمتع بالحصانة اللازمة للحماية من الوقوع في براثن هذه الآفة .

---

(١) الحديث أخرجه الدارميُّ في : السُّنن : المقدمة : باب في ذهاب العلم ١ / ٧٩ من حديث تميم الدَّاريِّ بلفظ : «تطاول الناس في البناء في زمن عمر، فقال عمر : يا معشر العريب الأرض، الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة . . .» الحديث .

١٣ـ ضعف الهمم، وفتور العزائم، ونزول الإرادات :

وقد يكون ضعف الهمم، وفتور العزائم، ونزول الإرادات مما يبعث على اليأس والقنوط، ذلك أن الهمة القوية، والعزيمة الصادقة، والإرادة العالية مما يبعث على الأمل، ويزرع الثقة والرجاء في النفوس أن تتخطى العوائق والحواجز مهما يكن شأنها وقوتها، بخلاف ضعف الهمة، وفتور العزيمة، ونزول الإرادة فإنها تفتح الباب أمام اليأس والقنوط أن يشقا طريقهما إلى القلوب، وأن يسيطرا على النفوس.

١٤ـ الغفلة عن عواقب وآثار اليأس والقنوط :

وأخيراً قد تكون الغفلة عن عواقب وآثار اليأس والقنوط على كلٍّ المستويات الفردية والجماعية، الحكومية والشعبية، على النحو الذي سيظهر من خلال العرض بعد قليل، من بين الأسباب والبواعث الحاملة على اليأس والقنوط، من باب أن الجهل بالعواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمرٍ مّا قد توقع المرء في هذا الأمر، ثم يكون الندم حين لا ينفع الندم.

إلى غير ذلك من الأسباب.

رابعاً : آثار وعواقب اليأس والقنوط :

ولليأس والقنوط آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أم على العمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه الآثار وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

فمن آثار اليأس والقنوط على العاملين :

١ ـ القعود عن أداء الواجبات :

ذلك أن اليأس والقنوط ينتهيان بالمرء إلىٰ القعود عن أداء الواجبات، فإذا هو يتخلىٰ عن الالتزام بمنهج الله، بل عن الدعوة إلىٰ دينه سبحانه وتعالىٰ متذرعاً بأن ذلك ألَّب الكارهين للإسلام الحاقدين عليه ضدَّه، وجرَّ عليه ويلات وويلات في نفسه، وأهله، وذويه، وأمواله، ومركزه، وما كان أغناه عن ذلك، خصوصاً أن قضية الالتزام بدين الله، والعمل لهذا الدين ما جنتْ شيئاً يذكر في مواجهة تحديات الأعداء.

٢ ـ دعوة الآخرين إلى القعود عن أداء واجبهم :

ذلك أن اليائس القانط الذي قعد عن أداء دوره وواجبه يريد أن يجد لنفسه سلوة أو أسوة، ولا يرىٰ ذلك إلا في دعوة الآخرين إلىٰ القعود عن أداء دورهم وواجبهم مثله، وفي عصرنا الحاضر قعد واحد من أبناء الحركة الإسلامية عن أداء دوره وواجبه ضعفاً من ناحية، ويأساً وقنوطاً من ناحية أخرىٰ، فإذا هو يضع كتاباً بعنوان: «خمسة وعشرون عاماً في جماعة» يدعو فيه الناشئة إلىٰ الابتعاد عن الحركة الإسلامية لأنه لاقىٰ الأمرين من وراء الالتحاق بها، وما جنىٰ شيئاً يذكر، وهو يضنُّ بهؤلاء الناشئة أن يصيبهم مثل الذي أصابه، أو يحل بهم مثل الذي حلَّ به.

٣ ـ الخضوع والاستسلام لمن يُحادُّون الله ورسوله :

ذلك أن اليأس والقنوط إذا سيطرا علىٰ المرء لم يجدْ بُدّاً من الخضوع والاستسلام لمن يحادُّون الله ورسوله، ظانّاً أنه يجد عندهم النجاة والخلاص، وأولئك يعرفون نقطة الضعف هذه، فيستغلونها في تحقيق

مآربهم، ومصالحهم بأن يجعلوا من هذا الصنف من الناس عيناً لهم، بعد أن يلقوا به في حمأة الإثم والرذيلة، وحينئذٍ يكون مِمَّن خسر الدنيا والآخرة جميعاً، وذلك هو الخسران المبين.

وفي تاريخ الحركة الإسلامية نماذج عدَّة من هذا النفر، منهم مَنْ قضىٰ نحبه، ومنهم مَنْ ينتظر، وقد حاد عن الطريق المستقيم، فارتمىٰ في أحضان مَنْ يُحادُّون الله ورسوله مستسلماً منقاداً لهم بسبب اليأس والقنوط.

٤ ـ الشك في كلِّ ما ينتمي إلى الإسلام والمسلمين إلى حدِّ الطعن والتشويه:

ذلك أن اليأس والقنوط إذا سيطرا علىٰ المرء دخله الشك والارتياب في كلِّ ما ينتمي إلىٰ الإسلام والمسلمين: سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وفكرياً، وعلمياً، وأدبياً، وإعلامياً، إلىٰ حد السخرية، والاستهزاء، والاحتقار، والازدراء، بل الطعن والتشويه، وفي الواقع المعاصر نماذج عِدَّة ناطقة بصحة هذا الأثر يمكن اكتشافها بقليل من البحث والتنقيب.

٥ ـ حمله وزر نفسه وأوزار المقتدين به:

ذلك أنَّه بيأسه وقنوطه قد حمل وزراً عظيماً عن نفسه، وعن مَنْ اقتدىٰ به لاسيَّما من الناشئة والشباب وضعاف الهمم والعزائم، لأنه حينئذٍ من دعاة الضلالة، وقد قال النبي ﷺ:

«وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» [1].

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

ب ـ على العمل الإسلامي :

ومن آثار اليأس والقنوط على العمل الإسلامي :

١ ـ التعطيل والإيقاف :

ذلك أنه إذا سيطر اليأس والقنوط على القائمين على أمر العمل الإسلامي حملهم ذلك على تعطيل وإيقاف هذا العمل بدعوى الملاحقة من الأعداء، وأنه لا فائدة ولا جدوى ولا ثمرة تذكر من وراء هذا العمل.

٢ ـ العمل بتراخٍ وتوانٍ وتسيُّبٍ :

وحتى على تقدير عدم التعطيل والإيقاف للعمل يكون البديل عن ذلك العمل بتراخٍ، وتوانٍ، وتسيب، وفي فضول الأوقات، وعندما يصل العمل الإسلامي إلى هذا المستوى تطول الطريق، وتعظم التكاليف، ويتمكن الأعداء، فيعيثون في الأرض فساداً، ويعبثون بالقيم العليا، والمبادئ السامية، ويستبيحون المحرمات من الدماء، والأموال، والأعراض، والأوطان ونحوها.

٣ ـ الانحراف بالعمل عن مساره الصحيح :

وإذا لم يكن التعطيل والإيقاف، وكذلك إذا لم يكن العمل بتراخٍ وتوانٍ، وتسيب فإنه يكون الانحراف بالعمل عن مساره الصحيح بدعوى تفادي التصادم مع المناوئين استمراراً للعمل، وإنجاحاً له، أو بدعوى عدم جدواه وفائدته بالأسلوب التقليدي القديم، أو بغير ذلك من الدعاوى والمبررات.

خامساً : علاج اليأس والقنوط والوقاية من ذلك :

وحيث تمَّ تحديد ماهية اليأس والقنوط، والمظاهر الدالة عليهما، ووضعهما في ميزان الإسلام، وبيان الأسباب والبواعث الحاملة عليهما، وآثارهما على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، يأتي دور العلاج، بل الوقاية، وذلك باتباع هذه الخطوات :

١ ـ المعرفة الحقة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع حُسن الظن به ـ سبحانه وتعالى ـ :

وذلك بدوام النظر في آيات الله المنظورة في الكون وفي النفس، وآياته المسطورة في كتابه وسنة نبيِّه محمد ﷺ، فإن ذلك يعرِّفنا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ معرفة حقة تقود إلى حُسن الظنِّ به سبحانه وتعالى، وأنه ناصر دينه، معين مؤيد أهله وأوليائه ما داموا آخذين بأسباب النصر، والتأييد، والتمكين، لاسيَّما وقد جاء في الحديث القدسي :

« أنا عند ظنِّ عبدي بي .... »[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾، وباب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨، ١١٧، ومسلم في : الصحيح : كتاب : الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار : باب الحث على ذكر الله تعالى، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ٤ / ٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥ / ٢، وكتاب التوبة : باب الحض على التوبة والفرح بها ٤/ ٢١٠٢ رقم ٢٦٧٥ / ١، والترمذي في : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء في حسن الظن بالله ٤/ ٥١٤ ـ ٥١٥ رقم ٢٣٨٨، وكتاب الدعوات : باب في حسن الظن بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ٥/ ٥٤٢ رقم ٢٦٠٣، وابن ماجه في : السنن : كتاب الأدب : باب فضل العمل ٢/ ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦ رقم ٣٨٢٢ والدارمي في : السنن : كتاب الرُقاق : باب حسن الظن بالله ٢/ ٣٠٥، وأحمد في : المسند ٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١، ٤١٣، ٤٤٥، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤ ـ ٥٣٥، ٥٣٩، ٣/ ٢١٠، ٢٧٧، ٤٩١، ٤/ ١٠٦ كلهم من حديث أبي هريرة =

إذ هو سبحانه يقول في كتابه :

﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ .

(المائدة : ٣) .

كما يقول :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ .

(النور : ٥٥) .

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ (الصافات) .

ويُبيِّن أنه يبتلي عباده المؤمنين بما يبتليهم به تمحيصاً لهم ، إذ يقول :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾ .

(آل عمران) .

ويقول تعالىٰ :

=رضي الله عنه - إلا ابن ماجه فإنه عنده من حديث واثلة بن الأسقع ، وزاد أحمد روايتين من حديث أنس بن مالك ، وروايتين من حديث واثلة بن الأسقع ، وعقَّب الترمذي على حديثه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح».

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

ويقول أيضاً:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ (العنكبوت).

وكذلك لكشف المنافقين، والأدعياء، والدخلاء، إذ يقول:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ (التوبة).

وهكذا تقود المعرفة الحقة بالله إلىٰ حُسن الظن به سبحانه، بما يدفع اليأس، ويقتلع القنوط من الأساس والجذور.

٢ ـ اليقين أن اليأس والقنوط من أخلاق الكافرين الضالين لا مِنْ أخلاق المؤمنين الصادقين:

إذ المؤمنون الصادقون عارفون بربهم، واثقون من وعده لهم بالنصر، وتبعاً لذلك فإنهم يوالونه ـ سبحانه ـ بمحبته وتعظيمه وطاعته، والنزول علىٰ حكمه في كل ما يأتون، وما يذرون، وإنْ نزل بهم من الشدائد والمحن ما نزل، فمن أين يأتيهم إذاً اليأس والقنوط، سيَّما وقد جاء في الحديث ما

يكشف عن ذلك، إذ يقول ﷺ:

« عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كُلَّه له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1] .

بخلاف الكفار الضالين فإنهم غير مؤمنين بالله، وبالدار الآخرة، وتبعاً لذلك فهم آيسون قانطون من رحمته في الدنيا والآخرة، والمؤمن الحق يخاف أن يتصف بصفتهم من اليأس والقنوط، فيكفر بالله، ويضل عن سبيله، ويحرم خير الدنيا والآخرة، لذلك يجاهد نفسه أن تقع في اليأس والقنوط، بل يعمل للتخلص منهما، إن ابتلي بهما، ليحيا ويموت والله عنه غير ساخط ولا غاضب.

٣ - دوام النظر في قصص الأنبياء والمرسلين:

ذلك أن قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين مليء بصور لا حصر لها من المحن والشدائد ووجهت منهم بالصبر والتحمل، والعمل مع الثقة في الله، والأمل، والرجاء، أن يعينهم على تجاوز هذه المحن والشدائد، وقد كان:

هذا إبراهيم - عليه السلام - يُلقى في النار، فلا ييأس، ولا يقنط، وإنَّما يضرع إلى الله، وكله أمل ورجاء أن يجيب الله دعاءه قائلاً: «حسبنا الله

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩ / ٦٤، والدارمي في: السنن: كتاب الرقاق: باب المؤمن يؤجر في كلِّ شيء ٢/ ٣١٨ كلاهما من حديث صهيب مرفوعاً، واللفظ لمسلم، وكذلك أخرجه أحمد في: المسند ٥/ ٢٤ من حديث أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه.

ونعم الوكيل»[1]، ويستجيب الحق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ له، فيحوّل هذه النار برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ (الأنبياء).

وهذا موسىٰ ـ عليه السلام ـ يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر إلىٰ فلسطين ويتبعه فرعون وملؤه، وحين يتراءىٰ الجمعان يقول أصحاب موسىٰ في خوف وهلع: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾، ولكن موسىٰ المؤمن بربه، الواثق من وعده له بالنجاة والنصر، يقطع هذا الخوف، ويبدده مطَمئناً لهم بقوله:

﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ (الشعراء).

وفعلاً يحقق الله له ما وعده به فيقول:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب التفسير: سورة آل عمران: باب ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم..** ﴾ الآية ٦/ ٤٨ ـ ٤٩ من حديث ابن عباس قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل: قالها إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»، وبإسناد آخر عنه أيضاً قال: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»، والحديث وإن كان ظاهره أنه موقوف، لكن له حكم المرفوع، لأن مثل هذا لا مجال للرأي والاجتهاد فيه.

مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) ﴾ (الشعراء) .

وبقيتْ هذه آية للأجيال اللاحقة تأخذ منها الدرس والعبرة وزاد الطريق، حيث يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً .. ﴾ (الشعراء) .

وهذا زكريا يبلغ من العمر عتيّاً، ولا يُرزق الولد، فيدعو ربه في ثقة وأمل قائلاً :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ (مريم) .

﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ (الأنبياء) .

وحقق الله له ما رجاه وما طلبه بقوله :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ (الأنبياء) .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ .
(آل عمران) .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ ﴾ (مريم) .

وهكذا مَنْ ينعم النظر في سير الأنبياء والمرسلين عموماً يجد فيها زاداً غنياً لمقاومة حال اليأس والقنوط، بل على العكس، فإن هذا الزاد يسري إلى القلوب حاملاً معه الثقة في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والرجاء، والأمل، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

(هود: ١٢٠).

ويقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١) .

ويقول :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠) .

٤ ـ دوام النظر في سيرة وسنة نبيِّنا وإمامنا محمد ﷺ على وجه الخصوص:

إذ فيها ما يغرس الثقة في النفوس، ويزرع الأمل والرجاء في الصدور.

يقول ابن سيِّد الناس :

«وروينا عن عثمان بن طلحة من طريق ابن سعد قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين، والخميس، فأقبل ـ يعني النبي ﷺ ـ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فغلَظْتُ له، ونِلْتُ منه، وحلم عنِّي، ثم قال:

يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئتُ، فقلتُ: لقد هلكت قريش يومئذ، وذلَّتْ، فقال: بل عمرتْ، وعزَّتْ يومئذ، ودخل الكعبة، فوقعتْ كلمتُه مني موقعاً ظننتُ يومئذ أن الأمر سيصير إلىٰ ما قال، وفيه أنه ـ عليه السَّلام ـ قال له يوم الفتح: يا عثمان، ائتني بالمفتاح، فأتيتُه به، فأخذه منِّي، ثم دفعه إليَّ، وقال: خذها تالدةً، خالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان: إن الله استأمنكم علىٰ بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، قال عثمان: فلمَّا وليتُ ناداني، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت؟ قال: فذكرتُ قوله لي بمكة قبل الهجرة: لعلك سترىٰ هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: بلىٰ أشهد أنك رسول الله»(١).

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلىٰ مكة علىٰ راحلته مردفاً أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحَجَبَة حتىٰ أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ، ومعه أسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً كاملاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبدالله بن عمر أول مَنْ دخل، فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله: أين صلَّىٰ رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلىٰ المكان الذي صلَّىٰ فيه، قال عبدالله: فنسيتُ أن أسأله: كم صلَّىٰ سجدةً»(٢).

---

(١) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي، والشمائل، والسير: فتح مكة: باب إبقاء ابن طلحة علىٰ السدانة رغم الذي كان بينه وبين الرسول قبل إسلامه ٢/ ٢٣١، وفتح الباري ٨/ ١٨ـ ١٩ حيث عزاه إلىٰ ابن إسحاق، من حديث صفية بنت شيبة، وقال: «إسناده حسن»

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب المغازي: غزوة الفتح: باب دخول النبي ﷺ مِنْ أعلىٰ مكة ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩، وحجة الوداع: باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، =

وفي مرسل الزهري : «أن النبي ﷺ قال لعثمان يوم الفتح : ائتني بمفتاح الكعبة ، فأبطأ عليه ، ورسول الله ﷺ ينتظره حتىٰ إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، ويقول : ما يحبسه؟ فسعىٰ إليه رجل وجعلت المرأة التي عندها المفتاح ـ وهي أم عثمان ، واسمها سلافة بنت سعيد ـ تقول : إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبداً ، فلم يزل بها حتىٰ أعطت المفتاح ، فجاء به ففتح ، ثم دخل البيت ، ثم خرج ، فجلس عند السقاية ، فقال عليٌّ : إنا أُعطينا النبوة ، والسقاية ، والحجابة ، ما قوم بأعظم منّا ، فكره النبيُّ ﷺ مقالته ، ثم دعا عثمان بن طلحة ، فدفع المفتاح إليه»(١) .

وفي الهجرة من مكة إلىٰ المدينة مكث ﷺ مع الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ في غار ثور ثلاث ليال ، وقد تمكَّن المشركون من اقتفاء أثرهم إلىٰ الغار حيث رأىٰ الصدِّيق أقدامهم ، فقال : «يا نبي الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا» .

فقال له النبي ﷺ :

«اسكتْ يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما» (٢) .

وإلىٰ هذا اليقين الصادق ، والتوكل الكامل أشارت الآية :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) .

=ومسلم في : الصحيح : كتاب الحج : باب استحباب دخول مكة للحجاج وغيره ، والصلاة فيها ، والدعاء في نواحيها كلها ٢/ ٩٦٦ ـ ٩٦٧ رقم ١٣٢٩ / ٣٨٨ ـ ٣٩٤ كلاهما من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ واللفظ للبخاري .

(١) الخبر أورده ابن حجر في : فتح الباري ٨/ ١٨ ، وعزاه إلىٰ عبدالرزّاق ، والطبراني .

(٢) انظر : السيرة النبوية الصحيحة للدكتور : أكرم ضياء العمري ١/ ٢١١ نقلاً عن : فتح الباري .

وتمثل هذا النصر في قوله سبحانه :

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة) .

إلىٰ غير ذلك من صور اليقين بوعد الله ، والثقة بنصره في أشد ساعات المحنة ، وأحلك أوقات الشدة ، والعيش فيها يقضي علىٰ اليأس والقنوط ، ويجعل مكانه الثقة بالله ، وأنه لا يتخلَّىٰ عن عباده المؤمنين الصادقين .

٥ ـ الاستقراء الصحيح لمسيرة تاريخنا الإسلامي :

ذلك أنه مرَّتْ بالأمة الإسلامية : أفراداً وجماعات فترات عصيبة أحاطت بها الخطوب من كل ناحية ، ولفَّتْها الشدائد من كل جانب ، ولكنها جاهدتْ ، وأخلصت في جهادها حتىٰ مرَّت الخطوب ، وانتهتْ الشدائد ، وعادت كالذهب النضار .

هذا بيت المقدس ظلَّ رهينة في أيدي الصليبيين إحدىٰ وتسعين سنة ، ثم خلَّصه المسلمون من قبضة أيديهم بقيادة زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي في حطين عام ٥٩١هـ .

وها هم التتار جاءوا إلىٰ بغداد عام٦٥٦هـ ، فاستولوا علىٰ بغداد ، بعد أن قتلوا الخليفة العباسي ، وأعملوا السيف في رقاب الأهلين وفرضوا حَظْر تجوُّلٍ دام أربعين يوماً حتىٰ تلوث الهواء ، وفسد الجو ، ومات بسبب ذلك من الأحياء أضعاف مَنْ مات بأيدي التتار ، ثم صنع هؤلاء الهمج الرعاع من ميراث المسلمين الفكري والعلمي (كتبهم) جسراً عبروا عليه من دجلة إلىٰ

الفرات إلىٰ بلاد الشام، وهناك فعلوا بالناس ـ مع إعانة اليهود، والنصارىٰ، والرافضة لهم ـ الأفاعيل، ثم صاروا من بلاد الشام إلىٰ مصر للاستيلاء عليها، وكان بين حكام الشام والكرك والشويبك، وبين حكام مصر من الخلافات ما لا يعلمه إلا الله، ولكن عدوان التتار هذا أنساهم خلافاتهم وجمع شملهم، وتنادوا باسم الإسلام، فخفَّ أهل المغرب علماء وطلاب، وعامَّة إلىٰ المشرق لإعانة إخوانهم علىٰ التتار، وفي عين جالوت عام ٦٥٨هـ التقىٰ الجمعان، وهزم الله التتر، وردَّهم علىٰ أعقابهم خاسرين، وأسلم التتر، وحسن إسلامهم حتىٰ حملوا الإسلام إلىٰ بلادهم ناشرين له، مدافعين عنه لأكثر من خمسة قرون من الزمان، وما كان هذا الموقف يتم من المسلمين في وجه الصليبيين، ومن بعدهم التتار إلا بطرحهم اليأس والقنوط من حياتهم، وتحليهم بالثقة التامة في وعد الله بنصر المسلمين، وهزيمة وخزي غيرهم مِمَّن يُحادُّون الله ورسوله، والمؤمنين، وقِسْ علىٰ هذين الموقفين مواقف أخرىٰ أكثر من أن تُحصىٰ.

وهكذا يمكن أن يساعد الاستقراء الصحيح لمسيرة تاريخنا الإسلامي الصحيح علىٰ تطهير النفوس من اليأس والقنوط، بل حمايتها أعظم الحماية من ذلك.

٦ ـ النظر الصحيح في واقع الأمة المعاصر:

ذلك أن الأمة، وإن كانت تعيش اليوم حرباً علىٰ كلُّ المستويات: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والعلمية، والأخلاقية، والعسكرية، والصحية، وغيرها تحت شعار تجفيف المنابع، إلا أن الإقبال علىٰ الالتزام بالإسلام التزاماً صحيحاً دائماً لاسيِّما بين الناشئة والشباب اتخذ

صوراً عدة، وهي من المبشِّرات التي تدفع اليأس والقنوط، وتزرع الثقة بالله في النفوس، والأمل، والرجاء.

ففي المجال الثقافي والعلمي: أصبح هناك إقبال على تعلم اللغة العربية بكلِّ فروعها، وهذا من الأهمية بمكان لكونها مفتاح فقه الكتاب والسنة، وطريق الدخول إلى تاريخنا الإسلامي بسنائه، وضيائه، الأمر الذي يكون طريقاً إلى الوحدة الإسلامية الجامعة.

وصار هناك الحرص على الفقه في الدين: عقيدةً، وعبادةً، وأخلاقاً ونظماً وتشريعات، وهذا بدوره يُعد سبباً في ضبط تصرفات المسلم من ناحية، وإرشاده إلى مكائد الشياطين، وسبيل إحباطها، وكيفية التخلص منها من ناحية أخرى.

كما برز النبوغ في العلوم التجريبية من: طب، وهندسة، وفلك، وجيولوجيا، وزراعة، ونحوها حتى كانتْ نخبة العلماء الذين على أكتافهم تدور عجلة البحث العلمي، والإنتاج في كلٍّ من أوروبا الشرقية والغربية، وأمريكا، وهم بإذن الله رصيد مدخر للأمة يمكن توظيفه، والانتفاع به في اللحظة الحاسمة، والبيئة المناسبة، كما كان الرد على الشبهات والأباطيل التي أثيرت وتثار بين الحين والحين حول الإسلام والمسلمين بصورة تحمي الناشئة والشباب من التأثر بهذه الشبهات والأباطيل.

كما انتشر الكتاب الإسلامي المبرز الصورة الكلية للإسلام بشموله ووسطيته، وواقعيته، وسماحته، ويسره، وثباته، ومرونته، بالإضافة إلى بعث المخطوطات في كلِّ فروع الثقافة والعلم من جديد بعد أن كادت تبلى وتموت.

وفي مجال الأخلاق والسلوك: برز الالتزام بالإسلام في الحرص على تعاطي الحلال في المطاعم، والمشارب، والملابس، والسكنى، ونحوها، وفي الحرص على الظهور بالمظهر الإسلامي في الحجاب، وفي بناء البيوت وتخطيط التجمعات السكانية ونحوها.

كما علتْ الأصوات المنادية بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية حتى من أولئك الذين كانوا يعلنون في إصرار: أنه لادخل للسياسة في الدين، ولا للدين في السياسة، خطباً لودِّ الشعوب المسلمة التي باتت لا يرضيها إلا أن تُحكم بشرع الله - عزَّ وجلَّ - ووضعت الدراسات والبحوث اللازمة في كثير من جوانب الشريعة الإسلامية تيسيراً لسبيل التطبيق والتنفيذ.

وحرص الأكثرون على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع مراعاة شروطه وآدابه.

وباتت التجارب الواقعية: تُلحُّ على الشباب المندفع بعاطفة وحماسة للقيام بهذا الواجب عن طريق القوة فقط، وإراقة الدماء، أن يثوب إلى رشده، وأن يعود إلى وعيه مراعياً الحكمة في تطبيق هذا الواجب بلا ضرر، ولا ضرار.

وفي المجال الاجتماعي: كان التوسع في أعمال البرِّ والمعروف من أجل تخفيف المعاناة عن كل صاحب حاجة، وكذلك مَنْ ألمَّ به عذر من الأعذار، كما تشهد بذلك بيوت الزكاة ولجانها، وكذلك صناديق الوقف الخيري، ولجان العمل الإسلامي المنتشرة في كلِّ قارات الدنيا، وكان التنسيق بين بعض الأقطار من أجل التعاون والتآزر لتحقيق المصالح والأهداف المشتركة، كما يشهد بذلك: منظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها.

وفي المجال الاقتصادي : كان حصر الإمكانات والموارد الاقتصادية في العالمين العربي والإسلامي من أجل العمل على توظيفها واستغلالها على أكمل وجه وأحسنه.

كما وضعت بعض السياسات والنظم الاقتصادية في كثير من بلدان العالَمَيْن: الإسلامي، والعربي، لتحقيق التكامل والتعاون الاقتصادي، وكان التكامل والتبادل في الصناعة، والزراعة حسب الخصائص التي يتمتع بها كل واحدٍ من هذه البلدان، توفيراً للتكاليف، وقضاءً على المنافسة غير المجدية، وتبادلاً للخبرات، وإفادة من التجارب الاقتصادية فيما بينها.

وكان استخدام التقنية الحديثة ، وتطويرها، وتوظيفها بما يساعد على التنمية الاقتصادية بأقل التكاليف، ومن أقصر طريق.

وقامت بيوت التمويل والمصارف، ملتزمة المنهج الإسلامي، وعاملاً للتخلص من المعاملات المحرَّمة، والمحظورة.

وفي المجال السياسي والإداري : وضعت البحوث، وعقدت المؤتمرات التي تتناول الشكل الإسلامي للسياسة والحكم، المتمثل في: الشورى، والانتخاب، والتعددية الحزبية، وتنصيب المرأة ونحوها، كما روجت أشكال الحكم القائمة في العالم اليوم من: الديمقراطية، والدكتاتورية، والحكم الفردي الشمولي المطلق.

وشكَّلت بعض أنظمة الحكم في العالم العربي والإسلامي على النمط الإسلامي، وإن كانت لا تزال تحتوي على جوانب النقص، ولكنها في طريقها إلى الزوال بالاستمرار والصبر.

وفي مجال الأسرة وتربية الأولاد : كان الاهتمام بمعرفة مقاصد الزواج، وأنجح سبل تطبيقها وتنفيذها، وكذلك برز الاهتمام بالطفل من حيث إنه اللبنة الأساسية في بناء المجتمع بوضع رسائل صغيرة في تربية الأولاد، وحل المشكلات التي تعترض سبيلهم من المنظور الإسلامي، وتمَّتْ العناية بالمرأة المتمثلة في إفهامها أن الإسلام ارتقىٰ بها إلىٰ مستوىٰ لم يكن لها به عهد من قبل البعثة المحمدية، وقد أعطاها من الحقوق قدر ما عليها من الواجبات سوىٰ مسألة القوامة، حيث جعلها للرجل رعاية لمصلحة الأسرة عموماً، والمرأة علىٰ وجه الخصوص، قال تعالىٰ:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

(البقرة: ٢٢٨)[١].

وهكذا يمكن أن يؤدي النظر بمثل هذه الصورة من الاستقراء والتتبع في واقع الأمة اليوم إلىٰ اقتلاع اليأس والقنوط من النفوس، وشحن هذه النفوس بالثقة التامة في الله، والرجاء، والأمل في وعده بالنصر والتمكين عندما نأخذ بأسباب النصر والتمكين.

٧ـ النظر في واقع الأعداء بالأمس واليوم:

أمَّا واقع الأعداء بالأمس فمعروف مقدار ما نزل بهم من الفشل والهزيمة بأيديهم، وبأيدي المؤمنين في: بدر، والخندق، وحُنين، ويوم بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وفي خيبر، وأثناء الحروب الصليبية، وما كان في الحرب العالمية الأولىٰ، والثانية.

---

(١) انظر: التربية الإسلامية: الصف الرابع الثانوي بدولة الكويت: الدرس الأخير بتصرف يسير.

وأمَّا واقعهم اليوم فحسبهم - رغم التقدم العلمي الهائل الذي يعيشون في كلِّ مناحي الحياة - انهيار القيم، وتحطم الأخلاق، وشيوع الجريمة، وسيطرة القلق النفسي، وعدم الصبر، والرضا، وسيادة الشكوك، والظنون الكاذبة، وتشتت القلوب، وشيوع الأمراض البدنية لاسيَّما التي استعصت على العلاج، وتمرد الظواهر الكونية، وكثرة الكوارث في البرِّ، وفي البحر، وفي الجوِّ، وما أدى ذلك إليه من اليأس والقنوط، ومحاولة الانتحار والتخلص من الحياة.

إذ أَنَّ دوام النظر في واقع هؤلاء الأعداء بالأمس واليوم يطمئن المسلم أن الأعداء ممتحنون مثلنا وأشد، كما قال الله - عزَّ وجلَّ - :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

وكما قال - سبحانه وتعالى :

﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) ﴾ (النساء).

وأن علينا أن نصبر ونتحمل، ونؤدي واجبنا للخروج من قدر الهزيمة إلى قدر النصر، ومن قدر الفشل إلى قدر النجاح، وذلك هو وعد ربِّنا لنا إذ يقول:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ (آل عمران).

٨ ـ محاسبة النفس دوماً لمعرفة أسباب الفشل والإخفاق، ثم محاولة التخلص من هذه الأسباب :

ذلك أن هذه المحاسبة المستمرة توقف المرء علىٰ جوانب الخلل في حياته، والأسباب أو البواعث الدافعة لذلك، وهذا يحمل علىٰ التخلص من هذه الأسباب والبواعث إن كان المرء جاداً صادقاً مع نفسه، وبهذه المحاسبة يقضي علىٰ سبب رئيس من أسباب اليأس والقنوط، إذ سيقل الفشل والإخفاق، وربما يتلاشىٰ تماماً.

قال تعالىٰ في الدعوة إلىٰ هذه المحاسبة :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (١٨) ﴾ (الحشر) .

وقال ﷺ :

« **الكَيِّسُ مَنْ دان نفسه، وعَمِلَ لما بعد الموت، والأحمق مَنْ أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني** »[١] .

٩ ـ التأمل في إقبال غير المسلمين الشديد على الإسلام :

ذلك أن غير المسلمين قد أيسوا الأمن والأمان في ظل المناهج الأرضية التي عاشوا في كنفها، وتحاكموا إليها بعد أن دانوا بالإلحاد أو بالشرك، لأن منها مَنْ انهار بعد أن ثبت فشله، وعدم غناه أو جدواه، كالمنهج الاشتراكي أو الشيوعي القائم علىٰ أن الكون مادة، ولا إله، والدين أفيون الشعوب،

---

(١) الحديث تقدَّم تخريجه .

ولا آخرة، وما هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يُهلكنا إلا الدهر، ومنها ما هو في طريقه إلى الزوال كالمنهج الرأسمالي القائم على إطلاق حقّ الملكية بلا ضوابط، ولا قيود، فنشأ الاستغلال، والظلم من الأقوياء للضعفاء، ونشأت الأحقاد من الضعفاء للأقوياء، والكل أصبح غارقاً في الجريمة والإثم لأنه لا يوحّد الله، ولا يقيم له وزناً، ولا يرجو له وقاراً، ولا يخاف عقاب الآخرة لتصوره أنه ابن الله وحبيبه، فكيف يعذب الأب ولده، والحبيب حبيبه، ثم ها هم الأحبار، والرهبان، والحاخامات، يحلون لهم الحرام، ويُحرِّمون عليهم الحلال، ويعدونهم مغفرة ذنوبهم والجنَّة بعد ابتزازهم، وأخذ ما في أيديهم وجيوبهم.

ولما آلت حالهم إلى هذا الوضع المزري بحثوا عن الخلاص فما وجدوه سوى في الإسلام، فأقبلوا إليه إقبالاً عديم النظير، لاسيَّما في أوروبا الشرقية والغربية، وأمريكا، مع قلة الجهد الذي يبذله المسلمون في ذلك من ناحية، ومع السلوكيات المنحرفة من كثير من المسلمين من ناحية ثانية، ومع التشويه والتحريف للإسلام بأيدي المستشرقين والمستغربين وبعض أبنائه من ناحية ثالثة، وما ذلك إلا لأنه دين الفطرة والأمان، قال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

(الروم).

وقال تعالى:

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾.

(البقرة).

والحال هذه تقتضي التأمل فيها، وأنَّ الله هو الذي يصنع لدينه، ولو كره المشركون والكافرون.

١٠ ـ تذكر حالات النجاح بالإضافة إلى حالات الفشل:

ذلك أنَّـه إذا ألحَّتْ حالات الفشـل علىٰ الفرد والجماعة، الحاكم والمحكوم، فإنه ينبغي ـ مقاومة لهذا الإلحاح ـ تذكُّر حالات النجاح والفوز في النفس، وفي الكون، ومع الخصوم من شياطين الإنس، والجن، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ عوَّدنا: أن مع العسر يسراً، وأن مع الشدة الفرج، قال تعالىٰ:

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ (الطلاق).

وقال تعالىٰ:

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

(الانشراح).

ويفعل ذلك للمرء في كلِّ يوم، بل في كل ساعة، بل في كل دقيقة، بل في كل لحظة، رحمةً منه ـ سبحانه ـ وتفضلاً، فإن تأخر ذلك فلحكمة لايعلمها إلا هو، قال تعالىٰ:

﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

(الأعراف).

ومَنْ يظل علىٰ هذه الحال متذكراً النجاح بالإضافة إلىٰ الفشل يبقىٰ سليماً من اليأس والقنوط، واثقاً بوعد ربه، متفائلاً، عاملاً إلىٰ آخر الزمان.

١١ ـ التصرف بحكمة وقاية للمكاسب من الضرب أو الإجهاض.

ينبغي اليقين أن الأعداء والخصوم لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمَّة، وأنهم إذا تمكنوا لا يرضيهم شيء إلا أن نعود كفاراً مثلهم أو نموت.

قال تعالىٰ:

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (النساء: ٨٩).

وقال تعالىٰ:

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾ (الممتحنة).

وقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠ ﴾ (الكهف).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾.
(البقرة: ١٢٠).

وانطلاقاً من هذا اليقين، وآثاره فإن على المسلمين: أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين، أن يتصرفوا بلباقة وحكمة لاسيَّما في مرحلة الضعف التي نعيشها اليوم تفادياً لتحقيق ما يريد هؤلاء من الضرب أو الإجهاض لاسيَّما وقد قال الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) .

وقال تعالىٰ:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾ (البقرة) .

١٢ ـ الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية والمحافظة عليها:

وذلك بأن يكون لدينا اليقين التام: أن الوحدة الإسلامية والمحافظة عليها هي طريق القضاء على اليأس والقنوط، بل زرع الثقة بالله في القلوب، والأمل في النفوس، بيد أن هذه الوحدة لا تتحقق إلا بالإخلاص ثم بالأخوَّة الإسلامية التي فيها ينصح الأخ أخاه، ويأخذ بيده للتخلُّص من عيبه عملياً، ويملأ عليه فراغ حياته، فلا تبقىٰ لحظات تستغل مِنْ قبل شياطين الإنس، وشياطين الجنّ، وتكسبه خبرات وتجارب، وتفتح له مزيد أبواب لتحصيل الأجر والثواب، وتُذهب عنه السأم والملل، وبالتالي اليأس والقنوط، وتعينه علىٰ إنجاز المطلوب من أقصر طريق، وبأقل التكاليف، وتحفظ له هيبته بين الناس.

وهكذا تثمر الأخوَّة الإسلامية في ضوء ما تقدم وحدة إسلامية جامعة، تقف في وجه الأعداء، والخصوم، وتحبط المكائد والمؤامرات شريطة عدم الإصغاء لهؤلاء الأعداء، وعدم الثقة فيما يصدر عنهم مما ظاهره المشورة والإصلاح، وباطنه العذاب، والفساد، والإفساد.

١٣ ـ التخلص من صحبة المعروفين باليأس والقنوط، مع العيش بين المتفائلين والمستبشرين:

وينبغي كذلك التخلص من صحبة المعروفين باليأس القنوط لئلا يصيبه ما أصابهم، مع العيش بين المتفائلين والمستبشرين كي يفتح له هؤلاء باب الأمل، والرجاء، والثقة في الله، وفي وعده بنصر المؤمنين، وصدق النبي ﷺ القائل:

« مَثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمَّا أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة » (١) .

١٤ ـ الانتباه إلى ضاعفة الوزر لليأس والقنوط:

ذلك أن المرء بيأسه، وقنوطه، موزور لا مأجور، لأنه استمع للشياطين، ولم يستمع لله، والرسول، وبالتأكيد سيقتدي به في يأسه وقنوطه آخرون، لاسيَّما الناشئة والشباب فيضاعف عليه الوزر: وزر نفسه، ووزر هؤلاء، ويلقى بذلك عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة جميعاً.

قال تعالى:

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ١٣) .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الذبائح: باب المسك ٧/ ١٢٥، ومسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ والصِّلة، والآداب: باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء ٤/ ٢٠٢٦ رقم ٢٦٢٨ / ١٤٦ كلاهما من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

وقال تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ (النحل) .

١٥ ـ مواجهة اليأس والقنوط بهمة عالية، وعزيمة صادقة :

ذلك أن الهمَّة العالية، والعزيمة الصادقة، والإرادة القوية تعين المرء على مواجهة أيٍّ من الشدائد : يأساً أو قنوطاً من غير توانٍ أو انقطاع، وكذلك تعين على تخطيِّ العقبات والمعوقات، كي تصل السفينة سالمة إلى شاطئ النجاة، وبرِّ الأمان، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ (العنكبوت) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ (النحل) .

١٦ ـ الأخذ بسنن الله في مواجهة الإخفاق والفشل :

ذلك أن لله سنناً في كلِّ شيء في هذا الوجود، لاسيَّما مع اليأس والقنوط، ولئن أراد الضعفاء التخلص من حالات اليأس التي أصابتهم، والقنوط الذي اعتراهم فليبحثوا عن هذه السُّنن، وليأخذوا بها، ومن هذه السُّنن : النجاح في عمارة الأرض إلى حدِّ السيادة فيها، مع معرفة حكم الله، والأخذ به في كل صغير وكبير، ثم حراسة الحقِّ من عدوان المبطلين وتطاول

المتطاولين، مع الصبر والتحمل إلىٰ أن يقض الله أمراً كان مفعولاً.

وبعبارة أخرىٰ ينبغي علىٰ العلماء: كلٌّ في تخصصه أن يحصروا آخر ما وصلت إليه البشرية من تطور وتقدم، ثم يضيفوا إليه الجديد الذي يجعلهم سابقين عصرهم، مواكبين واقعهم، وكذلك علىٰ أرباب الأموال مساعدة هؤلاء العلماء في تنمية البحث العلمي ليخطوا خطوات إلىٰ الأمام، ومَنْ لم يكن من هذا الصنف ولا ذاك، فليسخِّر بدنه في قضاء حوائج الناس من: حفر آبار، والأخذ بيد معوَّق أو طاعن في السن، وإرشاد الضال، وإغاثة ملهوف، وتفريج كربات المكروبين، وهلمَّ جرا، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلٌّ بما يناسب حاله، وحال الأمة من تغيير باليد، أو باللسان، أو بالقلب، والصبر علىٰ مشاقِّ ذلك مع التحمل.

قال تعالىٰ:

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾ (العصر).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥ ﴾ (التوبة).

وقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

١٦ ـ تذكر عواقب وآثار اليأس والقنوط :

وأخيراً علينا أن نتذكر عواقب اليأس والقنوط الفردية والجماعية، وننعم النظر في ذلك علّها تكون حاملاً علىٰ التخلص من هذا اليأس والقنوط، ودافعاً للحصانة منهما أن يأخذا طريقهما إلىٰ النفوس مرّة أخرىٰ، فإن من تذكر العاقبة الضارة لأمر ما، وكان صادقاً مع نفسه، مراقباً ربّه أقلع عن هذا الأمر، وعمل جاهداً علىٰ عدم العود إليه مرة أخرىٰ.

والله ولي التوفيق.

* * *

الجزء السادس

الآفة الثالثة والثلاثون

أكـــل الحــــرام

الآفة الثالثة والثلاثون

أكل الحرام

والآفة الثالثة والثلاثون المؤدية لكلِّ بلية ومصيبة في هذه الأرض إنما هي: «أكل الحرام» في أيٍّ من صوره، وحتىٰ يتطهَّر منها مَنْ ابتلاه الله -عزَّ وجلَّ- بها، ويتوقاها ويحترز منها مَنْ سلَّمه الله -تبارك وتعالىٰ-، فإنه لابد من تنفيذ سلسلة من الأعباء أولها ورأسها: الإلمام بأبعاد ومعالم هذه الآفة، علىٰ النحو التالي:

أولاً: ماهية أكل الحرام:

لغة: أكل الحرام: مركب إضافي من لفظين هما: «أكل» و «حرام»، ولابد من معرفة معنىٰ كلٍّ علىٰ حِدَة، ثم معرفة معناهما معاً بعد التركيب، وها هو البيان:

أ- أكل: تأتي كلمة أكل في اللغة علىٰ معانٍ منها:

١- المضغ والبلعُ، تقول: أكل الطعام أكلاً: مضغه، وبلعه.

٢- الإفساد والإفناء، تقول: أكلته النار: أفنته، وأكله السوس: «أنخره، وأفسده».

٣- الاستباحة، تقول: اكل مَالَهُ، وحقَّهُ: استباحه، وفي التنزيل قوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾ (البقرة).

٤ ـ الطعام والطعمة، تقول: هذا أكل: طعام، وهذه مأكلةٌ: طُعْمةٌ.

٥ ـ الكسب، تقول: هذا أكل: هذا كسب[١].

ولا تعارض بين هذه جميعاً، إذ هو كسب من طعام أو غيره عاقبته الفناء بالمضغ أو بغيره، يأتي بالاستباحة والاستحلال أو بغير ذلك من الصور.

ب ـ الحرام: لغة: أصل الحرام في اللغة: الممنوع من فعله، يقال: حَرَمَ فلاناً الشيء حرماناً: منعه إياه، وحَرُمَ الشيء حرمةً: امتنع[٢].

اصطلاحاً: عرفه أصوليو المتكلمين بأنه: خطاب الله المقتضي الكفَّ عن الفعل اقتضاءً جازماً، أي لم يجوِّز فعله أبداً[٣].

وعرفه أصوليو الحنفية بأنه: طلب الكف عن الفعل بدليل قطعي، كما في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ (المائدة).

وكتحريم الربا في قوله تعالى:

﴿ وَحَرَّمَ الرِّبَا... ﴾ (البقرة: ٢٧٥)[٤].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٣٧، والقاموس المحيط: ٣ / ٤٨٢ ـ ٤٨٣، والمعجم الوسيط ١/ ٢٢ ـ ٢٣ مادة: «أكل» بتصرف كثير.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٢٢٠ ـ ٢٢١، والقاموس المحيط ٤/ ١٣١ ـ ١٣٢، والمعجم الوسيط ١/ ٢٢ ـ ٢٣ مادة: «حرم» بتصرف.

(٣ و٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ٢٠٦ بتصرف كثير.

وعرفه أبو البقاء الكفوي بقوله:

«والحرام: ما استُحِقَّ الذَّمُّ على فعله، وقيل: ما يثاب على تركه بنية التقرُّب إلى الله تعالى»(١).

وفي موضع ثانٍ بقوله:

«والحرام: الممنوع منه، إما بتسخير إلهي، كقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ (المائدة).

وإما بمنع بشري كقوله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ (القصص: ١٢).

وإما بمنع من جهة العقل كقوله:

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

أو من جهة الشرع كتحريم بيع الطعام متفاضلاً»(٢).

وفي موضع ثالث بقوله:

«والحرام: ما ثبت المنع عنه بلا أمر معارض له، وحكمه العقاب بالفعل، والثواب بالترك لله تعالى، لا بمجرد الترك، والإلزام أن يكون لكل أحد في كلِّ لحظة مثوبات كثيرة، بحسب كل حرام لم يصدر عنه»(٣).

(١-٣) انظر: الكليات ص ٤٠٠، ٤٠٤-٤٠٥ بتصرف يسير.

جـ - أكل الحرام: اصطلاحاً: وتبعاً للتعاريف التي ذكرتُ آنفاً فإنه يمكن القول: إن أكل الحرام: كسب ما طلب الشارع الكف عن فعله بدليل قطعي طعاماً أو غيره، مع إنفاقه في أي صورة من صور الإنفاق تارةً في المأكل والمشرب، وتارة في اللباس، وتارة في السكنى، وغيرها.

ثانياً: أهم صور أكل الحرام وموقف الشارع الحكيم:

ولأكل الحرام صور كثيرة تدل عليه، ومظاهر عِدَّة تكشف عنها، ومنها:

١ - الربا بكل أشكاله وصوره: قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ (البقرة).

٢ - السرقة: قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ (الممتحنة).

وعن عبادة بن الصامت ـ وكان شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ:

«بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولاتقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروفٍ، فمَنْ وفَّىٰ منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك»[(1)].

٣ ـ الغصْب ـ وهو الاستيلاء بالقوة على مال الغير بغير حقٍّ علانية ـ:

قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (البقرة).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب منه ١/ ١١، وكتاب مناقب الأنصار: باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة، وبيعة العقبة ٥/ ٧٠، وكتاب التفسير: سورة الممتحنة: باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ٦/ ١٨٧، وكتاب الحدود: باب الحدود كفارة، وباب توبة السارق ٨/ ١٩٨، ٢٠١، وكتاب الأحكام: باب بيعة النساء ٩/ ٩٩، وكتاب التوحيد: باب في المشيئةوالإرادة ٩/ ١٦٩، ومسلم في: الصحيح: كتاب الحدود: باب الحدود كفارات لأهلها ٣/ ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤ رقم ٤١ ـ ٤٤ رقم ١٧٠٩، والترمذي في: السُّنن: كتاب الحدود: باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها ٤/ ٣٦ رقم ١٤٣٩، والنسائي في: السنن: كتاب البيعة: باب البيعة على الجهاد ٧/ ١٤١ ـ ١٤٢، وكتاب الإيمان وشرائعه: باب البيعة على الإسلام ٨/ ١٠٨ ـ ١٠٩، والدارمي في: السُّنن: كتاب السير: باب في بيعة النبي ﷺ ٢/ ٢٢٠، وأحمد في: المسند ٥/ ٣١٤ كلهم من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

وعن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوِّقه من سبع أرضين»(١).

٤ ـ **الرشوة** ـ وهي ما يُدفع من مال إلى ذي سلطان أو ما في حكمه ليحكم لشخص أو على خصمه بما يريد، أو ينجز له عملاً، ويؤخِّر لغريمه مثله ـ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال:

«لعن رسول الله ﷺ الراشي، والمرتشي»(٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب المظالم والغصب: باب إثم مَنْ ظلم شيئاً من الأرض ٣/ ١٧٠، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء في سبع أرضين ٤/ ١٢٩ ـ ١٣٠ من حديث سعيد بن زيد، وزاد البخاري في بدء الخلق روايتين: الأولى من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ والأخيرة من رواية سالم بن عبدالله، عن أبيه، ومسلم في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب تحريم الظلم، وغصب الأرض وغيرها ٣/ ١٢٣٠ ـ ١٢٣٢ رقم ١٣٧ ـ ١٤٠ / ١٦١٠ من حديث سعيد بن زيد مرفوعاً به، وبمثله، وبنحوه، ورقم ١٤١/ ١٦١١ من حديث أبي هريرة مرفوعاً، ورقم ١٤٢/ ١٦١٢ من حديث عائشة مرفوعاً، والترمذي في: السنن: كتاب الديات: باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد ٤/ ٢٠ ـ ٢١ رقم ١٤١٨ على أنه قطعة من حديث طويل بلفظ: «ومَنْ سرق من الأرض شبراً طُوِّقه يوم القيامة مِنْ سبع أرضين»، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، والدارمي في: السنن: كتاب البيوع: باب مَنْ أخذ شبراً من الأرض ٢/ ٢٦٧ من حديث سعيد بن زيد مرفوعاً، وأحمد في: المسند ١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠ من عدة طرق عن سعيد بن زيد مرفوعاً، ٢/ ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٣٢ من عدة طرق عن أبي هريرة مرفوعاً به وبنحوه.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في: السُّنن: كتاب الأقضية: باب في كراهية الرشوة ٤/ ٩ ـ ١٠ رقم ٣٥٨٠، والترمذي في: السنن: كتاب الأحكام: باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم ٣/ ٦٢٣ رقم ١٣٣٧، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الأحكام: باب التغليظ في الحيف والرشوة ٢/ ٧٧٥ رقم ٢٣١٣ كلهم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً به، غير أنه قال في رواية ابن ماجه: «لعنة الله على الراشي، والمرتشي»، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وأورده الألباني في: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ص ٢٦٣ رقم ٤٥٧ وحسنه، ولكن من طريق أبي هريرة.

٥ ـ التدليس ـ وهو كتمان العيب في السلعة، أو الثمن مع العلم به ـ:

قال رسول الله ﷺ:

«البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن تفرقا وبيَّنا بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقتْ بركة بيعهما»(١).

٦ ـ الغش قليلاً أو كثيراً؛ لقوله ﷺ: «مَنْ غشَّ فليس منَّا»(٢).

٧ ـ أكل أموال اليتامى ظلماً؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب البيوع: باب إذا بيَّن البيِّعان ولم يكتما، ونصحا، وباب ما يمحق: الكذب، والكتمان في البيع، وباب كم يجوز الخيار، وباب البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٣/ ٧٦، ٧٧، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ومسلم في: الصحيح: كتاب البيوع: باب الصدق في البيع والبيان ٣/ ١١٦٤ رقم ١٥٣٢/ ٤٧، وأبو داود في: السنن: كتاب البيوع والإجارات: باب في خيار المتبايعين ٣/ ٧٣٧ـ٧٣٨ رقم ٣٤٥٩، والترمذي في: السنن: كتاب البيوع: باب البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٣/ ٥٤٨ـ٥٤٩ رقم ١٢٤٦، والنسائي في: السنن: كتاب البيوع: باب ما يجب على التجار ٧/ ٢٤٤ـ٢٤٥، والدارمي في: السنن: كتاب البيوع: باب في البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٢/ ٢٥٠ كلهم من حديث حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وعقَّب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث صحيح».

(٢) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ: «مَنْ غشنا فليس منا» ١/ ٩٩ رقم ١٠٢/ ١٦٤، والترمذي في: السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع ٣/ ٦٠٦ رقم ١٣١٥، والترمذي في: السنن: كتاب البيوع: باب النهي عن الغش ٢/ ٧٤٩ رقم ٢٢٢٤ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

٨ـ السؤال غير المشروع:

لما جاء في الحديث عن قبيصة بن مخارق الهلالي بلفظ: تحمَّلْتُ حمالةً فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال:

«أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها».

ثم قال: «يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالةً فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحتْ ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ـ أو قال: سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا مِنْ قومه: لقد أصابت فلان فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ، فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة سُحتاً، يأكلها صاحبها سحتاً»(١).

٩ـ منع الزكاة: قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ (التوبة).

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب مَنْ تحل له المسألة ٢/ ٧٢٢ رقم ١٠٩، وأبو داود في: السنن: كتاب الزكاة: باب ما تجوز فيه المسألة ٢/ ١٢٠ رقم ١٦٤٠، والنسائي في: السنن: كتاب الزكاة: باب الصدقة لمن تحمَّل حمالة ٥/ ٨٨ـ٩٠، والدارمي في: السنن: كتاب الزكاة: باب مَنْ تحل له الصدقة ١/ ٣٩٦، وأحمد في: المسند ٥/ ٦٠ كلهم من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي مرفوعاً به.

١٠ ـ **الاتجار في المحرمات :** مثل : الخمور ، والمخدرات ، والأصنام ، والتماثيل ، والخنزير ، وأوراق اللعب ، والمزامير ، وأدوات اللهو ، ونحوها .

١١ ـ **عدم إتقان أو إجادة الأعمال :** فإن هذا يعني أخذ أجر من غير بذل ما يقابله من عرق ، وجهد .

وفي ضوء هذه الصور ، وغيرها ، والدليل على حرمتها ، يظهر أن الشارع الحكيم يحرم أكل الحرام ، وينهى عنه أشد النهي ، كما هو المفهوم من قوله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)** ﴾ (البقرة) .

وقوله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)** ﴾ (البقرة) .

وقوله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)** ﴾ (المؤمنون) .

وقوله تعالى :

﴿ **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)** ﴾ (النحل) .

ثالثاً : أسباب وبواعث أكل الحرام :

ولأكل الحرام أسباب كثيرة، وبواعث عِدَّة تؤدي إليه، وتوقع فيه، نذكر منها :

١ - الجهل بماهية الحرام وحقيقته، وعواقبه :

ذلك أن كثيراً من الناس يجهلون ماهية الحرام، ولا يعرفون حقيقته، لاسيَّما دقائقه، ولا يدركون عواقبه، ومَنْ جهل ماهية أمرٍ مَّا، وحقيقته، وعواقبه أتىٰ هذا الأمر، وإن كان ضاراً، وهو لا يدري ولا يشعر.

لذا جعل الشارع الحكيم: الفقه في الدين أساساً لأداء المسلم دوره، ورسالته في الأرض، خصوصاً قضية الحلال والحرام، والمباح والمحظور.

فقال تعالىٰ :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ (التوبة) .

وقال تعالىٰ :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ (ص) .

ووعىٰ السَّلف حقيقة ذلك، فجعلوا الفقه في الدين الأساس الأول لبناء شخصية المسلم، لاسيما الحلال والحرام، حيث قام نظام التعليم في الدولة

الإسلامية على هذا، فكانوا يبدأون بالقرآن مع اللغة العربية، مع أحاديث أصول الأحكام، مع الفقه لمعرفة الحلال والحرام، ثم يكون التعمق في ناحية أو أكثر من العلوم الشرعية، أو العلوم الحياتية، وحسبنا ما أُثر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يطوف بالسوق، ويضرب بعض التجار بالدرَّة، ويقول: «لا يبيع في سوقنا إلا مَنْ يفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى»(١).

وحسبنا ما أُثر عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه مرَّ بسوق المدينة يوماً فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم، وأنتم ههنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد.

فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد فدخلنا، فلم نر فيه شيئاً يقسم، فقال لهم: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قوماً يصلون، وقوماً يقرأون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ(٢).

٢ ـ عدم معرفة الله حق المعرفة، وعدم مراقبته:

ذلك أن المرء إذا خلا قلبه من معرفة الله، وأنَّه سبحانه عالم بكلِّ شيء، مطلع على كلِّ شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، سَهُلَ عليه أن يقع في كلِّ محظور، ومن المحظورات الكسب الحرام.

---

(١) يأتي تخريجه بعد قليل.

(٢) الحديث أورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب العلم ١/ ١٢٣ ـ ١٢٤ من حديث أبي هريرة موقوفاً بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن».

وقد نبَّه النبي ﷺ إلى ذلك في حديثه المشهور:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد»[1].

يقول المهلب في معنى نفي الإيمان عنه:

«تنزع منه بصيرته في طاعة الله».

ويقول ابن الجوزي في ذلك:

«إن المعصية تذهله عن مراعاة الإيمان، وهو تصديق القلب فكأنَّه نسي مَنْ صدَّق به».

ويقول ابن حجر:

«معنى قوله: ليس بمؤمن، أي ليس بمستحضر في حالة تلبُّسه بالكبيرة جَلال مَنْ آمن به، فهو كناية عن الغفلة التي جلبتها له غلبة الشهوة».

ويقول الطيبي:

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب المظالم: باب النُهْبَى بغير إذن صاحبه ٣/ ١٧٨، ومسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب نقصان الإيمان بالمعاصي ١/ ٧٦-٧٧ حديث رقم ٥٧ (١٠٠-١٠٥) وأبو داود في: السنن: كتاب السنة: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٥/ ٦٤-٦٥ رقم ٤٦٨٩، والترمذي في: السنن: كتاب الإيمان: باب لا يزني الزاني وهو مؤمن ٥/ ١٦-١٧ حديث رقم ٢٦٢٥، والنسائي في: السُنن [المجتبى]: كتاب قطع السارق: باب تعظيم السَّرقة ٨/ ٦٤-٦٥، وابن ماجه في: السنن: كتاب الفتن: باب النهي عن النهبة ٢/ ١٢٩٨-١٢٩٩ حديث رقم ٣٩٣٦ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً به وبنحوه.

«يحتمل أن يكون الذي نقص من إيمان المذكور الحياء، وهو المعبر عنه في الحديث الآخر بالنور، وقد مضىٰ أن الحياء من الإيمان، فيكون التقدير لا يزني حين يزني وهو يستحيي من الله، لأنه لو استحيا منه، وهو يعرف أنَّه مشاهد حاله لم يرتكب ذلك، وإلىٰ ذلك تصح إشارة ابن عباس تشبيك أصابعه، ثم إخراجها منها، ثم إعادتها إليها، ويعضِّده حديث:

«مَنْ استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى»[1].

---

(١) وهناك أقوال أخرىٰ في معنىٰ الحديث لخصها الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٦٠ـ٦٢ في اثني عشر قولاً بالإضافة إلىٰ القول الذي ذكرناه، وهذه أهم هذه الأقوال:

١ـ قال الإمام النووي: اختلف العلماء في معنىٰ هذا الحديث والصحيح الذي قاله المحقِّقون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان. هذا من الألفاظ التي تطلق علىٰ نفي الشيء، والمراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولامال إلا ما يغلُّ، ولا عيش إلا عيش الآخرة، وإنما تأولناه لحديث أبي ذر: **«مَنْ قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى، وإن سرق»**، وحديث عبادة الصحيح المشهور: **«أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على ألا يسرقوا ولا يزنوا...»** الحديث، وفي آخره: **«ومَنْ فعل شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة، ومن لم يعاقب فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه»**، فهذا مع قول الله عز وجل: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ مع إجماع أهل السنة علىٰ أن مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك، يضطرنا إلىٰ تأويل الحديث ونظائره، وهو تأويل ظاهر سائغ في اللغة مستعمل فيها كثيراً».

٢ـ وقال النووي أيضاً: «وتأوله بعض العلماء علىٰ مَنْ فعله مستحلاً مع علمه بتحريمه».

٣ـ وقال النووي كذلك: «وقال الحسن البصري، ومحمد بن جرير الطبري: «معناه ينزع عنه اسم المدح الذي سمىٰ الله به أولياءه، فلا يقال في حقه مؤمن، ويستحق اسم الذمِّ، فيُقال: سارق، وزانٍ، وفاجر، وفاسق».

٤ـ وقال الإمام النووي أيضاً: «وعن الزهري أنه من المشكل الذي نؤمن به، ونمرُّ كلما جاء، ولا نتعرض لتأويله». =

٣ ـ الإسراف مع قلة ذات اليد:

ذلك أن الإسراف مع قلة ذات اليد قد يضطر المرء أن تمتد يده إلى الحرام في أيٍّ من صوره التي مضت لتغطية نفقاته تلك، بغض النظر عن الباعث على هذا الإسراف، أهو المرء نفسه؟ أم زوجه وذووه؟، ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها نهى الشارع الحكيم عن الإسراف والتبذير، قال تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ (الأعراف).

وقال تعالى:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)﴾ (الإسراء).

٤ ـ الديون مع حلول الأجل وقلة ذات اليد:

وقد تكون الديون مع حلول الأجل، وقلة ذات اليد، من بين الأسباب التي تحمل على أكل الحرام، ذلك أن الدَّين همٌّ بالليل، وغمٌّ بالنهار، وهو قرين الكفر كما جاء عن المعصوم ﷺ ويعظم ذلك حين يحين الأجل مع قلة ذات اليد، إذ ربما تُحدِّث المرء نفسه، ويسوِّل له شياطين الجن والإنس السعي إلى كسب الحرام لقضاء هذا الدَّين، والخروج من دائرة الهمِّ، والغمِّ، والحرج.

= ٥ ـ وقال الحافظ ابن حجر: «أن يكون منافقاً بهذه الأعمال نفاق معصية، لا نفاق كفر، حكاه ابن بطال عن الأوزاعي».

٦ ـ أن معنى نفي كونه مؤمناً، أنه شابه الكافر في عمله.

٧ ـ أن المراد به الزجر والتنفير، ولا يراد ظاهره، إلى غير ذلك من الأقوال.

ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها دعا الشارع إلى إنظار المعسر، وربَّما الحط عنه، قال تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ (البقرة).

وقال ﷺ: **«مَنْ أنظر معسراً، أو وضع له، أظلَّه الله يوم القيامة تحت ظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظلُّه»**[(١)].

٥ـ البيئة التي ينشأ فيها المرء:

وقد تكون البيئة التي ينشأ فيها المرء صغيرة ـ كالبيت ـ أم كبيرة ـ كالمجتمع ـ سبباً في أكل الحرام، ذلك أن المرء إذا نشأ في بيت يأكل الحرام ولا يبالي، وكذلك إذا عاش في مجتمع هذه صفته وحاله يتأثر بذلك كثيراً فيأكل الحرام، ولا يجد أدنى مرارة أو غضاضة في هذا.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الزهد والرقاق: باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر ٤/ ٢٣٠١ ـ ٢٣٠٢ رقم ٣٠٠٦ من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت مرفوعاً، والترمذي في: السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء في إنظار المعسر والرفق به ٣/ ٥٩٩ برقم ١٣٠٦ من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقَّب عليه قائلاً: «وفي الباب عن أبي اليسر، وأبي قتادة، وحذيفة، وابن مسعود، وعبادة، وجابر، وحديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه في: السنن: كتاب الصدقات: باب إنظار المعسر ٢/ ٨٠٨ رقم ٢٤١٩ من حديث أبي اليسر مرفوعاً بلفظ: «من أحبَّ أن يظلَّه الله في ظلِّه فلينظر معسراً، أو ليضع له»، والدارمي في: السنن: كتاب البيوع: باب فيمن أنظر معسراً ٢/ ٢٦١ من حديث ربعي أبي اليسر، وأبي قتادة به، وبنحوه عند أحمد في المسند ٢/ ٥٣٩ من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وهذا هو سرُّ تأكيد الشارع الحكيم على صلاحية البيت، ونقاء المجتمع من كلِّ صور الشرِّ والفساد كما سبقت الإشارة إلى ذلك غير مرة.

٦ـ التلذذ بأكل الحرام:

وقد يكون التلذذ بأكل الحرام سبباً قوياً من أسباب الوقوع فيه، ذلك أن المرء إذا تلذذ بشيء أقبل عليه واقترفه غير مبال بآثاره، وعواقبه كما هو حال كثير من العصاة لا يبالون ما يدخل بطونهم، ولا ما يضعون فوق أجسادهم، ولا ما ينفقون على أهليهم وأولادهم، بل يجدون أعظم اللذة، وأتم السرور في ذلك.

٧ـ الفقر والمسكنة:

وقد تكون الحاجة الشديدة المتمثلة في الفقر، أو الحاجة البسيطة المتمثلة في المسكنة من بين أسباب الوقوع في أكل الحرام، ذلك أن المحتاج يعمل جاهداً على سدِّ حاجته، وقد لا يتاح له هذا من طريق حلال، وحينئذ يلجأ إلى الحرام والعياذ بالله ـ ويستمر في ذلك إلى غير رجعة إلا أن تدركه عناية الله ورحمته.

٨ـ الخوف على مستقبل الأهل والأولاد:

وقد يكون الخوف على مستقبل الأهل والأولاد دافعاً إلى أكل الحرام، ذلك أن المرء إذا كان غير مؤمن بالله، أو كان مؤمناً ولكن إيمانه ضعيف يُشغل بمستقبل الأهل والأولاد، ويظن أن أمن هذا المستقبل مرهون بكثرة المال، فيعمل لذلك غير مبالٍ بالعواقب والآثار، بينما أرشد رب العزة إلى طريق تأمين مستقبل هؤلاء بقوله تعالى:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٩ ﴾ (النساء).

٩ ـ تيسير سبيل أكل الحرام وتذليل كل العقبات من طريقه :

وهذا هو المشاهد اليوم: إذ بيوت الربا، وسبيل الغش والخداع والرشوة ونحوها، ملقاة على قارعة الطريق لمن شاء أو أحب، بينما هناك صعوبة، وصعوبة بالغة في الحصول على الكسب الحلال، لذا يُقبل نفر كثير من الناس على أكل الحرام لسهولة الحصول عليه وليس الأمر كذلك في أكل الحلال.

١٠ ـ الرغبة في الظهور بمظهر الوجهاء الأغنياء :

وقد تكون الرغبة في الظهور بمظهر الوجهاء والأغنياء، مع عدم تيسير ذلك إلا عن طريق الكسب الحرام من بين أسباب الوقوع في أكل الحرام، وهذا حال كثير من الناس اليوم، يتصورون أن تقدير الناس لهم إنما يكون عن طريق الغنى واليسار، والوجاهة، وليس بمقدورهم، الوصول إلى ذلك إلا عن طريق الكسب الحرام، فيقعون فيه ـ والعياذ بالله ـ غير مبالين بعواقبه ونتائجه.

١١ ـ اعتقاد أن كسب الحرام مهارة من المهارات :

وقد يعتقد نفر من الناس أن كسب الحرام إحدى المهارات الحياتية التي لا يُسْتَغْنى عنها، وبسبب هذا الاعتقاد يعمل جاهداً على أكل الحرام، سيَّما إذا رأى تقديراً وتشجيعاً من المحيطين به في هذا الأمر، كما هو حال نفر من الناس في كلِّ العصور، وسائر البيئات.

١٢ ـ ضعف الرقابة البشرية :

وقد يكون ضعف الرقابة البشرية المتمثل في السؤال عن مصدر الكسب، والتأكد من صحة هذا المصدر ، ثم المحاسبة وتوقيع العقوبات اللازمة من الحدود أو التعازير ونحوها من بين الأسباب المؤدية إلى أكل الحرام، وقد قيل : «المال السايب يُعلِّم السرقة».

لذا كانت الرقابة البشرية جزءاً من صلاح الفرد والجماعة، حيث يقول رب العزة سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١) .

وكان النبي ﷺ يحاسب عماله، ويجازي كلاً بما يستحق، وحسبنا هذا الحديث : عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال :

استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يُقال له ابن الأتبية (اللُّتبيَّة) على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، قال: «فهلاً جلس في بيت أبيه، أو بيت أمِّه، فينظر يُهدى له أم لا، والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدٌ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر»، ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرة إبطيه: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت ـ ثلاثاً»[1] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الهبة وفضلها : باب مَنْ لم يقبل الهديَّة لعلة ٣/ ٢٠٩ ، وكتاب الحيل : باب احتيال العامل ليهدىٰ له ٩/ ١٣٦ وكتاب الأحكام : باب هدايا العمال : وباب محاسبة الإمام عُمّاله ٩/ ٨٨ ، ٩٥ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب =

١٣ ـ عدم المبالاة بحلٍ أو حرمةٍ :

وقد يكون عدم المبالاة بحلٍ أو حرمة من بين أسباب الوقوع في أكل الحرام، ذلك أن المرء إذا تبلد حسه، وماتت عاطفته أصبح لا يبالي بحلٍ أو حرمة ويصير كل همِّه وتوجهاته: إشباع لذائذه الشخصية بكل الأساليب والوسائل الممكنة، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ حين قال:

«يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ: أمن الحلال أم من الحرام»[(١)] .

إلى غير ذلك من الأسباب والبواعث.

رابعاً : العواقب والآثار المترتبة على أكل الحرام :

هناك عواقب ضارة وآثار مهلكة تترتب على أكل الحرام سواء على العاملين أم على العمل الإسلامي، ودونك بعض هذه الآثار والعواقب:

=الإمارة: باب تحريم هدايا العمال ٣/ ١٤٦٣ـ١٤٦٥ رقم ١٨٣٢ / ٢٦ـ٢٩، وأبو داود في: السنن: كتاب الخراج، والإمارة، والفيء: باب في هدايا العمال ٣/ ٣٥٤ـ٣٥٥ رقم ٢٩٤٦، والدارمي في: السنن: كتاب الزكاة: باب ما يُهدى لعمال الصدقة لمن هو؟ ١/ ٣٩٤، وأحمد في: المسند ٥/ ٤٢٣ـ٤٢٤ كلهم من حديث أبي حميد الأنصاري الساعدي مرفوعاً، واللفظ للبخاري في بعض رواياته.

(١) الحديث أورده المنذري في: الترغيب والترهيب: كتاب البيوع وغيرها: باب الترغيب في طلب الحلال، والأكل منه، والترهيب من اكتساب الحرام وأكله، ولبسه، ونحو ذلك ٢/ ٥٠٤ رقم ٩٦١ [المنتقى من الترغيب والترهيب للدكتور يوسف القرضاوي]، وعزاه ـ أي المنذري ـ إلى البخاري والنسائي قائلاً: «رواه البخاري والنسائي، وزاد رزين فيه: «فإن ذاك لا تُجاب لهم دعوة»، والحديث من مسند أبي هريرة.

أ ـ على العاملين :

وهي كثيرة ، نذكر منها :

١ ـ مرض القلب بل موته.. الأمر الذي يفضي إلى النَّار :

ذلك أن القلب يصيبه المرض بالمعاصي والسيئات حتىٰ إذا استمرت هذه المعاصي والسيئات ، ولم تنته بعد كان موت هذا القلب ، وأكل الحرام من أكبر المعاصي والسيئات .

وقد مرَّ معنا شرح أحوال القلب من حين يصيبه المرض بأول ذنب أو معصية حتىٰ يموت بسبب الاستمرار والمواظبة علىٰ المعاصي والسيئات ، من الغين ، إلىٰ الغيم ، إلىٰ الرَّان ، إلىٰ القفل ، إلىٰ الختم والطبع .

وإذا مرض القلب بل مات انصرف عن رسالته وهي توجيه الجوارح لأداء الرسالة التي كُلِّف بها صاحب هذا القلب ، إلىٰ توجيهه ناحية الشرِّ والفساد ، فيعيش آكل الحرام غارقاً في المعاصي من مفرق رأسه إلىٰ أخمص قدميه حتىٰ يموت ، ويكون مصيره وعاقبته : النار وبئس دار القرار ـ والعياذ بالله ـ .

وقد لفت النبي ﷺ النظر إلىٰ ذلك بقوله : **«يا كعب بن عجرة: إنَّه لايدخل الجنَّة لحمٌ نبت من سُحتٍ النَّار أولى به»**[1] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٣/ ٣٢١ ، ٣٩٩ من حديث جابر بن عبدالله مرفوعاً علىٰ أنه من حديث طويل ، والترمذي في : السنن : كتاب الصلاة : باب ما ذكر في الصلاة ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣ رقم ٦١٤ من حديث كعب بن عجرة مرفوعاً بلفظ : **«يا كعب بن عجرة إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»** ، وعقَّب عليه بقوله : «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، لا نعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسىٰ» ، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على الترمذي .

ووعىٰ المسلمون الأوائل ذلك فامتنعوا عن أكل الحرام، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان لأبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبوبكر، فقال له الغلام: أتدري ماهذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تكهَّنتُ لإنسان في الجاهلية، وما أُحسن الكهانة إلا أنّي خدعته، فلقيني فأعطاني لذلك هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه»[1].

٢ ـ القلق والاضطراب النفسي:

ذلك أن أكل الحرام يسوِّد القلب، ويفسده ـ كما مضىٰ ـ، وهذا بدوره يؤدي إلىٰ القلق والاضطراب النفسي.

وحسبنا قوله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فيمن يأكلون الربا:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥).

٣ ـ عدم قبول الدعاء:

ذلك أنَّ أكل الحرام يجر صاحبه ـ كما تقدم ـ إلىٰ سيل من المعاصي والسيئات، ولاشك أن هذا مما يحول بين العبد وبين قبول الدعاء:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب مناقب الأنصار: باب أيام الجاهلية ٥/ ٥٣ ـ ٥٤ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذا اللفظ.

«إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ (المؤمنون)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٢) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمُدُّ يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟»[1] .

٤ ـ الكوارث التي تذهب بكل خير:

ذلك أن أكَلَة الحرام قد ينزل بهم من الكوارث، والبلايا ما يكون سبباً في ذهاب كلِّ خير، وحسبنا قوله سبحانه في أكلة الربا:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٦) ، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٩) ، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ (الشورى) .

٥ ـ القعود عن أداء الواجبات، والانصراف إلى المعاصي والسيئات:

ذلك أن أكلَ الحرام يثقل بصاحبه عن أداء الواجبات، ويقوده إلى

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، وتربيتها ٢/ ٧٠٣ رقم ١٠١٥ / ٦٥، والترمذي في: السنن: كتاب تفسير القرآن: سورة البقرة ٥/ ٢٠٥ رقم ٢٩٨٩، والدارمي في: السنن: كتاب الرِّقاق: باب في أكل الطيب ٢/ ٣٠٠، وأحمد في: المسند ٢/ ٣٢٨ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه .

المعاصي، والسيئات، ومَنْ قعد عن أداء واجبه وانطلق يكرع من المعاصي والسيئات فقد خسر إنسانيته، وتحول إلىٰ حيوان وربما أدنىٰ من الحيوان

ب - على العمل الإسلامي:

وهي كثيرة أيضاً، نذكر منها:

١ - ضعف الإنتاج وتوقف التنمية:

وهذا أمر بَدَهي في عملٍ كلٌّ من أفراده ميِّت القلب، قلق النفس، مضطرب الأعصاب، قاعد عن أداء واجبه، منصرف إلىٰ المعاصي والسيئات تحيط به الكوارث، وتلاحقه المصائب من كلٍّ ناحية، لا يقبل الله منه دعاء، ولا يجيب له طلباً، لأنه ماضٍ في أكْلِ الحرام لا يرجع عنه.

٢ - طول الطريق وكثرة التكاليف:

وضعف الإنتاج وتوقف التنمية يؤدي بدوره إلىٰ أن تطول الطريق، وتكثر التكاليف، ويتأخر النصر، وتبقىٰ الحياة مرتعاً للظالمين، والجبارين ينشرون في الأرض الفساد، ويهلكون الحرث، والنَّسل، ويعبثون بالقيم العليا، والمبادئ السَّامية، ويتحمل آكلو الحرام إثم ذلك كله، وجُرْمَه، وصدق الله العظيم الذي يقول:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ (الروم).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ (الأعراف) .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ .

(يونس : ٢٧) .

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾ (الأعراف) .

خامساً : علاج أكل الحرام بل الوقاية منه :

وإذ انتهينا من معرفة ماهية أكل الحرام، وأهم صوره، وموقف الإسلام منه، والأسباب والبواعث المؤدية إليه، وآثاره، وعواقبه على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، فإنه يسهل علينا رسم طريق العلاج بل الوقاية من أكل الحرام، وذلك باتباع هذه الخطوات :

١ - الفقه الصحيح لنظام المعاملات المالي في الإسلام مضموناً ومغزى:

كأنَّ الخطوة الأولى لعلاج أكل الحرام، بل الوقاية منه، إنما تكمن في : الفقه الصحيح لنظام المعاملات المالي في الإسلام مضموناً ومغزى من : أنَّ أصل المكاسب الإباحة إلا ما ورد النص بتحريمه لقوله ﷺ :

«ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، وتلا: ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾»[1] .

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم في : المستدرك : كتاب التفسير : باب منه ٢/ ٣٧٥ من حديث رجاء ابن حيوة، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب بقوله : =

ومن حرمة أكل مال الغير ظلماً وعدواناً في أيِّ صورة من صوره: كالربا، والغصب، والاختلاس، والاحتكار، وبيع الرجل على بيع أخيه من غير ترك الأول أو إذنه، والنجش، والغش، والرشوة، وغيرها، لقوله تعالى:

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ (البقرة).

وقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء: ٢٩).

ولقوله ﷺ:

«كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه» (١).

وقوله ﷺ في حجة الوداع:

=«هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأقره الذهبي في: التلخيص، وأورده الهيثمي في: مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد: كتاب العلم: باب ثان منه في اتباع الكتاب والسنة، ومعرفة الحلال من الحرام ١/ ١٧١ من حديث أبي الدرداء مرفوعاً بهذا اللفظ وعقب عليه بقوله: «رواه البزّار والطبراني في الكبير، وإسناده حسن ورجاله موثّقون»، وكتاب التفسير: سورة مريم عليها السلام ٧/ ٥٥ من حديث أبي الدرداء مرفوعاً، وعقب عليه بقوله: «رواه البزّار، ورجاله ثقات»، وأورده الألباني في: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ص ١٤ ـ ١٥ وعقب عليه بقوله: «حسن»، وعلل لتحسينه بسبب رجاء بن حيوة.

(١) الحديث جزء حديث طويل تقدم تخريجه في: آفة: «سوء الظن».

«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا...»[1].

ومن أنّه لابدَّ أن تكون السلعة معلومةً غير مجهولة، ومقدوراً على تسليمها وسبب البداية بهذه الخطوة: تمييز الحلال من الحرام، بل المشتبه فيه ومعرفة عقوبة أكل الحرام، وأجر أكل الحلال ليهلك مَنْ هلك عن بيِّنة، ويحيا من حَيَّ عن بيِّنةٍ، وقد تقدم حديث: **«مَنْ يُرِد الله به خيراً يُفَقِّهُهُ في الدين...»**، وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لا يبع في سوقنا إلا مَنْ قد تَفقَّه في الدين»[2].

يقول الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على قول عمر بن الخطاب: «نعم.. حتى يعرف ما يأخذ، وما يدع، وحتى يعرف الحلال والحرام، ولا يفسد على الناس بيعهم، وشراءهم بالأباطيل، والأكاذيب، وحتى لايدخل الربا عليهم من أبواب قد لا يعرفها المشتري، وبالجملة: لتكون التجارة تجارةً إسلامية صحيحة خالصة، يطمئن إليها المسلم، وغير المسلم لا غش فيها، ولا خداع»[3].

---

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٧ من حديث ابن عباس، وأبي بكرة، وابن عمر مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه، ومسلم في: الصحيح: كتاب الحج: باب حجة النبي ﷺ ٢/ ٨٨٦ ـ ٨٩٢ رقم ١٤٧ / ١٢١٨ من حديث جابر بن عبدالله مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ ٢/ ٣٥٧ رقم ٤٨٧ من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً عليه بهذا اللفظ، وقال الترمذي عقيبه: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) انظر: تعليقه على سنن الترمذي: كتاب الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ ٢/ ٣٥٧.

٢ ـ تربية ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ :

وذلك بالمعايشة الطويلة لآيات الله في كونه المسطور [القرآن الكريم] وآياته في كونه المنظور [النفس والكون] ، فإن ذلك يقوِّي الإيمان بالله ، ومراقبته ـ سبحانه ـ عباده في السرِّ والعلن ، قال تعالى :

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ (الذاريات) .

وقال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ (فصلت) .

وقال تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: ٤) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) ﴾ (آل عمران) .

وقال تعالى :

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ (غافر) .

وعن أبي ذر : جندب بن جنادة ـ، وأبي عبدالرحمن : معاذ بن جبل ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«اتق الله حيثما كنت... » الحديث [1] .

وهكذا لو قَويتْ ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في النفس فإنها تساعد على ترك أكل الحرام، بل توقيه حياءً، وخجلاً منه ـ سبحانه وتعالى ـ.

٣ـ توفير الضروريّات الحياتية للناس :

ذلك أن هناك ضروريات حياتية لا يعيش الناس بدونها، وهي التي وعدها الله آدم ـ عليه السلام ـ حين أسكنه الجنَّة في قوله :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) ﴾ (طه) .

ولابدَّ من توفير هذه الضروريات للجميع، فتُقطع الطريق على الشيطان، ذلك الذي لاهمَّ له إلا إغراء الإنسان، وحمله على ارتكاب المعاصي، وأولها أكل الحرام، بدليل تحذير رب العزَّة سبحانه من ذلك عقب أمر الناس بأكل الحلال في قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب البر : باب ما جاء في معاشرة الناس ٤/ ٣١٢ـ ٣١٣ رقم ١٩٨٧ من حديث أبي ذر مرفوعاً بهذا اللفظ، وقال : «هذا حديث حسن صحيح»، ومن حديث مُعاذ بن جبل مرفوعاً بنحوه، وقال محمود بن غيلان : «والصحيح حديث أبي ذر»، والدارميُّ في : السنن : كتاب الرقاق : باب في حسن الخلق ٢/ ٣٢٣ من حديث أبي ذر مرفوعاً بهذا اللفظ، وأحمد في : المسند ٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٦٩ من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به، وبنحوه ٢٢٨، ٢٣٦ من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً بنحوه.

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ (البقرة).

وتوفير هذه الضروريات مسؤوليات السلطان أولاً، يعني: الدولة، ومسؤولية المجتمع يعني (الشعب) ثانياً، لاسيَّما أهل الغنى واليسار بتوفير ميادين العمل الحلال الشريف لمن تأهل له، ومؤسسات التعليم والتدريب لمن لم يتأهل له، وهذا جانب استثماري، وسدُّ الحاجات الضرورية الآنية، وهذا جانب استهلاكي.

وفي حديث أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - ما يُرشد إلى شيء من ذلك، إذ يقول:

سألتُ النبيَّ ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله، وجهاد في سبيله»، قلتُ: فأي الرِّقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها»، قلتُ: فإن لم أفعل، قال: «تُعين صانعاً، أو تصنع لأخرق[1]»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشرِّ، فإنها صدقة تصدَّق بها على نفسك»[2].

كما جاء في الحديث عنه ﷺ بضمانه الحاجات الضرورية لمن فقدها، فقال:

---

(١) الأخرق: الجاهل بما يجب أن يعمله، ولم يكن في يديه صنعة يكتسب بها، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٩٠.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب العتق وفضله: باب أي الرقاب أفضل ٣/ ١٨٨ - ١٨٩، وابن ماجه في: السنن: كتاب العتق: باب العتق ٢/ ٨٤٣ رقم ٢٥٢٣، وأحمد في: المسند ٥/ ١٥٠، ١٧١، ٢٦٥، كلهم من حديث أبي ذر مرفوعاً به وبنحوه، وهو عند أحمد أيضاً ٢/ ٣٨٨ من حديث أبي هريرة بنحوه.

«مَنْ كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً،فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً» (١) .

٤ ـ الاقتصاد في النفقة :

ذلك أن الاقتصاد في النفقة يحمي المرء من الوقوع في غوائل الدَّين، وبالتالي الوقوع في الكسب الحرام، وقد أمر الشارع بذلك فقال سبحانه :

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** (٦٧) ﴾ (الفرقان) .

وقال :

﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (٣١) ﴾ .

(الأعراف).

وقال :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** (٨٧) ﴾ (المائدة) .

وقال ﷺ :

« ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنٍ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في : السُّنن : كتاب الخراج والإمارة والفيء ٣/ ٣٥٤ رقم ٢٩٤٥ من حديث المستورد بن شداد مرفوعاً بهذا اللفظ ، وعقب بقوله : (قال : قال أبو بكر : أُخبرتُ أن النبي ﷺ قال : **«مَنْ اتخذ غير ذلك فهو غالٌ أو سارق»**) .

صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه»(١) .

وكان من دعائه ﷺ : « **اللهم ارزق آل محمد قوتاً** » (٢) .

إلىٰ غير ذلك من الأخبار، والآثار التي مضىٰ الحديث عنها في «آفة الإسراف».

٥ ـ الانسلاخ من صحبة أَكَلَةِ الحرام مع الحرص على صحبة آكلي الطيبات:

ذلك أن المرء علىٰ دين خليله كما سبق في غير ما موضع من هذه الآفات، وعليه فإن مَنْ يريد التخلص من الحرام عليه أن ينسلخ من صحبة أولئك الذين يُعْرَفون بأكل الحرام، ويحرص علىٰ سلوك السبيل إلىٰ البديل، ألا وهو صحبة آكلي الحلال، عند ذلك يخف الضغط النفسي، ويقضي علىٰ أكل الحرام، بل تكون هناك حصانة أو وقاية منه، وعلىٰ ذلك يتنزل الحديث الشريف:

« **لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي..**» الحديث(٣) .

٦ ـ دوام النظر في سير وأخبار الماضين المعروفين بالحرص على أكل الحلال:

من أمثال ما قصَّه علينا نبينا محمد ﷺ في خبر بني إسرائيل، إذ قال:

(١ و ٢) الحديثان سبق تخريجهما في آفة: «الإسراف».

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يؤمر أن يجالس ٥/ ١٦٧ ـ ١٦٨ رقم ٤٨٣٢، والترمذي في: السنن: كتاب الزهد: باب صحبة المؤمن ٤/ ٥١٩ رقم ٢٣٩٥ كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب عليه الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن، إنما نعرفه من هذا الوجه».

« اشترىٰ رجل من رجل عقاراً له، فوجد الرجل الذي اشترىٰ العقار في عقاره جرَّةً فيها ذهب، فقال له الذي اشترىٰ العقار: خذ ذهبك منِّي، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلىٰ رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه، وتصدَّقا» (١).

وما جاء عن عمر - رضي الله عنه - أنَّه قسَّم مُرُوطاً بين نساءٍ من نساء المدينة، فبقي مِرْطٌ جيِّد، قال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين اعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت عليٍّ - فقال عمر: أمُّ سَليطٍ أحقُّ، وأمُّ سَليط من نساء الأنصار مِمَّن بايع رسول الله ﷺ - قال عمر: فإنها كانت تَزفِرُ لنا القرب يوم أُحد، قال أبو عبدالله: تزفر: تخيط(٢).

وما جاء عن نساء العصر الأول: أن المرأة كانت تقول لزوجها إذا غدا ليقتات لها، ولولده، ولذويه: «يا فلان.. اتق الله فينا، فإنَّا نصبر علىٰ الجوع، ولا نصبر علىٰ النار».

وتقدم ما أُثر عن الصِّديق أبي بكر - رضي الله عنه - في هذا الشأن.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الأنبياء: باب منه ٤/ ٢١٢ من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الجهاد: باب حمل النساء القِرَب إلىٰ الناس في الغزو ٤/ ٤٠ - ٤١، وكتاب المغازي: غزوة أحد: باب ذكر أم سليط ٥/ ١٢٧ - ١٢٨ كلاهما من حديث ثعلبة بن أبي مالك - رضي الله عنه - بهذا اللفظ، والمرط: كساء من صوف، وربَّما كان من خزٍّ أو كتَّان أو غيره يُؤتَزَر، وتتلفع به المرأة جمع مُرُوط، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٩٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٦٤ بتصرف.

وهذا حسن الهضيبي يطلب منه بعض ولده أوراقاً يسوِّد فيها بعض دروسه، وأمامه أوراق كثيرة جلبها من دار القضاء لتسويد القضايا، ثم تبييضها، فيأبىٰ إلا أن يعطيهم مالاً ليشتروا به حاجتهم، فيقولون له: كيف يكون ذلك، والأوراق أمامنا؟ فيجيبهم: إن هذه ليست ملكاً لنا، وإنما هي أمانة عندنا لا يحل الانتفاع بها إلا في مسائل القضاء.

هذه الأخبار والسيَّر: منتهىٰ الخشية من الله - عزَّ وجلَّ - والتقوىٰ والورع، والوقوف عليها يساعدالمرء أن يتطهر من أكل الحرام بل الوقاية منه.

٧ - ضرورة أن تكون الأسرة قدوة في تعاطي الحلال :

ذلك أن المرء إذا نشأ في بيت حريص علىٰ أكل الحلال تأثر بذلك، ونشأ عليه، فتكون هذه حماية ووقاية له، وهذا ما يريده الشارع الحكيم من وراء أن يكون بناء البيت علىٰ أساس التقوىٰ أو الدين، كما تقدمت الأحاديث والأخبار بذلك.

٨ - تحصين وتأمين مستقبل الأولاد بالتقوى :

ذلك أن تقوىٰ الله بتوحيده، وترك المعاصي، والسيئات، والإقبال علىٰ الطاعات، تكون سبباً في تحصين وتأمين مستقبل كريم للأولاد، وليس أكل الحرام، كما قال سبحانه وتعالىٰ :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) ﴾ (النساء).

٩ ـ التحرر من الرغبة في الظهور بمظهر الوجهاء والأغنياء :

ذلك أن التحرر من الرغبة في الظهور بمظهر الوجهاء، والأغنياء، يُعفي المرء من الحرص على أكل الحرام، وحيازة المال الكثير، بدعوى أن هذا من أسباب احترام الناس وتقديرهم، ناسياً أو متناسياً أن التقدير إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (الحجرات) .

١٠ ـ إحياء الرقابة البشرية من الحاكم ومن الأمة على السواء :

ذلك أن إحياء الرقابة البشرية من الحاكم والأمة على السواء يمنع من أكل الحرام، بل يحصن منه، قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (التوبة : ٧١) .

ولفعل الرسول ﷺ، حيث كان يحاسب عمّاله وينتزع منهم مَنْ ليس لهم كما تقدم في قصة ابن اللُّتبيَّة الأزدي، حين قال : «هذا لكم، وهذا أُهْدِي لي»، وكذلك كان عمر يحاسب عماله اقتداءً، وتأسِّياً بالنبي ﷺ، وكذلك كان المسلمون الأولون .

١١ ـ الصبر على الجوع والفقر :

ذلك أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لحكمة يعلمها هو، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ (العنكبوت: ٦٢)

وقد كشف عن جانب من هذه الحكمة في قوله سبحانه:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الشورى).

وواجب العبد حين يُضيَّق عليه ربه بعد أخذه بالأسباب التي بمقدوره أن يقوم بها: أن يصبر موقناً أن صبره على الجوع والفقر أحسن ألف مرَّةٍ، ومرّةٍ من أكل الحرام لعواقبه وآثاره التي مضى الحديث عنها آنفاً.

١٢ - إغلاق كل الأبواب المؤدية إلى الحرام مع إيجاد البدائل الحلال:

ومن الضروري كذلك في علاج أكل الحرام، بل الوقاية منه: إغلاق كل الأبواب المؤدية إلى الحرام من بيوت الربا، ودور البغاء، وحانات الخمور، ومصانع التماثيل، وبيع الكلاب والخنازير، ونحوها، مع إيجاد البدائل الحلال من بيوت التمويل، والمصارف، والمؤسسات، والمتاجر، والمصانع المقامة على الالتزام بمبادئ شرع الله الحنيف، وقد طمأن الله الناس إذا فعلوا ذلك بقوله:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (التوبة).

١٣ - الحث على العمل وترك القعود:

ذلك أن مواصلة العمل، وترك القعود مما يوفِّر للمرء قدراً من الحلال

يغنيه عن التطلع إلى الحرام، ولنا في سير الأنبياء والمرسلين الأسوة والقدوة، حيث كانوا جميعاً أصحاب حرف ومهن، ومن أجمعها رعي الغنم، على أن النبي ﷺ لم يقبل من أحدٍ قادر على العمل والكسب أن يرقد ولا يعمل، وحسبنا هذا الحديث :

« والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي به، فيحمله على ظهره، فيأكل، خيرٌ له من أن يسأل الناس، ولأن يأخذ تراباً فيجعله في فيه خيرٌ له من أن يجعل في فيه ما حرَّم الله عليه» (١) .

١٤ ـ التذكير الدائم بعواقب أكل الحرام :

ذلك أن الإنسان قد ينسى لسبب أو لآخر، عواقب أكل الحرام، وخير علاج لذلك هو دوام التذكير بعواقب أكل الحرام، قال تعالى :

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ (الذاريات) .

وقال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ (الأعلى) .

* * *

---

(١) الحديث أورده المنذري في : الترغيب والترهيب: كتاب البيوع وغيرها: باب الترغيب في طلب الحلال [٢/ ٥٠٣ رقم ٩٥٩ المنتقى للدكتور يوسف القرضاوي] من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وعقب بقوله: «رواه أحمد بإسناد جيد» .

الآفة الرابعة والثلاثون

الخوف

الآفة الرابعة والثلاثون

الخوف

والآفة الرابعة والثلاثون التي قعدتْ بكثير من المسلمين عن أداء دورهم وواجبهم في الشهادة على العالمين، الأمر الذي أدَّىٰ إلىٰ عواقب وخيمة وآثار خطيرة ليس في حياة المسلمين وحدهم، بل في حياة البشرية جميعاً، إنما هي: «الخوف».

وكي يتحرر منها مَنْ ابتلي بها، ويتوقها مَنْ سلَّمهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من المهامِّ في مقدمتها: التعرف علىٰ أبعاد ومعالم هذه الآفة علىٰ النحو التالي:

أولاً: ماهية الخوف لغةً واصطلاحاً:

أ ـ لغة: يأتي الخوف لغة علىٰ معانٍ منها:

١ ـ الفَزَع، تقول: خاف من كذا: فَزِعَ، وأخافَهُ الأمرَ: فزَّعهُ منه.

٢ ـ توقع حلول مكروه أو فوت محبوب، تقول: خَافَ: خَوْفاً، ومخافةً، وخِيفةً: توقع حلول مكروه، أو فوت محبوب(١).

(١) انظر: القاموس المحيط ٣/ ٢٠٤، المعجم الوسيط: ١/ ٢٦٢، الصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٢٩٢ بتصرف.

ولا تعارض، إذ توقع حلول مكروه أو فوت محبوب يؤدي إلى الفزع والاضطراب غالباً .

ب - اصطلاحاً : اختلفتْ ألفاظ العلماء في تعريف الخوف مع اتفاقهم على معناه، وإليك هذه الألفاظ :

١ - يقول أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) : «الخوف : تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل [١] .

٢ - ويقول أبو القاسم الجنيد: «الخوف : توقع العقوبة على مجاري الأنفاس»[٢] أي إذا صرفتْ في غير ذكر الله .

٣ - ويقول آخرون : «الخوف : انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب » [٣] .

٤ - ويقول الكفوي : «الخوف : غمٌّ يلحق لتوقع المكروه، وكذا الهم، وأمَّا الحزن فهو غمٌّ يلحق مِنْ فوات نافع، أو حصول ضار»[٤] .

ولعل أكثر هذه التعاريف دقة وقبولاً : تعريف الغزالي والكفوي، إذ هما الموافقان لما في كتاب الله في مواطن كثيرة، ومنها هذا الموطن، وهو قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٤ / ١٥٥ ط التجارية الكبرى - مصر .

(٢) انظر : مدارج السَّالكين لابن القيِّم : ١ / ٥١١ .

(٣) الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط ١ / ٢٦٢ .

(٤) الكليات : ص ٤٢٨ .

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾ (البقرة) .

قال في : أنوار التنزيل : «الخوف على المتوقع ، والحزن على الواقع»[١] .

جـ ـ علاقة الخوف بالخشية والرهبة، والوجل، والهيبة:

يرى ابن القيِّم : أن هذه الألفاظ متقاربة بالمعنى ، ولكنَّها غير مترادفة ويفرق بينها بقوله :

(والخشية : أخص من الخوف ، فإنَّ الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨) .

فهي خوف مقرون بمعرفة ، وقال النبي ﷺ :

«إني أتقاكم لله وأشدكُم له خشية») .

فالخوف : حركة ، والخشية : انجماع ، وانقباض ، وسكون ، فإن الذي يرى العدوَّ ، والسيل ، ونحو ذلك له حالتان : إحداهما حركة للهرب منه وهي حالة : الخوف ، والثانية : سكونه ، وقراره في مكان لا يصل إليه فيه ، وهي الخشية ، ومنه انخشَّ الشيء ، والمضاعف ، والمعتل إخوان كتقضي البازي ، وتقضض .

وأمَّا الرهبة ، فهي : الإمعان في الهرب من المكروه ، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

وأما الوجل : فرجفان القلب : وانصداعه لذكر مَنْ يخاف سلطانه ، وعقوبته أو لرؤيته .

---

(١) انظر : أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل للبيضاوي : ١/ ١٤٥ .

وأما الهيبة: فخوف مقارن للتعظيم، والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبِّين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم، والمعرفة يكون الخوف والخشية»[1].

ثانياً: مظاهر الخوف وموقف الشارع منه:

هناك مظاهر كثيرة دالَّة على الخوف سواء من الخالق أم من المخلوق:

أ- مظاهر الخوف من الخالق:

أمَّا مظاهر الخوف من الخالق فكثيرة نذكر منها:

١ - عدم انتهاك محارم الله لاسيَّما في الخلوة، والبعد عن الناس.

٢ - المبادرة بالتوبة النصوح عند الوقوع في الذنب.

٣ - المبادرة بتنفيذ حكم الله، ولو كانت المتاعب والمشقات.

٤ - القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حدود الطاقة والوسع.

٥ - استمرار الالتزام بمنهج الله إلى الممات، إلى غير ذلك من المظاهر.

ب- مظاهر الخوف من المخلوق:

وأمَّا مظاهر الخوف من المخلوق فكثيرة أيضاً نذكر منها:

---

(١) انظر: مدارج السالكين ١/ ٥١٢-٥١٣.

١ ـ طاعة المخلوق في معصية الخالق إلىٰ حدٍّ التفاني في مرضاة هذا المخلوق ولو مع الذلِّ والهوان .

٢ ـ القعود عن القيام بواجب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣ ـ تتبع عورات المسلمين ، والتجسس عليهم بلا مبرر ولا موجب .

٤ ـ ترك التعاون مع العاملين لدين الله ، وإن كان هذا التعاون لم يتجاوز تهذيب النفس ، وتقويمها ، وإعدادها لتقوم بواجبها في الأرض .

٥ ـ الوشاية بالعاملين لدين الله لدىٰ خصومهم تنفيذاً لأمر هؤلاء الخصوم أو مجاملة لهم ومحاباة ، إلىٰ غير ذلك من المظاهر .

جـ ـ موقف الشارع الحكيم من الخوف :

لما كان الخوف دائراً بين أن يكون من الخالق أو من المخلوق اختلف موقف الشارع منه .

فما كان من الخالق بصورة تحجز عن محارم الله ، وتحمل على الطاعة ، والتوبة النصوح عند المعصية ، وتنفيذ حكم الله ، وإن خالف هوىٰ النفس ، وكذلك القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستمرار الالتزام بمنهج الله إلىٰ الممات .

ما كان من الخالق بهذه الصورة فمحمود ، وممدوح ، دعا إليه الشارع صراحةً ، وضمناً ، بأسلوب مباشر وغير مباشر .

قال تعالىٰ :

﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ (آل عمران) .

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ (النحل) .

وقال تعالى :

﴿ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ (المائدة : ٣) .

وقال تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ (الرحمن) .

وقال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) ﴾ (النازعات) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) ﴾ (الإنسان) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ (المؤمنون) .

عن عائشة ـ زوج النبي ﷺ ـ قالتْ : سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قالتْ عائشة : هم الذين يشربون الخمر ، ويسرقون؟ قال : «لا يا بنت الصدِّيق ، ولكنَّهم الذين يصومون ، ويصلُّون ، ويتصدَّقون ، وهم يخافون ألا يُقبل منهم ، أولئك الذين يُسارعون في الخيرات» (١) .

وما كان منه بصورة تحمل على اليأس والقنوط من رحمة الله أو القعود عن أداء الواجب ، والتفريط في الرسالة فمذموم ، مقبوح .

قال تعالىٰ :

﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ (يوسف) .

وقال تعالىٰ :

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ (الحجر) .

وقال تعالىٰ :

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب التفسير : باب ومن سورة المؤمنون ٥/ ٣٠٦ـ٣٠٧ رقم ٣١٧٥ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب التوقي على العمل ٢/ ١٤٠٤ رقم ٤١٩٨ كلاهما من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً ، واللفظ للترمذي .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر) .

وما كان من المخلوق بصورة تقعد عن أداء الواجب أو التطاول على الحرمات بغير مشقة ولا إكراه فمذموم مقبوح كذلك ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ (آل عمران) .

وقال تعالى :

﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب : ٣٧) .

وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ (الأحزاب) .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ (طه) .

وقال تعالى :

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ (التوبة) .

وقال تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ (النحل) .

ثالثاً: أسباب وبواعث الخوف:

وللخوف المذموم أسباب تؤدي إليه، وبواعث توقع فيه نذكر منها:

١ - العيش في وسط يسيطر عليه الخوف:

ذلك أن المرء إذا نشأ وشبَّ في وسط يسيطر عليه الخوف لاسيَّما من المخلوقين: سرت إليه عدوىٰ هذا الوسط، وتأثر به وحاكاه أعمّ من أن يكون هذا الوسط قريباً كالبيت، أم بعيداً كالمجتمع والأصدقاء والأقران.

وقد كان ﷺ مضرب الأمثال في الشجاعة في بيته وخارج بيته، اقتلاعاً لهذا السبب من النفوس، وإشاعة للأمن والرخاء.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً - وقد سبقهم إلى الصوت - وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»، قال: «وجدناه بحراً، أو إنَّه لبحرٌ»، قال: وكان فرساً يُبَطَّأُ[1]

---

(١) الحديث أخرجه البخاري: في الصحيح: كتاب الجهاد: باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق ٤/ ٤٧، وكتاب الأدب: باب حُسْنُ الخُلق والسخاء وما يُكره من البخل ٨/ ١٦، ومسلم في: الصحيح: كتاب الفضائل: باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدُّمه للحرب ٤/ ١٨٠٢ - ١٨٠٣، رقم ٢٣٠٧ / ٤٨ - ٤٩، والترمذي في: السنن: كتاب الجهاد: باب ما جاء في الخروج عند الفزع ٤/ ١٧٢ رقم ١٦٨٧، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الجهاد: باب الخروج في النفير ٢/ ٩٢٦ رقم ٢٧٧٢، وأحمد في: المسند ٣/ ١٤٧، ١٨٥، =

٢ ـ الأذى النفسي والبدني ولاسيما إذا كان بصورة لا تطاق :

وقد يكون الأذى البدني والنفسي ولاسيَّما إذا كان بصورة لا تطاق من بين الأسباب والبواعث التي تدعو للوقوع في الخوف.

ذلك أن المرء إذا لقي من الآخرين إيذاءً لا يُطاق بدنياً كان أم نفسياً: لزمه الرعب، والخوف، والفزع لاسيَّما إذا كان في أول حياته وتنقصه المعرفة الحقَّة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يداوي ذلك بالدعوة إلى تأمين الآخرين، وعدم إيذائهم أو ترويعهم في أيِّ صورة من صور الإيذاء والترويع.

إذ يقول ﷺ:

«مَنْ أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه، وأمِّه» (١).

يقول الإمام النووي ـ رحمه الله ـ تعليقاً على ذلك:

« فيه تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن ترويعه، وتخويفه، والتعرض له بما قد يؤذيه، وقوله ﷺ: **«وإن كان أخاه لأبيه وأمِّه»**: مبالغة

= ٢٧١ كلهم من حديث أنس بن مالك مرفوعاً بهذا اللفظ، وبمثله، وبنحوه، وعقَّب على حديثه بقوله: «هذا حديث صحيح».

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ، والصلة، والآداب: باب النهي عن الإشارة بالسِّلاح إلى مسلم ٤/ ٢٠٢٠ رقم ٢٦١٦ / ١٢٥، والترمذي في: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في إشارة المسلم إلى أخيه بالسِّلاح ٤/ ٤٠٣ رقم ٢٦١٢ كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً واللفظ لمسلم، وعقب عليه الترمذي بقوله: «وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه...».

في إيضاح عموم النهي في كلٍّ أحد سواء مَنْ يتهم فيه، ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعباً أم لا، لأن ترويع المسلم حرام بكل حال، ولأنَّـه قد يسبقه السِّلاح كما صرح به في الرواية الأخرىٰ، ولعن الملائكة له يدل علىٰ أنه حرام»[1].

ويقول ﷺ:

«لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعباً أو جاداً، فمَنْ أخذ عصا أخيه فليردَّها إليه»[2].

وعن عبدالرحمن بن أبي ليلىٰ قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلىٰ حبل معه، فأخذه، ففزع، فقال رسول الله ﷺ:

«لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً»[3].

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صلَّى صلاة الصبح فهو في ذمَّة الله، فلا يطلبنَّكم الله مِنْ

---

(1) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ٣٨٥ م٨.

(2) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يأخذ الشيء على المزاح ٥/ ٢٧٣ رقم ٥٠٠٣، والترمذي في: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً ٤/ ٤٠٢ رقم ٢١٦٠ كلاهما من حديث يزيد بن السائب مرفوعاً، واللفظ للترمذي، وعقب بقوله: «وهذا حديث حسن غريب».

(3) الحديث أخرجه أبو داوُد في: السُّنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يأخذ الشيء على المزاح ٥/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ رقم ٥٠٠٤ من حديث عبدالرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أصحاب النبيِّ ﷺ مرفوعاً بهذا اللفظ.

ذمَّتـه بشيء فإنَّـه مَـنْ يطلبه مِنْ ذمَّـتـه بشيء يدركه، ثم يكبُّـه على وجهه في نار جهنم» [1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**... كل المسلم على المسلم حرام دَمُـه، ومالُـهُ، وعِرْضُـه**» [2].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع، فكان مما قال:

«**فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقـون ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...**» الحديث [3].

ومرَّ هشام بن حكيم بن حزام بالشَّام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصُبَّ على رؤوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟ قيل: يعذَّبون في الخراج، فقال: أما أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذِّب الذين يُعذِّبون في الدنيا**» [4] إلى غير ذلك من الأساليب.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب فضل صلاة العشاء، والصبح في جماعة ١/ ٤٥٤-٤٥٥ رقم ٦٥٧/ ٢٦٢ من حديث جندب بن عبدالله القسْري مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢ و٣) الحديثان سبق تخريجهما.

(٤) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب الوعيد الشديد لمن عذَّب الناس بغير حق ٤/ ٢٠١٧-٢٠١٨ رقم ٢٦١٣/ ١١٧-١١٩ بهذا الإسناد، وبهذا اللفظ.

٣- الوقوف على كلِّ ما يخيف ويؤذي :

وقد يكون الوقوف على كلِّ ما يخيف ويؤذي إنْ بالمشاهدة ، وإنْ بالقراءة، وإنْ بالسَّماع من بين الأسباب التي تؤدي إلى الخوف، والبواعث التي توقع فيه، لاسيَّما إذا كان هذا الواقف ممن نشأ في بيئة ناعمة مترفة لم تتمرس على خشونة العيش، ولم تألف قسوة الحياة، لذا كان من اللائق عدم الاطلاع على ذلك، إلا بعد تأديب النفس وتعويدها الصبر والتحمل، ومعاناة الحياة.

ويمكن أن يستشف هذا السبب، وذلك الباعث من خلال ما طلبه الشارع من حضور طائفة من المؤمنين إقامة الحدِّ على الزُّناة ليكون ذلك تخويفاً وزجراً لهم أن يأتوا مثل هذا العالم، وإلا حلَّ بهم من العقاب مثل ما حلَّ بهؤلاء الزناة، قال تعالى :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ (النور) .

وقد جاء عنه ﷺ الدواء الشافي لمثل هذا السبب ، إذ يروي ابن إسحاق فيقول :

ولما افتتح رسول الله ﷺ القموص : حِصْن بني أبي الحقيق أتى رسول الله ﷺ بصفية ابنة حُيَيٍّ بن أخطب وبأخرى معها ، فمرَّ بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى مِنْ قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكَّتْ وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال :

«اغربوا[1] عنِّي هذه الشيطانة»، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقىٰ عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، فقال رسول الله ﷺ لبلال - فيما بلغني - حين رأىٰ بتلك اليهودية ما رأىٰ: «أنزعتْ منك الرحمة يا بلال حين تمرُّ بامرأتين علىٰ قتلىٰ رجالهما»[2].

٤ - عدم المعرفة بالله بصورة تؤدي إلى التعدي على الحدود، وانتهاك الحرمات:

وقد يكون عدم المعرفة بالله من أنَّه: الموصوف بكلِّ كمال، المنزَّه عن كلِّ نقص، الذي لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض، ولا في السَّماء، القاهر فوق عباده، العزيز، الجبار، المتكبر، الجامع الناس ليوم لا ريب فيه، المجازي كلاً بالسوء سوءاً، وبالإحسان إحساناً، الأمر الذي يؤدي إلىٰ تعدي حدوده، وانتهاك حرماته.

قد يكون ذلك من بين الأسباب والبواعث التي تجعل المرء يأمن مكر الخالق ومَنْ يأمن مكر الخالق يعاقبه الله بالخوف من المخلوق.

وقد أشار ربُّ العزَّة إلىٰ ذلك بقوله سبحانه:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الحشر).

وقال تعالىٰ:

---

(١) اغربوا: ابعدوا، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (غرب).

(٢) الخبر أخرجه ابن سعد في: الطبقات الكبرىٰ ٨/ ١٢٠، وتاريخ الملوك والأمم المعروف بتاريخ الطبري ٣/ ١٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٣٢ بهذا اللفظ وبنحوه.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه : ١٢٤) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ (الجن) .

وأيُّ ضنك أو عذاب أشد من الخوف من المخلوقين وخشيتهم بصورة يكون معها الخضوع، والاستسلام، والذل، والخنوع؟

وقال تعالىٰ :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾ (البقرة) .

٥ - شيوع الظلم وتلاشي العدل :

وقد يكون شيوع الظلم في أيٍّ صورة من الصور، وتلاشي العدل من بين الأسباب والبواعث التي توقع في الخوف، ذلك أنه إذا ضرب الظلم بأطنابه، وألقىٰ بجرانه بين الناس، وغاب أو تلاشىٰ العدل بصورة تؤيس المظلوم أن يصل إلىٰ حقه : فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرء يعيش في رعب وفي فزع خشية أن تصيبه نار هذا الظلم، ولا يجد من ينصفه أو يقف بجواره لينال حقَّه علىٰ النحو المعاش في البلدان التي يسودها الحكم الشمولي أو الفردي، والتي لا تقيم للإنسان وزناً، ولا تعترف له بأيٍّ حق من الحقوق .

٦ - غياب القوانين والدساتير التي يقع عليها عبء إنسانية الإنسان بل بناؤها على غير ما وُضعتْ له :

وقد يكون غياب القوانين والدساتير التي يقع عليها عبء الاحتفاظ للإنسان بإنسانيته، بل بناؤها على غير ما وضعتْ له من بين الأسباب التي تؤدي إلى الخوف، وتوقع فيه، ذلك أن الشأن في القوانين والدساتير، أنها موضوعة لرعاية مصالح الإنسان فرداً كان أم جماعة.

فكيف تكون الحال لو غابتْ ، أو وُجدتْ ولكنَّها أقيمتْ على أساس الجور لا العدل، والمحاباة والمجاملة لا الإنصاف والموضوعية؟

لا جواب عن ذلك سوى شيوع الخوف، والرعب ، والفزع.

ومن هنا دعا ربُّ العزَّة الخلق إلى تحكيم كتابه، والعمل به، وإن لحقهم من المشقات والتعب ما لحقهم، إذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة: ٤٨).

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ (المائدة).

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى: ١٠).

ويقول تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام: ١١٤).

٧. التوبة من بعد الإسراف على النفس وظن عدم القبول والمغفرة:

وقد تكون التوبة من بعد الإسراف على النفس، وظنُّ عدم القبول والمغفرة من بين الأسباب والبواعث التي تؤدي إلى الخوف وتوقع فيه.

ذلك أن العبد إذا أسرف على نفسه في المعصية، ثم وفقه الله إلى التوبة، وظل شبح الذنب يلاحقه ربَّما ظن عدم القبول والمغفرة، فخاف وأصابه الرعب والفزع، وقد طمأن الله مثل هذا الصنف من الناس بقوله سبحانه:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر).

وبقوله:

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ (الفرقان).

٨. توقع الفقر مع عدم الثقة بما عند الله:

وقد يكون توقع الفقر لكثرة الولد، أو لذهاب وجاهةٍ، أو فَقْدُ وظيفة أو نحو ذلك، مع عدم الثقة بما عند الله من بين الأسباب أو البواعث التي توقع في الخوف، وتؤدي إليه.

ذلك أن المرء إذا عاش متوقعاً الفقر في أيٍّ من الأحوال المذكورة آنفاً أو غيرها مع عدم ثقته بما عند الله التي لا تفنى خزائنه، ولا ينسى خَلْقَهُ، وإن كانوا كفاراً، حيث يقول:

﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ (البقرة: ١٢٦).

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ (لقمان: ٢٤).

إذا عاش المرء على هذا التوقع انتهتْ به الحال إلى الوقوع في الخوف من المخلوق، والرعب، والفزع.

وقد لفت النبيُّ ﷺ النظر إلى هذا السَّبب فيما رواه عنه يعلى العامريُّ إذ قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبيِّ ﷺ فضمَّهما إليه، وقال:

« إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ »(١).

٩ - التعرض بَغْتَةً لموقف مخيف:

وقد يكون التعرض لموقف مخيف من بين الأسباب أو البواعث التي توقع في الخوف باستمرار، وتؤدي إليه على الدوام.

ذلك أنَّ المرءَ قد يتعرض لموقف مفاجئ لم يكن يتوقعه، وربما يكون هذا الموقف عنيفاً أو شديداً، ولا يتمكن هذا المرء من تحمُّله، وتكون العاقبة الوقوع في الخوف على الدوام، وأغلب مرضى النفس أو الأعصاب ضحايا هذا السبب أو هذا الباعث.

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في: السُّنن: كتاب الأدب: باب برِّ الوالد، والإحسان إلى البنات ٢/ ١٢٠٩ رقم ٣٦٦٦، وأحمد في: المسند ٤/ ١٧٢ كلاهما من حديث يعلى العامريِّ مرفوعاً بهذا اللفظ، وأورده البوصيري في: مصباح الزجاجة ٤/ ٩٩ بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

١٠ ـ إحاطة المتكبِّرين أنفسهم بهالة من القوة التي لا تُقهر، والجبروت الذي لا يُقاوم:

وقد يكون إحاطة المتكبِّرين أنفسهم بهالة من القوَّة التي لا تُقهر، والجبروت الذي لا يُقاوم من بين الأسباب التي توقع في الخوف وتؤدي إليه، علىٰ نحو ما زعم النمرود بن كنعان في قوله:

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وعلىٰ نحو ما زعم فرعون في قوله لأهل مصر:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ (النازعات).

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص: ٣٨).

وعلىٰ نحو ما أشيع عن التتر: «مَنْ حدَّثك أن التتر قد هزموا فلا تصدِّق».

وعلىٰ نحو ما يُشيعه الإسرائيليون: يهود، وصهاينة عن أنفسهم: أنهم الشعب الذي لا يُقهر والقوَّة التي لا تُهزم، وهكذا.

ووقت المجابهة الحقيقية تتمزق هذه الهالة، ويسفر الصبح لذي عينين، فقد أُخِذ النمرود ببعوضة، وأهلك فرعون وملؤه بالغرق، وهزم التتر في عين جالوت، وانكشفتْ إسرائيل علىٰ حقيقتها في حرب رمضان ١٣٩٣هـ أكتوبر ١٩٧٣م، وعلىٰ يد أطفال الحجارة الذين بدأوا انتفاضتهم المباركة عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، وفي المستنقع اللبناني اليوم، بل مِنْ قبل أمام المجاهدين من أبناء الحركة الإسلامية في فلسطين عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م، وهلم جرا.

١١ - وعيد الجبارين الشديد، وتهديدهم المستمر:

وقد يكون وعيد الجبارين الشديد، وتهديدهم المستمر من بين الأسباب والبواعث التي توقع في الخوف وتؤدي إليه.

ذلك أنَّه إذا عرف عن جبار أنه لا يرقب في أحد إلاً ولا ذمَّة حتى لو كان من أقرب المقربين إليه، وأطلق هذا الجبار وعيده الشديد، وتهديده المستمر: هابه الناس، وخافوه، ورُوِّعوا منه، وفزعوا، إلا مَنْ رحم الله، على نحو ما سمعنا، ونسمع عن بعض جبابرة أهل الأرض، ولعله يكون من بين هؤلاء مَنْ ينتسب إلى الإسلام، ويدَّعي الانتماء إلى العروبة، ويزعم أنَّه حامي الأوطان، صائن الحرمات، والمقدسات، على نحو ما قال فرعون قديماً لما أبلغه موسى عليه السَّلام دعوة الحق من ربِّ العالمين:

﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ (غافر).

وعلى نحو ما أطلقه زعماء وقادة في العصر الحاضر مِنْ وصف مَنْ يقولون: ربنا الله ويدعون إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة: أنهم رجعيُّون، ومتخلفون، ولا علاج لهذا الصنف من الناس إلا بالتصفية والاستئصال، ثم انقلب ينفِّذ ما هدَّد به وتوعَّد.

١٢ - عدم تقدير عواقب الخوف:

وقد يكون عدم تقدير عواقب الخوف المذموم يعني من المخلوق: الفردية والجماعية، العاجلة والآجلة، من بين الأسباب والبواعث التي توقع في الخوف، وتؤدي إليه، ذلك أن المرء إذا جهل العواقب المدمِّرة، والآثار المهلكة لأمرٍ مَّا فإنه قد يقع فيه من حيث لا يدري ولا يشعر.

رابعاً : آثار الخوف، وعواقبه :

وللخوف المذموم آثار مُهلكة ، وعواقب خطيرة على العاملين، وعلى العمل الإسلامي ، ودونك طرفاً من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ - على العاملين :

فمن آثار وعواقب الخوف على العاملين :

١ - التوتر العصبي والاضطراب النفسي :

ذلك أن مَنْ أمِنَ الخالِق ، وخاف المخلوق عرَّض نفسه لعقاب الله في الدنيا والآخرة ، ومن أبرز صور هذا العقاب في الدنيا : التوتر العصبي ، والاضطراب النفسي .

وقد أشار ربُّ العزَّة إلى هذا الأثر بقوله سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ (طه) .

وقوله سبحانه :

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ (الجن) .

٢ـ السَّعيُ الجاد لإرضاء المخلوق وإن كان في ذلك معصية الخالق، الأمر الذي يوجب غضب الله وسخطه :

ذلك أن مَنْ خاف المخلوق ونسي الخالق سعىٰ بجدِّية لإرضاء هذا المخلوق الذي يخافه، وإن كان في ذلك معصية الخالق، فتراه يذل نفسه، ويمتهن آدميته، ويضرب بالقيم العليا والمبادئ السَّامية عرض الحائط لا لشيءٍ إلا ليُرضي مَنْ يخافه، ويوم تصل الأمور إلىٰ هذا الحدِّ يكون غضب الله، وسخطه، ومَنْ يُصيبه غضب الله وسخطه فقد خسر خسراناً مبيناً، وصدق الله الذي يقول:

﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ (طه).

٣ـ القعود عن أداء الواجبات إلى حدُّ السكوت على المنكرات :

ذلك أن مَنْ خاف المخلوق، وأمن الخالق يقعد عن أداء الواجبات إلىٰ حدٍّ أنه يرىٰ المنكرات مُلقاة علىٰ قارعة الطريق، فلا ينكر ولو بالقلب، إيثاراً للعافية والسلامة بزعمه، ويوم تتفشىٰ المنكرات، ولا تجد مَنْ ينكر أو يغيِّر كصورة من صور القعود عن أداء الواجبات يكون الهلاك والبوار علىٰ نحو ما قال الحقُّ تبارك وتعالىٰ:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾.

(البقرة: ٢٥٢).

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

وعلىٰ نحو ما تقدم في الحديث من قوله ﷺ :

« إذا رأيتَ أمَّتي لا يقولون للظالم منهم : أنت ظالم، فقد تُودع منهم»[1] .

٤ ـ إيذاء أصحاب الأيدي المتوضئة بصورة أو بأخرى :

ذلك أن الخوف من المخلوق قد ينتهي بصاحبه إلىٰ ما تقدم ، وربَّما تسول له نفسه إيذاء أصحاب الأيدي المتوضئة بصورة أو بأخرىٰ ، لئلا يشعر بتأنيب النفس ، ووخز الضمير ، إذ كان ضمن هذا الصنف الكريم من البشر ، ولخوفه من مخلوق ضعيف مثله انفضَّ عنه ، وانقلب يؤذيه بكل ما يستطيع ، هذا من ناحية ، وإرضاءً لمن يخافه من البشر من ناحية أخرىٰ ، وإلا ناله نصيب أكبر من العذاب .

٥ ـ اليأس والقنوط :

ذلك أن استمرار الخوف من المخلوق مع عدم وجود بارقة أمل أو انفراج ينتهي بالمرء إلىٰ اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمته ، وهذه قاصمة الظهر التي يسعىٰ الأعداء أن تصل الأمة المسلمة أفراداً وجماعات إليها ، وحينئذٍ يكون الخنوع والاستسلام لهؤلاء الأعداء يخططون ما يشاءون ، وينفِّذون ما يريدون علىٰ النحو الذي تقدم في آفة اليأس والقنوط .

٦ ـ الإقدام على التخلص من الأولاد، وربَّما التخلص كذلك من الحياة :

ذلك أنَّ توقُّعَ الخوف من كثرة الأولاد ، أو ذهاب الوجاهة ، أو فقد

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

الوظيفة ، أو نحو ذلك مع عدم الثقة بالله قد يحمل على محاولة التخلص من الأولاد بالقتل بل ربَّما التخلص من الحياة بطريقة أو بأخرى ، وقد أشار ربُّ العزَّة إلى ذلك بقوله :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .
(الأنعام : ١٥١) .

وقوله :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .
(الإسراء : ٣١) .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) ﴾ (النساء) .

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال :

سألتُ رسول الله ﷺ : أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال : « أن تجعل لله نِداً وهو خلَقك » ، قال : قلتُ له : إن ذلك لعظيم ، قال : قلتُ : ثم أيٌّ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » ، قال : قلتُ : ثم أيٌّ ، قال : « أنْ تُزاني حليلة جارك »[1] .

ب ـ على العمل الإسلامي :

ومن آثار وعواقب الخوف على العمل الإسلامي :

(١) الحديث سبق تخريجه .

١ - القطيعة والفرقـة :

ذلك أن الخـوف من المخلـوق جـرّ نفـراً مـن الأمة إلىٰ الآثـار التي مضـتْ آنفاً، ولاشك أن عاقبة هذا هي الكراهية، والعـداوة، والقطيعة والفرقة، تلك التي حذَّرنا منها ربُّ العزَّة في أكثر من موضع من كتابــه، ومنها قوله:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ (الأنعام).

٢ - طول الطريق وكثرة التكاليف :

إذ ثمرة الفرقة المرَّة هي: تمكُّن الأعداء من رقاب الأمة وسيطرتهم علىٰ كل شيء فيها، ونشرهم لباطلهم، ومبادئهم الهدامة، ومنها التربص بأهل الحقّ، وتصفيتهم أو علىٰ الأقل محاصرتهم، والتضييق عليهم، وحينئذ تطول الطريق، وتكثر التكاليف.

آثار الخوف المحمود، وعواقبـه :

ولا بأس من الإشارة إلىٰ آثار الخوف المحمود، ألا وهو الخوف المعتدل من الله - عزَّ وجلَّ - وهي كثيرة، نذكر منها:

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الخوف المحمود على العاملين :

١ ـ مراقبة الله في السرِّ والعلن بصورة تحمل على عدم انتهاك حرمات الله لاسيَّما في الخلوة، والغياب عن أعين الناس، فيكون الأمن والأمان.

٢ ـ المبادرة بالتوبة النصوح عند اقتراف الذنب والوقوع في الخطأ.

٣ ـ السعي نحو تنفيذ حكم الله قدر المستطاع من غير مبالاة بالمشاقِّ والمتاعب.

٤ ـ القيام بواجب الدعوة والبلاغ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالأسلوب الملائم، والوسيلة المناسبة مع التضحية وبذل أقصى ما في الطاقة والوسع.

٥ ـ محبة المؤمنين، والارتباط الشديد بهم، ومؤازرتهم في كلِّ ما يقصدون.

٦ ـ الزهد في الدنيا، إذ يقول ﷺ :

«لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى»[1].

---

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الكسوف : باب الصدقة في الكسوف ٢ / ٦١٥ رقم ١٠٤٤ من حديث عائشة مرفوعاً بهذا اللفظ إلى قوله : «ولبكيتم كثيراً»، وكتاب التفسير : سورة المائدة: باب لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تَسؤكم ٨/ ١٣٠ رقم ٤٦٢١ من حديث أنس مرفوعاً بهذا اللفظ الأول، وكتاب النكاح : باب الغيرة ٩/ ٢٣٠ رقم ٥٢٢١ من حديث عائشة مرفوعاً بهذا اللفظ الأول مع زيادة في أوله، وكتاب الرقاق : باب قول النبي ﷺ : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، =

٧ ـ دوام الالتزام بمنهج الله من غير تبديل أو تفريط حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، إلى غير ذلك من الآثار.

ب ـ على العمل الإسلامي:

ومن آثار الخوف المحمود على العمل الإسلامي:

١ ـ النموُّ كمّاً وكيفاً:

ذلك أنَّه إذا كان الخوفُ من الله يدفع كلاً من العاملين إلى التحلِّي بالآثار التي ذكرتْ آنفاً، فإن الأثر الرئيس الذي ينعكس على العمل الإسلامي إنما هو نُموّه كمّاً ـ يعني زيادة عدد هؤلاء العاملين ـ وكيفاً ـ يعني: تمكُّنهم من الأداء على أحسن وَجْهٍ، وأتمّه، وأخلصِهِ، مع الترابط والوحدة.

٢ ـ قصر الطريق وقلة التكاليف:

وحين ينمو العمل الإسلامي كمّاً، وكيفاً على هذا النحو، فإنه يمكَّن له، ويؤتي ثماره وأكله من أقصر طريق، وبأقل التكاليف:

=ولبكيتم كثيراً» ١١/ ٣٢٦ رقم ٦٤٨٥ من حديث أبي هريرة، ورقم ٦٤٨٦ من حديث أنس [فتح الباري]، ومسلم في: الصحيح: كتاب الكسوف: باب منه ٦/ ١٩٨ ـ ٢٠١ من حديث عائشة مرفوعاً [شرح النووي]، وابن ماجه في: السنن: كتاب الزهد: باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٢ رقم ٤١٩٠ من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ المتن كاملاً مع زيادة في أوله، ورقم ٤١٩١ من حديث أنس مرفوعاً بلفظ البخاري ومسلم، والدارمي في: السنن: كتاب الرقاق: باب لو تعلمون ما أعلم ٢/ ٣٠٦ من طريقين عن أنس مرفوعاً بلفظ البخاري ومسلم، وأحمد في: المسند ٢/ ٢٥٧، ٣١٢ ـ ٣١٣، ٤١٨، ٤٥٣، ٤٦٧، ٤٧٧، من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ (الروم) .

خامساً : علاج الخوف المذموم والوقاية منه :

وإذ قد تصورنا : ماهية الخوف ، ومظاهره ، والمحمود منه ، والمذموم ، وأسبابه ، وآثاره ، وعواقبه على العاملين وعلى العمل الإسلامي ، فإنه يسهل تصور طريق علاج الخوف المذموم ، والوقاية منه ، في هذه الخطوات :

١ . معرفة الله حق المعرفة :

ذلك أن العبد إذا عرف ربَّه حقَّ المعرفة من : أنَّه مالك الملك ، بيده نواصي العباد ، يؤتي المُلك مَنْ يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويُعزّ من يشاء ، ويذل من يشاء ، وهو على كل شيء قدير .

إذا عرف العبد ذلك كله ، خاف الله وحده ، دون أحد من خلقه ، بل خوَّف الله كل من أراد إذلاله وإخافته ، إذ وعد سبحانه بحماية عباده المؤمنين في قوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾ (الحج) .

وفي قوله : ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾ (إبراهيم) .

٢ . انتزاع النفس من الأوساط التي يسيطر عليها الخوف إلى أوساط شجاعة جريئة :

ذلك أن انتزاع المرء نفسه من الأوساط التي يسيطر عليها الخوف إلىٰ أوساط شجاعة جريئة من شأنه أن يغرس في النفس الشجاعة والجرأة شيئاً فشيئاً، حتىٰ يبلغ الكتاب أجله، ويصبح المرء متحرراً من خوف مخلوق مثله، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن يملك ذلك لغيره، بل قد يصير خائفاً من الله وحده، وهذا هو الفوز المبين.

٣ . رفع كل صور الأذى البدني، والنفسي عن الناس :

ذلك أنَّ رَفْعَ كلِّ صور الأذىٰ البدني، والنفسي عن الناس من شأنه أن يجعل الناس يتنفسون الصعداء، ويعيشون آمنين مطمئنين، لاسيَّما إذا ربطوا أنفسهم برسالتهم، ودورهم في الأرض بحيث ينطلقون يؤدون هذه الرسالة، وهذا الدور.

وقد تقدمت الأحاديث التي فيها النهي عن ترويع، وتعذيب عباد الله في أي صورة من صور التعذيب والترويع.

٤ . عدم الوقوف على أحوال المعذَّبين إلا بعد الحصانة من الخوف:

ذلك أن عدم الوقوف علىٰ أحوال المعذَّبين: مشاهدةً أو سماعاً، أو قراءةً في بداية التربية والبناء من شأنه أن يعطي الفرصة للنفس أن تتحصَّن من خوف المخلوق، ولا تخاف إلا من الخالق علىٰ النحو الذي حدث للنبي ﷺ حين أخبر ورقة بن نوفل بما حدث له في غار حراء أول مرَّة، فرد عليه ورقة بعد أن تأكد له أن الله اختاره للنبوة والرسالة، وأن إنساناً بلغ هذا المستوىٰ لم

يَعُد يخاف إلا من الله العزيز الحكيم ، قائلاً : « يا ليتني فيها جذعاً أكون حيّاً حين يخرجك قَوْمُك » ، فقال رسول الله ﷺ : «أومُخرجيَّ هُمْ؟» فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يدركني يومُكَ أنصُرْكَ نصراً مؤزَّراً » (١) .

وقد مرَّ معنا لومه بلال بن رباح حين مرَّ بصفية ، وامرأة معها على قتلى خيبر ، لأن ذلك مما يلقي الرعب في القلوب ، ويزرع الخوف في النفوس ، ويجعلها غير صالحة بالمرَّة لأداء دورها ورسالتها في الأرض .

٥ . نشر العدل بين الناس مع محاربة الظلم بكلُ أشكاله وصوره :

ذلك أن نشر العدل بين النَّاس ، مع محاربة الظلم في كلِّ أشكاله وصوره ، من شأنه أن يقضي غالباً على خوف المرء من المخلوقين ، ويجعله يمشي على الأرض آمناً ، مطمئناً أنّه لن يُعتدى عليه ، وإن اعتَدى عليه أحد فهناك من يأخذ له حقَّه ، ويرد عليه مظلمته .

ولذا كانت دعوته سبحانه إلى العدل ، ومقاومة الظلم ذات حجم واسع وكبير في القرآن الكريم ، والسنة النبوية .

إذ يقول سبحانه :

---

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ في : الصحيح : كتاب بدء الوحي : باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ٣ ـ ٤ وكتاب التفسير : سورة «اقرأ باسم ربك الذي خلق ٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥ ، وكتاب التعبير : باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٧/ ٣٧ـ٣٨ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بدء الوحي ١/ ١٣٩ كلاهما من حديث عائشة مرفوعاً به .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ (النحل) .

ويقول :

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ (الشورىٰ)

ويقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ (النساء) .

ويقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ (المائدة) .

ويقول :

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .

ويقـول ﷺ : «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله: إمامٌ عادل..**» الحديث[1] .

وقد لفت النبيُّ ﷺ النظر إلى هذه الخطوة العلاجية في قوله :

« **لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور مَنْ لا يعرف غيره، ثم**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأذان : باب مَنْ جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد ١/ ١٦٨ ، وكتاب الزكاة : باب الصدقة باليمين ٢/ ١٣٨ ، وكتاب الرقاق : باب البكاء من خشية الله ٨/ ١٢٥ ، ١٢٦ ، وكتاب الحدود : باب فضل مَنْ ترك الفواحش ٨/ ٢٠٣ من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ في الروايتين : الأولى والثانية ، ومقتصراً على صنف البكائين في الرواية الثالثة ، وبتقديم بعض هذه الأصناف على بعض في الرواية الأخيرة ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الزكاة : باب فضل إخفاء الصدقة ٢/ ٧١٥ ، ٧١٦ رقم ٩١ من حديث أبي هريرة بالقطع على تقديم اليمين على الشمال في التخفيّ بالصدقة ، ومن حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة على الشك ، والترمذي في : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء في الحبِّ في الله ٤/ ٥٩٨ـ٥٩٩ رقم ٢٣٩١ من حديث أبي هريرة أو أبي سعيد ، وعقَّب عليه قائلاً : «هذا حديث حسن صحيح» ، وهكذا روي هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا وشك فيه ، وقال : عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد ، وعبيدالله بن عمر ، رواه عن حبيب بن عبدالرحمن ، ولم يشك فيه ، يقول عن أبي هريرة .

والنسائي في : السنن : كتاب آداب القضاة : باب الإمام العادل ٨/ ٢٢٢ـ٢٢٣ من حديث أبي هريرة بمثل رواية البخاري الأخيرة .

ومالك في : الموطأ : باب ما جاء في المتحابين في الله ص ٦٧٩ رقم ١٧٣٣ من حديث أبي سعيد ، أو أبي هريرة بمثل رواية البخاري الأخيرة .

وأحمد في : المسند ٢/ ٤٣٩ من حديث أبي هريرة ، مع تقديم صنف : الذي ذكر الله خالياً ، ففاضتْ عيناه على : الذي تصدَّق بصدقة فأخفاها .

يأتي الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل مَنْ لا يعرف غيره»[1].

ولا يتمُّ العدل إلا بتطبيق منهج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه وحده المنهج المبنيُّ على الإنصاف وعدم الجور، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة).

٦ـ اليقين التام: أن الخَلْقَ مهما بلغتْ قوتهم وإمكاناتهم فإنهم أقل وأعجز من أن يصنعوا بالمرء شيئاً إلا بإذن الله:

وقد دعا إلى ذلك ربُّ العزَّة سبحانه في قوله في كتابه:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (التغابن: ١١).

وفي قوله ﷺ لابن عباس:

«... واعلم أن الأمة لو اجتمعت أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك...»[2].

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٥/ ٢٦ ـ ٢٧ من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث جزء حديث طويل أخرجه الترمذيُّ في: السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٥/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ رقم ٢٥١٦ من حديث ابن عباس مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب عليه الترمذيُّ بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

وها هم سحرة فرعون يشهدون آية موسى عليه الصلاة والسلام فيوقنون صدقها، ويخرون للأذقان سجداً قائلين:

﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه).

ويتوعدهم فرعون قائلاً:

﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ (طه).

ويردون عليه في طمأنينة وثبات قائلين:

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ (طه).

٧- دوام النّظر في سِيَر مَنْ أُثِرَ عنهم عدم الخوف إلا من الله وحده:

ذلك أن دوام النظر في سِيَر هذا الصنف من الناس - وما أكثرهم سواء في هذه الأمة أم في غيرها من الأمم - يُوَلِّد في النفس معنى الاقتداء، والتأسِّي، أو على الأقل التشبه والمحاكاة.

هذا عبدالله بن الزبير يمر به عمر بن الخطاب، وهو صبي يلعب مع الصبيان فيفر الصبيان خوفاً من عمر، وهو واقف مكانه لم يفر، فقال له عمر: مالك لم تفر مع أصحابك؟

فقال: يا أمير المؤمنين لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيِّقة فأوسع لك(١).

وهذا عطاء بن أبي رباح يدخل على عبدالملك بن مروان ـ وهو جالس على سريره وحوله الأشراف من كلِّ بطن، وذلك بمكة في وقت حجَّه في خلافته ـ فلما بصر به عبدالملك قام إليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنَّك بهم جلستَ هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتَفَقَّدْ أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال له: أجل، أفعل، ثم نهض، وقام، فقبض عبدالملك عليه، وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا عن حاجة لغيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف(٢).

وهذا الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ينكر على الملك الصالح إسماعيل تسليمه: صَفَدَ، والثقيف إلى الفرنج، ويؤيده في ذلك الشيخ أبو عمرو بن الحاجب الأصولي، الفقيه، المالكي، فيُخرجهما الملك الصالح إسماعيل من بلده، فيسير أبو عمرو إلى الناصر داوُد صاحب الكرك فيكرمه، ويسير ابن عبدالسلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر، فيكرمه ويوليه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق(٣).

---

(١) انظر: عبد الله بن الزبير العائذ ببيت الله الحرام لماجد لحام، ص ٣٢.
(٢) انظر: الدعوة إلى الله للدكتور توفيق الواعي، ص ٣٢١ـ٣٢٢.
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٢٣٥ـ٢٣٦.

وهذا الإمام النووي يطلب منه الملك الظاهر بيبرس مع غيره من العلماء أن يفتوا بجواز أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فيكتب له بعض الفقهاء بجواز ذلك، ويمتنع آخرون، ومنهم الإمام النووي، فيطلبه الظاهر، ويقول له: اكتب بخطك مع الفقهاء فيمتنع، ويقول: لا، فيقول له الظاهر: ما سبب امتناعك؟ فيقول:

«أنا أعرف أنك كنت في الرِّقِّ للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم مَنَّ الله عليك، وجعلك ملكاً، وسمعتُ أن عندك ألف مملوك كلهم عنده حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الحليِّ، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيتْ مماليكك بالبنود الصوف، بدلاً عن الحياصات الذهب، وبقيت الجواري بثيابهنَّ دون الحليِّ، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع، أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية، وإنما يُستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار نبيِّه ﷺ» (١).

فيغضب السلطان من كلامه، ويقول: اخرج من بلدي - يعني: دمشق - فيقول: السمع والطاعة، ويخرج إلى بلدة أبيه مسقط رأسه ومنشئه: نوى، فقيل للملك: ما سبب عدم قتلك له؟ فقال:

«كلما أردتُ قتله أرى على عاتقه: سَبُعَيْنِ يُريدان افتراسي فأمتنع من ذلك» (٢).

وغير هذا كثير في كل العصور، بل وفي عصرنا هذا، وما مواقف الحركة الإسلامية الشجاعة في: الجزائر، وبلاد الشمال الإفريقي، وكشمير، والبوسنة والهرسك، وفلسطين، وغيرها ضد المستعمرين عنا ببعيد.

(١ و٢) انظر: الإمام النووي للشيخ عبد الغني الدقر، ص ١٤٤ - ١٤٥.

٨ . المعايشة الدائمة لكتاب الله وسنة وسيرة نبيِّنا محمد ﷺ :

ذلك أن هذه الخطوة هي أجمع وأشمل الخطوات التي مَضَتْ، إذ الكتاب والسنة يُعرفان العباد بربِّهم حق المعرفة، وحقه عليهم، ويعرفانهم حقيقة أنفسهم، ورسالتهم في الأرض، وسبيل أداء هذه الرسالة، وكذلك عقبات ومعوقات الطريق ، وطريق تجاوز هذه العقبات والمعوِّقات، ويذكران من القصص ما يقوِّي القلب، ويُثبت الفؤاد، كما يذكران من الترغيب والترهيب في الدنيا والآخرة ما يجعل المرء يستصغر كل عطاء، وكل بذل في هذه السبيل .

ولعل في سيرة الرعيل الأول من المسلمين : صحابة، وتابعين، وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ما يؤكد هذه الحقيقة، ويصدق هذا التصور، حيث لم تتجاوز تربيتهم : القرآن، والسنة، والسيرة، فقهاً وتدبراً، وتلاوة وترتيلاً، وعملاً وتطبيقاً، دعوة، وبلاغاً .

* * *

الآفة الخامسة والثلاثون

الظُّلم

الآفة الخامسة والثلاثـون

الظُـلم

والآفة الخامسة والثلاثون التي كانتْ سبباً فيما تعيشه الأمة المسلمة اليوم أفراداً وجماعات من محن، وشدائد، وابتلاءات إنما هي : «الظلم» ، وكي يتخلص منها مَنْ ابتُلي بها، ويتوقاها مَنْ سلَّمهُ الله - عزَّ وجلَّ - منها فإنه لابد من القيام بطائفة من الأعمال والواجبات في مقدمتها الإلمام بأبعاد ومعالم هذه الآفة، وذلك من خلال هذه الجوانب :

أولاً : ماهية الظلم لغةً واصطلاحاً :

لغة : يأتي الظلم وما يشتق منه على معانٍ منها :

١ - الجور أو مجاوزة الحدِّ ، تقول : ظلم فلانٌ فلاناً : جار عليه، أو جاوز الحدَّ معه.

٢ - وضع الشيء في غير موضعه، وفي المثل : «مَنْ أشبه أباه فما ظلم» : ما وضع الشيء في غيز موضعه، وفي المثل أيضاً : « مَنْ استرعى الذئب الغنم فقد ظلم» ، يضرب لمن يوليِّ غير الأمين.

٣ - الغضب والنقص، تقول: ظلم فلاناً حقَّه : غصبه، ونقصه إياه.

٤ - السواد، تقول : ظلمَ الليل ظَلْماً فهو ظليم : اسودَّ، وأظلم الليل اسودَّ كذلك.

٥ ـ التمويه والتزويق، تقول: هذا شيء مُظَلَّم: مموَّه، ومزوَّق بالذهب، والفضة (١).

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، إذ بعضها يعبر عن حقيقة الظلم وهو الأول، والثاني، وبعضها يعبر عن بعض صوره، وهو الثالث، وبعضها يعبِّر عن الحال أو الهيئة التي يخرج بها للناس وهو: الرابع والخامس، وكأنه: جور ومجاوزة للحد، أو وضع الشيء في غير موضعه كالغضب والنقص، ونحو ذلك تارةً بصورة مكشوفة سافرة سوداء، وتارةً بصورة مموَّهة ومزوَّقة بما يشبه الذهب والفضة.

اصطلاحاً: مجاوزة حدود الله في أيِّ صورة من الصور إنْ بالكفر: شركاً أو إلحاداً، وجحوداً، أو إنكاراً لمعلوم من الدين بالضرورة أو استحلالاً لما حرَّم الله، أو تحريماً لما أحلَّ الله ونحوها من صور الكفر وإنْ بما دون ذلك من المعاصي والسيئات كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها، وحسبنا قوله سبحانه:

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: ١).

ثانياً: مظاهر الظلم، وموقف الإسلام منها:

وللظلم مظاهر كثيرة تدل عليه وأمارات واضحةٌ بيِّنة ترشد إليه تقدمتْ الإشارة إليها في التعريف جملة، حيث مضى: أنَّه كفر أو دون الكفر، ونذكر منها:

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٥٦ ـ ٥٧، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٧، الصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٦٩٤ ـ ٦٩٥ مادة: «ظلم» بتصرف كثير.

أ - الشرك في أيٍّ شكل من أشكاله : الكبير والصغير ، الظاهر والباطن ، قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ (الأنعام) .

عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال :

لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ : «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بنيَّ لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم»[1] .

يقول الخطابي - رحمه الله - تعليقاً على الحديث :

« إنما قالتْ الصحابة هذا القول لأنهم اقتضوا من الظلم ظاهره الذي هو الافتيات بحقوق الناس ، أو الظلم الذي ظلموا به أنفسهم من ركوب معصية أو إتيان محرَّم ، كقوله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. ﴾ (آل عمران: ١٣٥) وذلك حقُّ الظاهر فيما كان يصلح له هذا

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب ظلم دون ظلم ١/ ١٥ ، وكتاب الأنبياء : باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً ٤/ ١٧١ - ١٧٢ ، وباب قول الله تعالى : ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ٤/ ١٩٨ ، وكتاب التفسير : سورة الأنعام ٦/ ٧١ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب صدق الإيمان ، وإخلاصه ١/ ٦٤ ، والترمذي في : السنن : كتاب التفسير : سورة الأنعام ٥/ ٢٦٢ ، رقم ٣٠٦٧ ، وأحمد في : المسند ١/ ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤ كلهم من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - مرفوعاً ، وهذا لفظ البخاري في أول إخراجه له ، وعقب الترمذي بقوله : «هذا حديث حسن صحيح» .

الاسم، ويحتمله المعنىٰ عندهم، ولم تكن الآية نزلت بتسمية الشرك ظلماً، وكان الشرك عندهم أعظم من أن يلقَّب بهذا الاسم فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزل قوله: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (لقمان)، فسميَّ الشرك ظلماً، وعظمَّ أمره في الكذب، والافتراء علىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وذلك أن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومَنْ أشرك بالله، وجعل الربوبية مستحقَّةً لغيره، أو عدل به شيئاً، واتخذ معه نِداً، فقد أتىٰ الظلم، ووضع الشيء في غير موضعه ومستقرِّه» (١).

ب ـ ما دون الشرك من المعاصي والسيئات: كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها، وقد ذكر الله في كتابه صوراً لذلك منها:

١ ـ خيانة الرجل في أهله: قال تعالىٰ علىٰ لسان يوسف عليه السلام لما راودته امرأة العزيز عن نفسه، وغلَّقتْ الأبواب، وقالتْ: هيت لك:

﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف).

٢ ـ أَخْذُ غير الجاني مكان الجاني: قال تعالىٰ علىٰ لسان يوسف كذلك لما قال له إخوته:

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يوسف).

---

(١) أنظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي: كتاب الإيمان: باب ظلم دون ظلم ١/ ١٦٢ـ ١٦٣.

فرد قائلاً : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾ (يوسف) .

٣ ـ التخلي عن مخالطة ومعايشة الصالحين الضعفاء ، قال تعالى :

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ (الأنعام) .

٤ ـ تخريب المساجد من روادها ، وعمارها ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾ (البقرة) .

٥ ـ كتمان العلم لاسيَّما في القضايا المصيرية المتعلقة بالعقيدة ، قال تعالى عن أهل الكتاب ، وقد كتموا الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة مع أنها عهد مأخوذ من الله على أنبيائهم وعليهم من قديم :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٤٠) .

٦ ـ أكل أموال اليتامى ظُلماً وعدواناً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴾ (النساء) .

٧ ـ أكل أموال الناس بالباطل ، وقتل المرء نفسه ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ (النساء) .

٨ ـ إمساك المرأة للإضرار بها ، قال تعالى :

﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (البقرة: ٢٣١) .

٩ ـ القتل الخطأ ، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام لما أدرك عاقبة قتله عدوَّ الذي من شيعته :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾ (القصص) .

وقد قضى الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه ، وعلى لسان نبيِّه محمد ﷺ تحريم الظلم ، حيث نزَّه نفسه عنه في قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ (يونس) .

﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ (الكهف) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ (النساء) .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ (فصلت) .

وفي قوله في الحديث القدسي :

« يا عبادي إنّي حرّمتُ الظُلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحرّماً فلا تظالموا... » الحديث [١] .

يقول الإمام النووي في بيان المراد :

« قال العلماء : معناه تقدستُ عنه، وتعاليتُ ، والظلم مستحيل في حقّ الله - سبحانه وتعالى - أي لأن الظلم تجاوز الحد، والتصرف في ملك الغير، وكيف يتجاوز سبحانه حداً، وليس فوقه مَنْ يطيعه؟ وكيف يتصرف الله في غير ملكه، والعالم كله ملكه، وسلطانه، وأصل التحريم في اللغة : المنع، فسمّى تقدسه سبحانه عن الظلم تحريماً لمشابهته بالممنوع، في أصل عدم الشيء» [١] .

وجاء التنفير منه، والتحذير في آيات كثيرة منها :

قوله تعالى :

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ (البقرة) .

وقوله تعالى :

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البرّ والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤ - ١٩٩٥ رقم ٢٥٧٧/ ٥٥ ، وأحمد في : المسند ٥/ ١٦٠ كلاهما من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - مرفوعاً ، واللفظ لمسلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) ﴾ (النساء) .

وقوله تعالىٰ :

﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) ﴾ (الأعراف)

وقوله تعالىٰ :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ (هود) .

وقوله تعالىٰ :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾ (الصافات) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ (سبأ) .

وقال تعالىٰ :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ (مريم) .

إلىٰ غير ذلك من الآيات .

كما جاء التنفير منه، والتحذير في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ :

« **اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة..** » الحديث [1] .

وقوله : « **إن الله ـ عز وجل ـ يملي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلِته، ثم قرأ:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ (هود) »[2] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه في آفة : «الشح» .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب التفسير : سورة هود ٦/ ٩٤ ، ومسلم=

وقوله :

« **ألا مَنْ ظَلَمَ معاهداً، أو انتقصَهُ، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ، فأنا حجيجُه يوم القيامة** »[(١)] .

وقوله :

« **مَنْ ظلم من الأرض شيئاً طوِّقه من سبع أرضين** »[(٢)] .

=في : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨ رقم ٢٥٨٣ / ٦١ ، والترمذي في : السنن : كتاب التفسير : باب ومن سورة هود ٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الفتن : باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ رقم ٤٠١٨ كلهم من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً بهذا اللفظ ، وعقّب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح غريب» .

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السُّنن : كتاب الخراج والإمارة والفيء : باب في التشديد في جباية الجزية ٣/ ٤٣٧ رقم ٣٠٥٢ من حديث صفوان بن سليم، عن عدّة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دِنْيةً «أي متصلي النسب»، عن النبيِّ ﷺ قال : «**ألا مَنْ ظلم معاهداً...**» الحديث، وفيه مجهولون كما هو ظاهر من السياق .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المظالم : باب إثم مَنْ ظلم شيئاً من الأرض ٣/ ١٧٠ ، وكتاب بدء الخلق : باب ما جاء في سبع أرضين ٤/ ١٣٠ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب المساقاة : باب تحريم الظلم، وغصب الأرض وغيرها ٣/ ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ رقم ١٦١٠ / ١٣٧ ـ ١٤٠ ، والدارمي في : السنن : كتاب البيوع : باب مَنْ أخذ شبراً من الأرض ٢/ ٢٦٧ ، وأحمد في : المسند : ١/ ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ كلهم من حديث سعيد بن زيد مرفوعاً بهذا اللفظ ، وبنحوه، وله في البخاري ومسلم قصة ولفظها كما في مسلم : أن أروىٰ خاصمته في بعض داره، فقال : دعوها وإياها، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «**مَنْ أخذ شبراً من الأرض بغير حقّه، طوّقه في سبع أرضين يوم القيامة**»، اللهم إن كانتْ كاذبةً، فأعم بصرها، واجعل قبرها في دارها، قال : فرأيتها عمياءَ تلتمس الجُدُر، تقول : أصابتني دعوةُ سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار مَرّتْ على بئر في الدار، فوقعت فيها، فكانت قبرها، وفي رواية هشام بن عروة، عن أبيه : أنَّ أروىٰ بنت=

وفي رواية ثانية :

« مَنْ ظلم قيد شبر من الأرض طوقَه مِنْ سبع أرضين » (١) .

وفي رواية ثالثة :

« مَنْ أخذ من الأرض شيئاً بغير حقِّه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين» (٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

ثالثاً : أسباب الظلم وبواعثه :

وللظلم أسباب كثيرة تؤدي إليه ، وبواعث عِدَّة توقع فيه ، منها :

= أويس ادَّعَتْ على سعيد بن زيد: أنه أخذ شيئاً من أرضها، فخاصمته إلى مروان بن الحكم، فقال سعيد: أنا كنتُ آخذ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعتَ من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ أخذ شبراً من الأرض ظُلماً طُوِّقَه إلى سبع أرضين»**، فقال له مروان: لا أسألك بيِّنةً بعد هذا، فقال: اللهم إن كانت كاذبةً فعمِّ بصرها، واقتلها في أرضها، قال: فما ماتت حتى ذهب بصرها، ثم بينا هي تمشي في أرضها، إذ وقعتْ في حُفْرةٍ فماتتْ.

(١) هذه الرواية : أخرجها البخاري في : الصحيح : كتاب المظالم : باب إثم مَنْ ظلم شيئاً من الأرض ٣/ ١٧٠ـ١٧١ ، وكتاب بدء الخلق: باب تحريم الظلم، وغصب الأرض، وغيرها ٣/ ١٢٣١ـ١٢٣٢ رقم ١٦١٢ رقم ١٤٢ ، وأحمد في: المسند ٦/ ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً بهذا اللفظ ، وفي أوله أن أبا سلمة كان بينه وبين قومه خصومة في أرض، وأنه دخل على عائشة فذكر ذلك لها، فقالتْ: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ ظلم قيد شبرٍ من الأرض...»** الحديث .

(٢) هذه الرواية : أخرجها البخاري في : الصحيح: كتاب المظالم: باب إثم مَنْ ظلم شيئاً من الأرض ٣/ ١٧١ ، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء في سبع أرضين ٤/ ١٣٠ من حديث سالم عن أبيه مرفوعاً بهذا اللفظ .

١ - البيئة :

ذلك أن البيئة قريبة كالبيت أو بعيدة كالمجتمع لها دورٌ كبيرٌ في تشكيل سلوك الإنسان، بحيث إذا كانت خيِّرة كان خيِّراً، وإذا كانتْ شريرةً كان شريراً، ومن الشرِّ الظلم أو الجور.

وقدقال ﷺ :

« لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور مَنْ لا يعرف غيره، ثم يأتي الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يُولد في العدل مَنْ لا يعرف غيره» [١] .

٢ ـ عدم مراقبة الله تعالى مع نسيان الآجلة :

ذلك أن عدم مراقبة الله تعالىٰ مع نسيان الآجلة تقود إلىٰ الظلم أو الجور حتماً.

وحسبنا قوله سبحانه عن صاحب الجنتين :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ (الكهف) .

وقوله عمن يبخسون الناس أشياءهم :

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٥/ ٢٦ ـ ٢٧ من حديث معقل بن يسار مرفوعاً بهذا اللفظ.

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾ (المطففين) .

وحسبنا ما تقدم من قوله ﷺ :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن.. » الحديث[1] .

٣ ـ النعمة والعافية :

وقد تكون النعمة والعافية من : الصحة، والمال، والأهل، والولد، والعشيرة، والوجاهة ، واستمرار ذلك من غير ضرٍّ أو بأس من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم، والبواعث التي توقع فيه، قال تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ (العلق) .

وقد ذكر ربُّ العزَّة في كتابه عدداً من النماذج لصنف من الناس قادهم هذا السبب إلى الظلم، والانغماس فيه من مفرق رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، مثل : النمرود بن كنعان حيث انتهى به دوام النعمة إلى دعواه أنه يُحيي ويُميت، فقد بقي مَلِكاً معافىً أربعمائة سنة :

قال تعالى :

(١) الحديث سبق تخريجه في آفة «اللغو».

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

ومثل فرعون مصر الذي قادته النعمة إلى دعواه: أنه ربُّ الناس الأعلى، قال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ (الزخرف).

وقال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ (النازعات).

وقال تعالى عن ثمود قوم صالح:

﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ (الإسراء: ٥٩).

وقال تعالى عن سبأ:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) ﴾ (سبأ).

إلىٰ غير ذلك من النماذج .

٤ ـ عدم محاسبة الجبارين لا من المجتمع ولا من ولي الأمر :

وقد يكون عدم محاسبة الجبَّارين لا من المجتمع ، ولا من ولي الأمر من بين الأسباب المؤدية إلىٰ الظلم ، والتمادي فيه .

ذلك أنَّ في الإنسان تسلطاً واستبداداً ، وما لم تكنْ مواجهة من المجتمع أو من ولي الأمر ، أو منهما معاً بالأسلوب المناسب ، والوسيلة الملائمة ، فإنَّ التسلط يقع ، والاستبداد يسود ، قال تعالىٰ عن بني إسرائيل :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ

كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾ (المائدة) .

والكلام وإن كان بأسلوب الخبر، لكنَّه يؤول إلىٰ معنىٰ النهي لاقترانه بالذَّم والوعيد كأنه قال: (لا تتركوا إنكار المنكر، ولا تتوالوا الذين كفروا، وإلا حلَّ بكم من العقاب مثلما حلَّ بهؤلاء).

وقال أبو بكر ـ بعد أن حمد الله، وأثنىٰ عليه ـ: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها علىٰ غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة)، وإنَّا سمعنا النبي ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب**»[1].

٥ـ الشح:

وقد يكون الوقوع في الشحِّ، والانغماس في البخل من بين الأسباب المؤدية إلىٰ الظلم.

ذلك أن الشحيح أو البخيل حريص علىٰ أن يملك كلَّ شيء ولا يملك غيره شيئاً، وفي سبيل ذلك يتعدىٰ الحدود، ويرتكب كل محظور.

وقد نبَّه ﷺ علىٰ ذلك بقوله:

«**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحَّ، فإن**

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

الشح أهلك مَنْ كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» [1].

وفي رواية :

« إياكم والشح، فإنه هلك مَنْ كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا » [2].

٦ ـ الخوف من ظلم الظالمين :

وقد يكون الخوف من ظلم الظالمين وجبروتهم من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم.

ذلك أن شيوع الظلم في مجتمع مَّا قد يحمل على اقتراف الظلم، من باب أن الشر لا يدفع إلا بشر مثله، إن لم يكن أعظم وأشد، وقد كان هذا شائعاً عند العرب في الجاهلية وقبل الإسلام، حتى قال قائلهم :

وَمَنْ لا يذد عن حوضه بسهامه
يُهدَّم وَمَنْ لا يَظْلِم الناس يُظْلَمِ [3]

ولكنَّ الشارع الحكيم أباح ردَّ الشرِّ بمثله من غير زيادة فقال :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ

(١) الحديث سبق تخريجه في آفة «الشح».
(٢) سبق تخريج هذه الرواية في آفة «الشح».
(٣) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى ورقمه : ٥٣.

لا يُحبُّ الظَّالمين (٤٠) ولَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) ﴾ (الشورىٰ).

٧ ـ التكبر :

وقد يكون التكبر من بين الأسباب المؤدية إلىٰ الظلم والموقعة فيه ذلك أن المتكبِّر يغريه شياطين الإنس والجن، وتسوِّل له نفسه الأمارة بالسوء، وتدفعه الدنيا بزخارفها إلىٰ البغي والطغيان حفاظاً علىٰ هذا الخُلق الذميم التكبر، وما يسمىٰ بالمركز الأدبي والاجتماعي.

وقد لفت ربُّ العزة سبحانه النظر إلىٰ ذلك في قوله :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾ (الأعراف).

٨ ـ الجهل بعواقب الظلم وآثاره :

وقد يكون الجهل بعواقب الظلم، وآثاره الدنيوية والأخروية، الفردية، والجماعية من بين الأسباب التي توقع فيه وتؤدي إليه، ذلك أن الجهل بالعواقب الضارَّة، والآثار المهلكة لأمر مَّا يقود حتماً إلىٰ الوقوع في هذا الأمر، وعدم التخلِّي عنه إلا مَنْ رحم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

لذا كان من الواجب علىٰ مَنْ يريد إتيان أمرٍ مَّا : التفكير في عواقبه وآثاره، فإن كانت خيراً أقبل، وإن كانتْ شرَّاً أدبر، فيسلم هو في نفسه، ويسلم الآخرون في أنفسهم وذويهم كذلك.

رابعاً : آثار الظلم وعواقبه :

وللظلم آثار مهلكة وعواقب وخيمة على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه الآثار والعواقب :

أ - على العاملين :

فمن آثاره على العاملين :

١ - الحرمان من الفقه، والتوفيق :

ذلك أن الظالم لم يصل إلى ما وصل إليه من ظلم وطغيان إلا بعد أن اسودَّ قلبه بسبب المعاصي والسيئات، وسواد القلب يحول بين المرء وبين الفقه في الدين، بل يكون سبباً في الحرمان من التوفيق الإلهي ، قال تعالى :

﴿ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٢٥٨) ﴾ (البقرة) .

وقال تعالى :

﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٨٦) ﴾ (آل عمران) .

٢ - القلق والاضطراب النفسي :

ذلك أن الظالم يعيش ليله ونهاره في المعاصي والسيئات، وتلك تورث فساد القلب، الأمر الذي يؤدي إلى القلق والاضطراب، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ (الأنعام) .

ومن قوله :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا . . . ﴾ (طه: ١٢٤) .

ومن قوله :

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ (الجن) .

٣ ـ نزع هيبة هؤلاء الظالمين من قلوب الناس :

ذلك أن الظالم سقط بظلمه من عين الله ، ومَنْ سقط من عين الله سقط من أعين الناس ، ونزع الله هيبته من قلوبهم ، وصدق الله الذي يقول :

﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ (البقرة: ١٥٠) .

٤ ـ الانتقام في الدنيا قبل الآخرة :

ذلك أن الناس يضجون بالشكوىٰ من الظالمين ، ويستغيثون بالله دوماً أن يرد إليهم مظلمتهم ، وأن ينتقم من هؤلاء الظالمين ، وقد وعد الله إجابة المظلومين ولو بعد حين .

ففي حديث معاذ بن جبل المشهور حين بعثه النبي ﷺ داعياً إلىٰ الله ، ومرشداً ، ومُعلماً في اليمن ، قال له :

« ... واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[1] .

وفي الحديث أيضاً :

« ثلاثة لا تُرد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزَّتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين »[2] .

٥ـ الندامة والحسرة، ولكن بعد فوات الأوان :

ذلك أن الظالم استعدىٰ عليه الخالق والمخلوق، وبالتالي فإنه إذا نزل به ضرٌّ لم يجد الناصر والمعين، بل الشفيع، يستوي في ذلك الدنيا والآخرة، ويندم أشد الندم يوم القيامة، ولو أتيح له أن يفدي نفسه بكل غالٍ ونفيس لفعل، قال تعالىٰ :

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الزكاة: باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء حيث كانوا ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩، وكتاب المظالم : باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم ٣/ ١٦٩ ـ ١٧٠، وكتاب المغازي : باب بعث أبي موسىٰ، ومعاذٍ إلىٰ اليمن قبل حجة الوداع ٥ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الدعاء إلىٰ الشهادتين، وشرائع الإسلام ١/ ٥٠ رقم ١٩ / ٢٩ كلاهما من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب صفة الجنة : باب ما جاء في صفة الجنَّة ونعيمها ٤/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣ رقم ٢٥٢٦، وابن ماجه في : السنن : كتاب الصيام : باب في الصائم لا ترد دعوته ١/ ٥٥٧ رقم ١٧٢٥ كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وعقب الترمذي علىٰ حديثه قائلاً : «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل، وقد روي هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي مدله، عن أبي هريرة مرفوعاً، والإسناد الآخر الذي يشير إليه الترمذي هو الذي عند ابن ماجه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ (يونس: ٥٤).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ (إبراهيم).

٦ ـ فقدان الناصر والمعين بل الشفيع:

وأعظم من الحسرة والندامة: فقدان الناصر والمعين بل الشفيع، إذ هم دائماً في شقاق وفرقة، فكيف ينصر بعضهم بعضاً، بل كيف ينصرهم غيرهم، قال تعالىٰ:

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (البقرة: ٢٧٠، وآل عمران: ١٩٢).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) ﴾ (الحج).

وقال تعالىٰ:

﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ (فاطر).

وقال تعالىٰ:

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ (غافر).

ب ـ على العمل الإسلامي :

ومن آثاره على العمل الإسلامي :

١ ـ التعطيل أو التعويق :

ذلك أن الظالمين لسبب أو لآخر يسعون جاهدين لتعطيل العمل الإسلامي أو على الأقل تعويقه فلا يؤتي ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة، وزمن طويل، من منطلق أن سيادة العمل الإسلامي ستكون سبباً في كشف أوراق هؤلاء الظالمين، وفضحهم على مرأى ومسمع من الناس، وربَّما محاسبتهم، وقد يكون الحساب صعباً، وعسيراً.

٢ ـ البطء في كسب الأنصار بل ضعف التأثير :

ذلك أن شيوع الظلم في صفوف العمل الإسلامي يكون سبباً في غضب الله، ولغضبه سبحانه عواقب وخيمة، منها: تبديد الطاقات، وضعفها، وعدم التوفيق لكسب الأنصار، بل التأثير في هؤلاء الأنصار، فتطول الطريق كذلك، وتعظم التكاليف.

٣ ـ الامتحانات والابتلاءات :

ذلك أن سنَّته ـ سبحانه ـ نصرُ المتقين الأقوياء، وإذا شاع الظلم في صفوف العمل الإسلامي كان العقاب من الله حتى لو كانت القوَّة، وقد يكون العقاب محناً وابتلاءات تتمثل في مصادرة أموال، أو فصل من وظائف، أو حبس، وجلد ظهور، أو نفي وتشريد في الأرض، وهكذا.

ومضى معنا حديث جابر قال:

لما رجعتْ إلىٰ رسول الله ﷺ مهاجرة البحر، قال:

«ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟».

قال فتية منهم: بلىٰ يا رسول الله، بينما نحن جلوس، مَرَّتْ بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل علىٰ رأسها قلة ماء، فمرَّتْ بفتىٰ منهم، فجعل إحدىٰ يديه بين كتفها، ثم دفعها، فخرَّتْ علىٰ ركبتيها، فانكسرتْ قُلَّتُها فلما ارتفعتْ، التفتتْ إليه، فقالتْ: سوف تعلم يا غُدَر: إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمتْ الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري، وأمرك عنده غداً، فقال رسول الله ﷺ:

« صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كيف يقدِّس الله أمَّةً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»[1].

وكانت هذه القاعدة الذهبية لابن تيمية: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»[2].

خامساً: علاج الظلم، والوقاية منه:

وإذ قد وقفنا علىٰ ماهية الظلم، وصوره، وموقف الشارع منه، وأسبابه، وآثاره وعواقبه: فإنه يسهل تحديد أساليب ووسائل العلاج بل الوقاية، وتتلخص في:

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ١٤٦.

١ . معايشة القرآن وسنة وسيرة النبيِّ الأمين محمد ﷺ :

ذلك أنَّ القرآن الكريم مليء بالحديث عن الظلم والظالمين، جرائم، وعواقب، وكذلك سنة وسيرة نبينا محمد ﷺ وحسبنا أن الرسل والرسالات كانتْ من أجل رفع الظلم عن المظلومين، ومداواة الظالمين أو تخويفهم عاقبة ظلمهم هذا، وإقامة الحجة عليهم، قال تعالىٰ:

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾ (الأحقاف) .

وقال تعالىٰ :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ (الحج) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) ﴾ (غافر) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) ﴾ (الأنبياء) .

وقال تعالىٰ :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الحج).

وقال ﷺ:

« **اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة..** » الحديث [1].

وقال ﷺ أيضاً:

« **إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته ..** » الحديث [2].

ومضى الحديث القدسي:

« **يا عبادي إنِّي حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا..** » الحديث [3].

٢ ـ التوبة النصوح:

وذلك بالإقلاع عن الظلم، ورد المظالم إلى أصحابها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والعزم الأكيد الصادق على عدم العودة، وإن كان التقطيع والتحريق بالنار، وليكن الحذر من التأخير والتسويف، إذ الإنسان لا يضمن عمره، ولا يدري ما اسمه غداً؟

وليبصر مقدار جزاء التوبة، وقيمة هذا الجزاء، وكذلك عاقبة التمادي في الظلم، قال تعالى:

(١ ـ ٣) هذه الأحاديث سبق تخريجها في هذه الآفة.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ (آل عمران).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) ﴾ (النساء).

وقال النبي ﷺ:

« مَنْ كانت له مظلمة لأحد من عرضه، أو شيءٍ فليتحلَّلْهُ منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخِذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه »[1].

وفي عاقبة التمادي في الظلم جاء حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال:

بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريتُ بعيراً، ثم شددتُ رحلي فَسِرْتُ إليه شهراً حتىٰ قدمتُ

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب المظالم: باب مَنْ كانت له مظلمة عند الرجل فحلّلها له، هل يبيِّن مظلمته ٣/ ١٧٠، وأحمد في: المسند ٢/ ٥٠٦ كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

الشام، فإذا عبدالله بن أنيس، فقلتُ للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلتُ: نعم، فخرج عبدالله بن أنيس فاعتنقني، فقلتُ: حديث بلغني عنك، أنك سمعتَهُ من رسول الله ﷺ فخشيتُ أن أموتُ أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«يحشر الله الناس يوم القيامة عُراةً، غُرْلاً، بُهُماً».

قلنا: ما بهما؟ قال:

«ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعهُ مَنْ بَعُدَ، كما يسمعهُ مَنْ قَرُبَ، أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة، يدخل الجنة، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار، يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة».

ـ يعني: لا يدخل أهل الجنة: الجنة، وأهل النارِ النارَ، إلا بعد القصاص، وتصفية الحساب ـ

قلتُ: وكيف؟ وإنما نأتي الله عُراةً، بُهماً؟

قال: «**بالحسنات والسيئات**»(١).

٣ ـ دوام النظر في مصائر الظالمين:

وكذلك لابدَّ من النظر في مصائر الظالمين، وهي ماثلة أمام أعيننا هنا وهناك، قال تعالى:

---

(١) انظر: تخريج هذا الحديث في: شفاء الصدور لكاتب هذه الآفات ١ / ١١٥ـ١١٦ .

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ (الصافات) .

وقال تعالى :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ (يونس) .

وقال تعالى :

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾ (الذاريات) .

وقال تعالى :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ (العنكبوت) .

وقال تعالى عن المستهزئين بالنبي ﷺ وصحبه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ (المطففين) .

وكان النبي ﷺ دعا عليهم لما أفحشوا في الإيذاء والاستهزاء من أمثال: أبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل السهمي، وأبي لهب بن عبدالمطلب عمِّ الرسول ﷺ، والأسود بن عبد يغوث الزهري، القرشي، والأسود بن عبدالمطلب الأسدي ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ، والوليد بن المغيرة عم أبي جهل، وغيرهم، فأخذهم الله يوم بدر، ومنهم من ابتلاه الله بأمراضٍ شديدة فهلك بسببها كأبي لهب، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وهكذا يمكن أن يؤدي النظر في مصائر الظالمين إلى الإقلاع عن الظلم، وتوقي الوقوع فيه من جديد.

٤ ـ تربية ملكة المراقبة لله ـ عزَّوجلَّ ـ في السر والعلن:

ومن الضروري في العلاج من الظلم، بل توقيه: التربية على مراقبة الله لعبده في سرِّه وعلانيته، وحده أو مع الناس، مع بيان عظيم أجر المراقبة عند الله، قال تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الرحمن).

وقال تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (النازعات).

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ

مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾ (الإنسان).

٥ . تهيئة الجوُّ النظيف الذي يعين الظالم على التخلص من ظلمه بل توقيه:

ولا بدَّ كذلك من تهيئة الجو الطاهر النظيف الذي يعين الظالم على التخلص من ظلمه، بل توقيه والاحتراز منه، وقد مضى معنا الحديث الدَّال على ذلك، كما مرَّ معنا حديث: «**إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سَوْءٍ، إن نسى لم يذكره، وإن ذكر لم يعنْه**»[1]، وكأن البيئة مما يساعد على التشكيل بالعدل أو بضدِّه.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

٦ـ التذكير بالنعمة والعافية :

ومن الضروري كذلك التذكير بالنعمة والعافية : مَنْ المنعم؟ وما حقُّه؟ وكيف يؤدَّىٰ هذا الحق؟ وما ثمرته، وما فوائده؟

قال تعالىٰ :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ (البقرة) .

وقال تعالىٰ :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ (النساء) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٧) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (الزمر: ٧) .

٧ـ قيام ولي الأمر والمجتمع بواجبهما نحو الظالمين :

ولابد من قيام ولي الأمر ، وكذلك المجتمع بواجبهما نحو الظالمين، كلٌّ بما منحه الله من إمكانات، شريطة ألا يؤدي ذلك إلىٰ منكر أكبر منه، وحسبنا قوله ﷺ :

« مَنْ رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن

لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

ولعل القيام بهذا الواجب يكون سبباً في ردع الظالمين وتخويفهم فيكون الإقلاع، بل التوقي والحذر، وما ذلك على الله بعزيز.

٨. دوام النظر في أحوال الأمم التي تأبى الضيم، ولا ترضى الظلم وتقاومه بكلّ طريق إلى أن ينقشع وربما تكون هذه الأمم كافرة:

وحسبنا هذا الحديث:

عن المستورد بن شداد القرشي قال عند عمرو بن العاص: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«تقوم الساعة والروم أكثر الناس».

فقال له عمرو: أبصر ما تقول.

قال: أقول سمعتُ رسول الله ﷺ.

قال: لئن قلت ذلك: إن فيهم لخصالاً أربعاً:

«إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّة بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين، ويتيم، وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[2].

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس ٤/ ٢٢٢٢ رقم ٢٨٩٨ / ٣٥-٣٦، وأحمد في: المسند ٤/ ٢٣٠ كلاهما من حديث المستورد مرفوعاً، وعمرو موقوفاً، واللفظ لمسلم.

٩ ـ التذكير بعواقب وآثار الظلم :

ذلك أن الظالم في نشوة طغيانه، وجبروته، وعدوانه على الدماء، والأموال، والأعراض ينسى عواقب وآثار الظلم في الدنيا والآخرة، الفردية منها والجماعية، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير بالأسلوب المناسب، والوسيلة الملائمة لعلّه يذكّر أو يخشى، فإن لم يكن، فقد لزمته الحجة، وزال عذره لاسيّما يوم يرد إلى الله، انطلاقاً من قوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ﴾ (الأعراف) .

* * *

الآفة السادسة والثلاثون

الحسد والعين

الآفـة السادسـة والثلاثـون

الحسد والعين

والآفة السادسة والثلاثون التي يعاني منها كثير من الناس، وكانتْ سبباً في قعود طائفة من الأمة عن أداء دورها وواجبها إنما هي: «الحسد والعين».

وحتىٰ يتخلص منها مَنْ ابتلي بها، ويتوقاها مَنْ سلَّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من التعريف بها، من خلال هذه الجوانب:

أولاً: حول ماهية الحسد.. وعلاقته بالغبطة والتنافس:

الحسد لغةً: الحسد في أصل وضعه اللغوي: القشر، نقول: حسد الشجرة قشر عنها لحاءها، ومعلوم أن الشجرة إذا قشر عنها لحاؤها يبست، ونقول: حَسَدَه، يحسُدُه، ويحسُدُه حَسَداً، وحُسُوداً: قشرهُ وتحاسد القوم، ورجل حاسد مِنْ قومٍ حُسَّدٍ، وحُسَّاد، وحَسَدَه مثل حامل وحَمَلَة، وحَسُودٌ مِنْ قَومٍ حُسُدٍ، والأنثىٰ بغير هاء، وهم يتحاسدون: يحسد بعضهم بعضا[(١)].

وحكىٰ الأزهري عن ابن الأعرابي قوله: «الحسدل: القراد، ومنه أُخِذَ الحسد: يقشر القلب، كما تقشر القُرادُ الجلد فتمتص دَمَه»[(٢)].

(١، ٢) انظر: لسان العرب لابن منظور ٢/ ٨٦٨ مادة «حسد»، ٥/ ٣٢٠٨ مادة: «غَبَطَ»، وتاج العروس شرح القاموس للزبيدي ٢/ ٣٣٦.

الحسد شرعاً: وللحسد شرعاً عَدة تعاريف يمكن حصرها في خمسة:

التعريف الأول: وهو لأبي الحسن الماوردي الفقيه الأديب السياسي المفسِّر المعروف، المتوفى عام ٤٥٠ هـ، إذ يقول:

« إنَّه - أي الحسد - في الظَّاهر: شدة الأسى على الخير أن يكون للنَّاس الأفاضل»[١].

ويقول في موضع آخر:

« وحقيقة الحسد: شدَّة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل»[٢]

وعبارة الماوردي واحدة في الموضعين تقريباً ومؤداها أن الحسد: حزن أو حسرة شديدة تصيب القلب عند رؤية النعمة في أيدي أهلها من ذوي الصَّلاح والفضل، وهو لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ت ١٠٩٤هـ إذ يقول: «والحسد: اختلاف القلب على الناس لكثرة الأموال والأملاك»[٣].

التعريف الثاني: وهو لأحمد بن عبدالحليم المعروف بابن تيمية ت ٧٢٨هـ إذ يقول: «والتحقيق أن الحسد: هو البُغض والكراهة لما يراه من حُسن حال المحسود»[٤].

التعريف الثالث: وهو لأبي عبدالله الحسين بن حسن المعروف

---

(١) انظر: تسهيل النظر وتعجيل الظَّفَر في أخلاق المَلِك، وسياسة المُلْك ص ١١٩ - ١٢٠.
(٢) انظر: أدب الدنيا والدين ص ٢٤٥.
(٣) انظر: الكليات ص ٤٠٨.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى الكبرى ١/ ١١٢.

بالحليمـي ت ٤٠٣هـ ، إذ يقول : « والحسد : الاغتمام بالنعمة يراها الأخ لأخيه المسلم ، والتمنّي بزوالها عنه »[١] .

التعريف الرابع : وهو لأبي حامد الغزالي ت ٥٠٥ هـ ، إذ يقول : «الحسد حدُّه : كراهة النعمة ، وحبُّ زوالها عن المُنعَم عليه»[٢] .

التعريف الخامس : وهو للأكثرين من العلماء ، ومنهم الشريف بن علي الجرجاني إذ يقول :

«الحسد : تمنّي زوال نعمة المحسود إلى الحاسد»[٣] .

والإمام محيي الدين النووي ت ٦٧٦ هـ ، إذ يقول :

« والحسد : تمنّي زوال النعمة »[٤] .

والحافظ أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ ، إذ يقول : «الحسد : تمنّي الشخص زوال النعمة عن مستحقٍّ لها أعم من أن يسعى في ذلك أو لاً»[٥] .

وأبو البقاء الكفوي إذ يقول :

---

(١) انظر : المنهاج في شُعب الإيمان : الباب الثالث والأربعون من شُعب الإيمان : الحث على ترك الغل والحسد ٣/ ١٠٣ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي : كتاب ذم الغضب والحقد والحسد : باب بيان حقيقة الحسد . . ٣/ ٢٧٧ .

(٣) انظر : التعريفات ص ٨٧ حرف الحاء .

(٤) انظر : المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/ ٤٢٣ ، ٤٢٦ .

(٥) انظر : فتح الباري ١٠ / ٤٨٢ .

«والحسد: إرادة زوال نعمة الغير»(١).

وبنظرة خاطفة في هذه التعاريف الخمسة يظهر:

أن الأول منها عرَّف الحسد بذكر أهم أسبابه، وهو تغير القلب، وحزنه وحسرته لما يرىٰ من حسن حال المحسود.

وأن الثاني عرَّف الحسد كذلك بذكر سببه إجمالاً وهو البُغض والكراهية.

وأن الثالث عرَّف الحسد بذكر أهم آثاره وهو الغم يصيب القلب، وبذكر حقيقته، وهو تمنِّي زوال النعمة عن الغير.

وأن الرابع عرَّف الحسد بذكر سببه إجمالاً وهو البغض والكراهية وبذكر حقيقته وهو تمنِّي زوال النعمة عن الغير.

وأن الخامس عرَّف الحسد بذكر حقيقته، وهو تمنِّي زوال النعمة عن الغير.

غير أن منها ما شرط لصحته أن تزول النعمة عن الحاسد إلىٰ المحسود، وهو تعريف الجرجاني، وليس بلازم فإنه يصح بزوال النعمة إلىٰ غير الحاسد، ومنها ما شرط: أن تزول عن مستحق لها، وهو الحافظ ابن حجر العسقلاني، وكأنَّه نظر إلىٰ الحسد العرفي المذموم في لسان الشرع، إذ لو تمنَّى زوالها عن غير مستحق لها مثل كافر، أو عاص يُفسد بها في الأرض فيُهلك الحرث والنَّسل لم يكن آثماً كما سيأتي في بيانها، ومنها ما أطلق وهو الإمام النووي ليبقىٰ التعريف عاماً مستوعباً لكل الصور: المذموم منها وغير المذموم، القبيح

---

(١) انظر: الكليات ص ٦٧٢.

منها والأقبح، ولاتعارض بين ما قاله الإمام النووي، وما قاله الحافظ ابن حجر، إذ ما قاله الإمام النووي يصدق على الحسد شرعاً، وما قاله الحافظ ابن حجر يصدق على الحسد عرفاً، وينبغي الوقوف عند المعنى الشرعي، لا عند المعنى العُرفي، لأنه محور الحديث هنا.

وعليه فإن الحسد شرعاً هو : تمنِّي زوال نعمة الغير مطلقاً، أعم من أن يكون صاحب هذه النعمة مستحق أو غير مستحق لها، وأعم من أن تؤول إلى الحاسد، أو إلى غير الحاسد، وأعم من أن يسعى الحاسد في إزالتها أو لا يسعى، وأعم من أن يكون السعي بالتفكير والتخيُّل، أو بالنظر والعين، أو بالملامسة، أو بغيرها من الوسائل.

ويدل لصحَّة ما قلنا أن ابن حجر نفسه اعتمد على هذا التعريف في موطن آخر من كتابه فتح الباري، إذ يقول في كتاب العلم ١/ ١٦٦ : «الحسد تمنِّي زوال النِّعمة عن المنعم عليه، وخصَّه بعضهم بأن يتمنَّى ذلك لنفسه، والحقُّ أنه أعم»، ويبقى تمييز ما يبيحه الشارع منه وما يذمه رهن الدليل، كما سيأتي.

الغبطة لغة :

يطلق أصل هذه المادة، وهو الغين، والباء، والطاء (غبط) على ثلاثة معانٍ هي :

١ ـ **دوام الشيء ولزومه**، يقال: أغبطتْ عليه الحمَّى أي دامتْ، وأغبطْتُ الرَّحْلَ على ظهر البعير: إذا أدمته عليه، ولم تحطَّه عنه، ولذلك سُمِّي الرَّحْلُ غبيطاً، ومن هذا جاءت الغِبطة بمعنى حسن الحال، ودوام المسرَّة.

٢ ـ **الجس والاطمئنان**، يُقال : غبطتُ الشَّاةَ إذا جسستَها بيدك تنظر بها

سِمَنٌ، ومِنْ هذا الباب الغبيط : أرض مطمئنة كأنها غبطتْ: أي جُسَّتْ حتىٰ اطمأنَّت.

٣ـ **نوع من الحسد**، يُقال : إنه غير مذموم، لأنَّه لا يتعدَّىٰ أن يكون تمنياً لمثل نعمة الغير، دون إرادة زوالها عنه (١) .

ولا تعارض بين هذه المعاني الثلاثة، إذ الغبطة نوع من الحسد المحمود يقوم علىٰ تحسس نعمة الغير، والاطمئنان إلىٰ أنَّه يحسن أن يكون له مثل هذه النعمة، علىٰ أن تدوم هذه النعمة لصاحبها ولا تزول عنه.

الغبطة شرعاً :

والغبطة شرعاً ـ في ضوء ما قدمنا في المعنىٰ اللُّغوي ـ عرَّفها الحليمي بقوله : «والغابط مَنْ يتمنَّىٰ أن يكون له من الخير مثل ما لغيره»(٢) .

والجرجاني بقوله : «الغبطة عبارة عن تمنِّي حصول النعمة لك كما كان حاصلاً لغيرك مِنْ غير تمنِّي زوالها عنه»(٣) .

وابن حجر بقوله : «ومعنىٰ الغبطة : تمنِّي المرء أن يكون له نظير ما للآخر من غير أن يزول عنه» (٤) .

ومعناها جميعاً متقارب.

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٤١٠ـ ٤١١، ولسان العرب ٥/ ٣٢٠٨ـ ٣٢١٠ مادة : «غبط» بتصرف.

(٢) انظر : المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ١٠٣ .

(٣) انظر : التعريفات ص ١٦١ .

(٤) انظر : فتح الباري ١/ ١٦٦ .

وقد جاء هذا المعنىٰ بعينه في بعض روايات حديث:

« **لا حسد إلا في اثنتين...** » إذ يبيِّن النبي ﷺ ذلك بقوله:

« **... رجل علَّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، فسمعه جارٌ له فقال: ليتني أُوتيتُ مثل ما أُوتِيَ فلان، فعملتُ مثل ما يعملُ، ورجلٌ آتاه الله مالاً، فهو يُهلكه في الحقِّ، فقال رجل: ليتني أُوتِيتُ مثل ما أُوتِيَ فلان، فعملتُ مثل ما يعمل** »(1).

---

(1) وهذه الرواية أخرجها البخاري في: الصحيح: كتاب فضائل القرآن باب اغتباط صاحب القرآن ٦/ ٢٣٦، عن علي بن إبراهيم، عن روح بن عبادة، عن شعبة، وكتاب التمنِّي: باب تمنِّي القرآن والعلم ٩/ ١٠٤، عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير، وكتاب التوحيد: باب قول النبي ﷺ: « **رجل آتاه الله القرآن...** » ٩/ ١٨٨ ـ ١٨٩ عن قتيبة عن جرير والنسائي في: السنن الكبرىٰ: كتاب فضائل القران: باب اغتباط صاحب القرآن ٥/ ٢٧ رقم ٨٠٧٣ عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي، عن شعبة، وكتاب العلم: باب الاغتباط في العلم ٣/ ٤٢٦ رقم ٥٨٤١ عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، وأحمد في: المسند ٢/ ٤٧٩ عن محمد بن جعفر، وروح قالا: حدثنا شعبة كلاهما ـ أي شعبة وجرير ـ عن الأعمش سليمان بن مهران، عن ذكوان أبي صالح السمَّان عنه، غير أن رواية النسائي التي في: كتاب العلم تومئ: أنها غير محفوظة لاقتصارها علىٰ خَصْلَةٍ فقط، إذ لفظها: « **لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، وهو يتلوه في آناء الليل وآناء النهار، فيقول: لو أُتيت مثل ما أُوتي هذا لفعلتُ كما يفعل هذا، ورجل آتاه الله علماً** »، وهذا ينافي رواية النسائي نفسه التي في كتاب فضائل القرآن.

وللحديث رواية أخصر من هذه عن ابن مسعود أخرجها البخاري في: الصحيح: كتاب العلم: باب الاغتباط في العلم والحكمة ١/ ٢٨ عن الحميدي: عن سفيان بن عيينة، وكتاب الزكاة: باب إنفاق المال في حقه ٢/ ١٣٤ عن محمد بن المثنىٰ، عن يحيىٰ القطان، وكتاب الأحكام: باب أجر مَنْ قضىٰ بالحكمة لقوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ ٩/ ٧٨، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما جاء في اجتهاد القضاة بما أنزل الله تعالىٰ .... ٩/ ١٢٦ عن شهاب بن عباد، عن إبراهيم بن حميد الرؤاسي، ومسلم في: الصحيح: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضل مَنْ يقوم=

. . . .

= بالقرآن ويعلمه ١/ ٥٥٩ رقم ٨١٦ (٢٦٨) عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، وعن محمد ابن عبدالله بن نمير، عن أبيه، ومحمد بن بشر، والنسائي في: السنن الكبرى: كتاب العلم: باب الاغتباط في العلم ٣/ ٤٢٦ رقم ٥٨٤٠ (١) عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، ووكيع، وعن سويد بن نصر عن عبدالله بن المبارك وأحمد في: المسند ١/ ٣٨٥ عن يحيى القطان، ١/ ٤٣٢ عن وكيع، ويزيد تسعتهم عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس ابن أبي حازم البجليّ الأحمسّ عنه - أي ابن مسعود - قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ، ورجلُ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويُعلّمها».**

وللحديث رواية ثالثة عن ابن عمر بلفظ يماثل رواية ابن مسعود أخرجها البخاري في: الصحيح: كتاب التوحيد: باب قول النبي ﷺ: **«رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار»** ٩/ ١٨٩ عن علي بن عبدالله المديني، ومسلم في: الصحيح: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضل من يقوم بالقرآن ١/ ٥٥٨-٥٥٩ رقم ٨١٥، ٨١٦ (٢٦٦، ٢٦٧) عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعمرو الناقد، وزهير بن حرب، والترمذي في: السنن: كتاب البرّ والصلة: باب ما جاء في الحسد ٤/ ٢٩١ رقم ١٩٣٦ عن ابن أبي عُمر، والنسائي في: السنن الكبرى: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٥/ ٢٧ رقم ٨٠٧٢ (١) عن قتيبة بن سعيد وابن ماجه في: السنن: كتاب الزهد: باب الحسد ٢/ ١٤٠٨ رقم ٤٢٠٩ عن يحيى بن حكيم المقوّم، ومحمد بن عبدالله بن يزيد، وأحمد في: المسند ٢/ ٨-٩ تسعتهم عن سفيان، عن الزهري، عن سالم: عنه - يعني ابن عمر - مرفوعاً، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، والبخاري أيضاً في الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٦/ ٢٣٦ عن أبي اليمان، عن شعيب وأحمد في: المسند عن عبدالرزاق، عن معمر ٢/ ٣٦ كلاهما عن الزهري، عن سالم عنه - يعني ابن عمر - مرفوعاً.

هذا ورواية البخاري موضع الشاهد هنا هي عند ابن حجر في: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٩/ ٧٣ رقم ٥٠٢٦، وكتاب التمنّي: باب تمنّي القرآن والعلم ١٣/ ٢٢٠ رقم ٧٢٣٢، وكتاب التوحيد: باب قول النبي ﷺ: **«رجل آتاه الله القرآن...»** ١٣/ ٥٠٢ رقم ٧٥٢٨ من حديث أبي هريرة مرفوعاً به: فتح الباري.

التنافس لغة :

يأتي التنافس لغة على معانٍ، منها :

١ ـ محبة الشيء، والرغبة فيه، وأصله من الشيء النفيس في نوعه، يقال: نافَسْتُ في الشيء منافسةً، ونَفَاسةً، ونِفاسا، ونَفُسَ الشي بالضم نفاسةً، صار مرغوباً فيه محبوباً.

٢ ـ الضنُّ بالشيء، أو البخل به، يقال: نَفِسْتُ عليه الشيء بالكسر أنْفَسُه نفاسةً، ضننتُ أو بخلتُ عليه به، وما أحبُّ أن يصل إليه.

٣ ـ رؤية الغير فاقد الأهلية للشيء مع حسده عليه، نقول: تنافس الشيء، وبالشيء على فلان، لم يره أهلاً لهذا الشيء، وحسده عليه.

٤ ـ التسابق والتباري في الشيء من غير إلحاق الضرر بالمتنافس، نقول: نافس فلان فلاناً في كذا: سابقه وباراه من غير أن يُلحق الضرر به، وتنافس القوم في كذا تسابقوا فيه، وتبَارَوا دون أن يلحق بعضهم الضرر ببعض، ومنه قوله سبحانه:

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (المطففين)[1].

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، فإن رؤية الغير ليس أهلاً للشيء أو للأمر قد تحمل أو تقود إلى التسابق والتباري في تحصيله رغبةً فيه، ومحبَّةً له، وضنّاً به على هذا الغير.

---

(١) انظر: لسان العرب ٦/ ٢٣٨، مختار الصحاح ص ٤٥١ ـ ٤٥٢، المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٠ مادة: «نفس»، وانظر كذلك: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي ٥/ ٤٢٧، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٤٥ بتصرف كبير.

التنافس اصطلاحاً :

ولا يعرف معنىٰ التنافس اصطلاحاً إلا بما يُضاف إليه ، فإذا أضيف إليه الدنيا كان معناه : «التباري في الرغبة في الدنيا ، وأسبابها ، وحظوظها ، علىٰ وجه الانفراد ، والاستئثار بها»(١) .

وإذا أضيف إلىٰ الآخرة كان معناه : «التباري في الرغبة في الآخرة وأسبابها وحظوظها علىٰ وجه لا يلحق فيه ، ولا يسبق» (٢) .

العلاقة بين الحسد ، والغبطة ، والتنافس :

والعلاقة بين الحسد ، والغبطة ، والتنافس تبعاً لما عرفنا من ماهية كلٍّ منها تظهر في : أن الحسد : تمنّي زوال نعمة الغير مطلقاً ، والغبطة تمنّي مثل نعمة الغير دون إرادة زوالها عنه ، والتنافس هو الرغبة في الشيء وأسبابه علىٰ وجه الانفراد ، والاستئثار به .

ثانياً : حول ماهية العين وعلاقتها بالنفس :

العـين لُغـةً :

تطلق العين وما يُشتق منها لُغَـةً علىٰ معانٍ منها :

١ ـ حاسَّة البصر ، والرؤية ، والجمع أعيان ، وأعين ، والكثير عيون ، وجمع الجمع أَعْيُنات .

٢ ـ الجاسوس الذي يُبعث لتجسس الخبر ، جاء في الحديث عن أنس بن مالك ـ

(١ ، ٢) انظر : المنهاج للنووي ٥/ ٤٢٧ ، وعنه نقل ابن حجر في : فتح الباري ١١/ ٢٤٥ .

رضي الله عنه ـ قال: «**بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَةَ عيناً ينظر ما صنَعَتْ عِيرُ أبي سفيان....**» الحديث [1].

٣ ـ عظم سواد العين وسعتها، نقول: رجل أعين واسع العَيْن، بيِّن العين ومنه قيل لبقر الوحش: «عين» صفة غالبة، وقال الله تعالىٰ في نساء الجنَّة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (الواقعة: ٢٢).

٤ ـ الرئيس الرائد، نقول: فلان عين الجيش: رئيسه، ورائده.

٥ ـ عين الماء، أو ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري، ومنه قوله تعالىٰ:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الإمارة [الجهاد عند المزي في: تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦ رقم ٤٠٨] باب: ثبوت الجنَّة للشهيد ٣/ ١٥٠٩ ـ ١٥١١ رقم ١٩٠١ (١٤٥) قال: حدثنا أبو بكر بن النضر بن أبي النضر، وهارون بن عبدالله ـ يعني: الحمَّال ـ ومحمد بن رافع، وعبدُ بن حميد، وألفاظهم متقاربة، قالوا: ـ أربعتهم ـ حدثنا هاشم بن القاسم ـ يعني أبا النضر ـ قال: حدثنا سليمان ـ وهو ابن المغيرة ـ، عن ثابت، عن أنس بن مالك بهذا اللفظ، وهو جزء من حديث طويل، وأبو داود في: السنن: كتاب الجهاد: باب في بعث العيون ٣/ ٨٨ رقم ٢٦١٨ قال: حدثنا هارون بن عبدالله قال حدثنا هاشم بن القاسم إلى نهاية إسناد مسلم، مقتصراً على هذا اللفظ، وأحمد في: المسند ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧ من رواية ابنه عبدالله عنه، قال: حدثني أبي، قال: حدثني هاشم بن القاسم إلى نهاية إسناد مسلم، واللفظ واحد، وبُسَيْسَةُ هذا: ذكره ابن حجر في الإصابة: القسم الأول ١/ ١٥١ فسمَّاه: «بسبسة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجي»، وضبطه بموحدتين مفتوحتين بينهما مهملة ساكنة، ثم مهملة مفتوحة، قال: «ويقال له: «بسبس» بغيرها ـ هو قول ابن إسحاق وغيره ـ شهد بدراً باتفاق، وحكى عياض أنه في مسلم بموحدة مصغَّر: «بسيسي»، قال ابن حجر، وهو عند أبي داود «بسيبسة» بصيغة التصغير، وكذا قال ابن الأثير: إنَّه رآه في أصل ابن منده، لكن بغير هاء، قال: «والصواب الأول، فقد ذكر ابن الكلبي أنَّه الذي أراد الشاعر بقوله:

أقم لها صدورها يا بسبس ... إن مطايا القوم لا تحبس

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ (الإنسان)، ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ (الإنسان).

٦ ـ الناحية أو الجهة، نقول : جاء مِنْ هذه العين: الناحية أو الجهة.

٧ ـ الشمس، نقول طلعتْ العينُ، أو غابت العين: الشمس.

٨ ـ المال العتيد، الحاضر، النَّاضُّ، ومِنْ كلامهم: عين غير دين.

٩ ـ النقد، يقال: اشتريتُ العبد بالدين أو بالعين: النقد.

١٠ ـ الدينار أو الذهب عامَّة.

١١ ـ الميل، تقول العرب: في هذا الميزان عين أي في لسانه ميل قليل، أو لم يكن مستوياً.

١٢ ـ حقيقة الشيء، يقال: جاد بالأمر مِنْ عين صافية: أي من قصِّه، وحقيقته، وجاء بالحقِّ بعينه: أي خالصاً واضحاً.

١٣ ـ نفس الشيء وشخصه، وأصله، وعينُ كلِّ شيء: نفسه، وحاضره، وشاهده.

١٤ ـ الشاهد، تقول العرب: عين الرجل شاهده، ومنه قولهم: الفرس الجواد عينُه فِراره، يعني: إذا رأيته، وشاهدته، تفرَّسْتَ فيه الجودة من غير أن تفرّه عن عَدْوٍ، أو غير ذلك.

١٥ ـ حرف الهجاء المعروف باسم «العين».

١٦ ـ العائن أي الذي يصيب أو يؤذي الآخرين بعينه، يقال: عِنْتُ الرجل: إذا أصبته بعينك، فأنا أعينه عينا، وهو معيون، ورجل عيون،

ومعيان: خبيث العين، والعائن الذي يعين، وهكذا إلى أكثر من عشرين معنى[1].

وواضح من هذه التعاريف: أن الأول منها حقيقي، وبقيتها مجازي.

العين شرعاً:

عرَّف القاضي أبو بكر بن العربي ت ٥٤٤ هـ العيْن شرعاً فقال: «أن يخلق الله في المعيون - عند نظر العائن إليه وإعجابه به إذا شاء - ما شاء من ألم أو هلكة»[2].

وعرَّفها ابن حجر العسقلاني فقال:

«والعين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر»[3].

وكان ينبغي لابن حجر أن يقيِّده بالمشيئة كما فعل ابن العربي، لئلا يُفهم منه أن العين تؤثر بنفسها، كما كان عليه أن يرفع عبارة «مشوب بحسد من خبيث الطبع» لأنَّ العيْنَ قد تؤثر بذلك، وقد تؤثر بمجرد الاستحسان والإعجاب دون أن يكون معها حسد، بدليل حديث سهل بن حنيف، إذ يروي عنه ابنه أبو أمامة فيقول: إنَّ أباه حدَّثه أن النَّبيَّ ﷺ خرج، وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف -

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ١٩٩ - ٢٠٤، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٣١٩٧ - ٣٢٠١، والكليات لأبي البقاء الكفوي ص ٦٤٢ - ٦٤٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٤٠ - ٦٤١، مادة: «عين» بتصرف كثير.

(٢، ٣) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٠٠.

وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد ـ فنظر إليه عامر بن ربيعة، فقال: ما رأيتُ كاليوم، ولا جلد مخبَّأة، فلبط ـ أي صرع وزناً ومعنىً ـ سهل، فأتىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**هل تتّهمون به من أحد؟**» قالوا: عامر بن ربيعة، فدعا عامراً فتغيَّظ عليه، فقال: «**علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلاً إذا رأيتَ ما يعجبك برَّكْتَ؟**» ثم قال: «**اغتسل له**»، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثم صُبَّ ذلك الماء عليه يصُبُّه رجلٌ مِنْ خلفه علىٰ رأسه، وظهره، ثم يكفئ القدح، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس)[1].

فإن الحديث صريح كما نرىٰ في الإصابة بالعين لمجرد الاستحسان والإعجاب من غير أن يقترن ذلك بالحسد، ولقد أقرَّ ابن حجر نفسه بذلك في الصحيفة التي تلي هذه الصحيفة التي ذكر بها تعريفه المذكور عند بيان الفوائد المستنبطة من حديث أبي هريرة مرفوعاً عند البخاري: «**العين حق...**»، وحديث ابن عباس عند مسلم: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استُغسِلتُم فاغسلوا**»[2]، قائلاً: «وفي الحديث من الفوائد أيضاً... أن العين تكون مع الإعجاب، ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح»[3].

ولم يبق بعد هذا النقد الموجَّه إلىٰ تعريف ابن حجر للعين شرعاً، سوىٰ اعتماد تعريف القاضي ابن العربي لسلامته من مثل هذا النقد.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٨٦-٣٨٧.
(٢) انظر: فتح الباري ١٠ / ٢٠٣.
(٣) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٠٥.

النفس لغة :

تأتي النفس في اللغة على معانٍ ، منها :

١ ـ الروح ، نقول : خَرَجَتْ نفس فلان : روحه .

٢ ـ الروع ، نقول : وفي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا : في روعه[١] .

٣ ـ جملة الشيء ، وحقيقته ، نقول : قتل فلان نفسه ، وأهلك نفسه : أوقع الهلاك بذاته كلها ، وحقيقته ، والجمع من كلٍّ ذلك أنفس ونفوس .

٤ ـ العين ، يقال : أصابتْ فلاناً نَفْسٌ ، ونفستُك بنفس إذا أصبتَه بعين ، ويقال ما أنفسه : ما أشدَّ عينه ، والنافس العائن ، والمنفوس : المعيون .

٥ ـ الحسد ، يقال : نَفَسَ عليك فلانٌ ، ينفس نفساً ، ونفاسةً : حسدك[٢] .

النفس شرعاً :

وتُطلق النَّفْسُ شرعاً : على العين ، ويدل لذلك ما أخرجه البزَّار من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ رفعه : «أكثر مَنْ يموت بعض قضاء الله وقدره بالنفس» ، قال الراوي : يعني العين[٣] ، وما أخرجه أبو داود في : السُّنن :

(١) روعه : نفسه وخلده ، ومنه قوله ﷺ : «إن روح القدس نفث في روعي» أي في نفسي وخلدي ، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ١١١ .

(٢) انظر : الصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص ١١٩٠ ، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٤٠ .

(٣) الحديث أورده ابن حجر في : فتح الباري ١٠/ ٢٠٤ ، قائلاً : «وقد أخرج البزَّار من حديث جابر بسند حسن عن النبي ﷺ قال : «أكثر من يموت....» الحديث .

كتاب الطب: باب ما جاء في الرُّقى ٤/ ٢١٥ـ٢١٦ رقم ٣٨٨٨ من حديث سهل بن حنيف قال: مررنا بسيل، فدخلتُ، فاغتسلت فيه، فخرجتُ محموماً، فنمى ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: **«مروا أبا ثابت يتعوذ»**، فقلت: يا سيدي، والرقى صالحة؟ فقال: **«لا رقية إلا في نفس، أو حُمَّة، أو لدغة»**.

وما أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب السَّلام: باب الطب والمرضى والرقى ٤/ ١٧١٨ـ١٧١٩ رقم ٢١٨٦ (٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيتَ؟ فقال: **«نعم»**، قال: **«باسم الله أرقيك، من كلُ شيءٍ يُوذيك، مِنْ شرِّ كل نفسٍ أو عينِ حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»**.

الفرق بين العين والنفس:

وبعد بيان ماهية كلٍّ من العين والنَّفْس، يوحي الظاهر أن العين والنفس مترادفان، كأنهما اسمان لمسمًى واحد، وحين يذكران معاً تكون العين تفسيراً للنفس، كما في رقية جبريل للنبي ﷺ تلك التي أثبتناها الآن، ولكن بعد التدقيق والتمحيص: يظهر أن النَّفْس أعم، والعين أخص، كما يشهد بذلك الواقع، وهذا هو ما ينبغي أن يحمل عليه الحديث.

ثالثاً: الحسد في الدراسات النفسية المعاصرة:

يتصور كثير من علماء النفس المعاصرين: أن الحسد من مكوِّنات انفعال الغيرة التي تحمل على الصراع بين المتنافسين، وتنمّي الخصومة بينهم.

ومنهم مَنْ يتصوره: مِنْ مكوِّنات سمة العداوة Hostilitytrait وهي

سمة مرتفعة عند الجانحين، فكلما زاد الحسد، وما يرتبط به مِنْ حقد، وغيظ، وخصومة، وشحناء، وبغضاء زاد الميل للعُدْوان والرغبة في التعدِّي على الناس وممتلكاتهم.

أما مدرسة التحليل النفسي الفرويدية فتتصور: أن الحسد عند البنات أعلى منه عند الأولاد، وردُّوا ذلك إلى عوامل فطرية قائلين: إن البنت تحسد الولد لامتلاكه قضيباً، وترغب في امتلاك مثله، فتميل إلى أبيها، وتغير عليه من أمِّها، وتسمِّي ذلك (عقدة الكترا) ويميل الولد إلى أمِّه، ويغير عليها من أبيه (عقدة أوديب).

وقد أثبتتْ الدراسات التجريبية خطأ هذا التصور نظراً لكون الحسد بين أفراد الجنس الواحد، أعلى منه بين أفراد الجنسين، فالبنت تحسد البنت مثلها أكثر ممَّا تحسد الأولاد، والولد يحسد الولد مثله أكثر مِمَّا يحسد البنات[1].

رابعاً: علاقة كل من الحسد والعين بالآخر:

وعلى ضوء ما قدمنا في ماهية الحسد والعين، وما في معناهما يتبيَّن الفرق بينهما، وخلاصته: أن الحسد أعم من وجه، وأخص من وجه آخر، وكذلك العين، فمن حيث السبب أو الباعث على الحسد والعين يلتقيان فيما كان سببه أو باعثه البغض أو الكراهية للنعمة تكون عند الغير، وإرادة زوالها عنه، وتنفرد العين فيما كان سببه الإعجاب والاستحسان، ومن حيث السعي في إزالة النعمة عن الغير يلتقيان فيما كانت وسيلته الرؤية، أو التوجه بالروح أو التوهم والتخيُّل، وينفرد الحسد فيما كانت وسيلته غير ذلك من الاتصال

---

(١) انظر: المدخل إلى علم الصحة النفسية للدكتور: كمال إبراهيم مرسي ص ٢٠٦ بتصرف.

والملامســـة، أو النميمـة، أو الأدعيــة، والرُّقى، والتعوُّذات، يقول ابن حجر: «والعـيـنُ تكون مع الإعجاب، ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحبِّ، ومن الرجـل الصالح»[(١)]، وفي هذا إشارة إلى الوجه الأول.

ويقول ابن القيِّم: «والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظنه مَنْ قلَّ علمه، ومعرفته بالطبيعة، والشريعة، بل التأثير يكون تارةً بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الرح نحو مَنْ يؤثر فيه، وتارةً بالأدعية، والرُّقى، والتعوُّذات، وتارةً بالوهم، والتخيُّل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإنْ لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه:

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾.

وقـال:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَـــب (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾[(٢)].

وفي هذا إشارة إلى الوجه الثاني.

---

(١) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٠٥.

(٢) انظر: زاد المعاد ٣/ ١١٨.

خامساً : حول حقيقة الحسد والعين بين الإنكار والإثبات :

ونعرض الآن أقوال المنكرين والمثبتين للحسد والعين، وأدلة كل فريق، ثم نوازن بين هذه الأدلة لمعرفة الرأي الراجح على هذا النحو :

أ . المنكرون للحسد والعين وأدلتهم :

أنكر الحسد والعين في نفرٌ من الناس، وهم الطبعيون الماديون الملحدون الذين يقولون : الكون مادة، ولا إله، ولا إيمان إلا بما تدرك الحواس الخمس، والطبيعة، أو الصدفة، أو قانون الأسباب والمسببات، هذه هي التي تحرك كل شيء في هذا العالم .

وما دمنا لا نرى اتصالاً محسوساً مباشراً بين الحاسد والعائن، وبين المحسود والمعيون عند نزول الضرر بكل منهما، فإنا لا نُسلِّم بالحسد والعين، وإنما هما من قبيل الأوهام والخيالات، فدليلهم إذن هو الواقع المدرك بالحواس .

يقول ابن القيِّم عن هذا النَّفر من النَّاس :

«فأبطلت طائفة مِمَّنْ قَلَّ نصيبهم من السَّمْع والعقل أمر العين وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها»(١) .

وقال المازري : «وقد أنكره طوائف من المبتدعة، والدليل على فساد ما قالوه : أن كلَّ معنى ليس بمحال في نفسه : ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إفساد بدليل، فإنه مِنْ مجوِّزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقوعه فلا معنى

(١) انظر : زاد المعاد ٣/ ١١٧ .

لتكذيبه، وهل فرق بين تكذيبه في هذا إذا ثبت جوازه، وبين تكذيبه فيما نخبر من أخبار الآخرة»(١) .

وإنصافاً لهؤلاء ينبغي التفريق بين إنكار أصل الفعل، وإنكار الأثر المترتب عليه، إذ هم لا ينكرون أصل الفعل، وإنما ينكرون الأثر المترتب عليه.

ب ـ المثبتون للحسد والعين وأدلتهم :

وأثبت الحسد والعين أهل السنة والجماعة، مستدلين بقوله تعالىٰ :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ (الفلق) .

إذ يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

« وقوله ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ دليل علىٰ أن الحسد يؤثر في المحسود ضرراً يقع به إمَّا في جسمه بمرضٍ، أو في ماله، وما يختص به بضرر، وذلك بإذن الله تعالىٰ ومشيئته، كما قد أجرىٰ عادته، وحقَّق إرادته، فربط الأسباب بالمسبِّبات، وأجرىٰ بذلك العادات، ثم أمرنا في دفع ذلك بالالتجاء إليه، والدعاء، وأحالنا علىٰ الاستعانة بالعُوَذ والرقىٰ»(٢) .

ويقوله تعالىٰ :

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ ﴾ (القلم).

---

(١) انظر : المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٥ـ١٥٦ ، وعنه نقل النووي في : المنهاج ٥/ ٣٢ .
(٢) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥/ ٥٦٤ .

وبقوله ﷺ : **«العَيْنُ حقٌ، ولو كان شيءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سبقتْهُ العيْنُ، وإذا استغسلتم فاغسلوا»**(١) .

إذ يقول القرطبي :

(قوله : **«العين حق»** أي ثابت موجود، لاشكَّ فيه، وهذا قول علماء الأمَّة، ومذهب أهل السنة)(٢) .

ويقول أيضاً :

(وقوله : **«ولو كان شيء سابَقَ القدر لسبقته العين»** هذا إغياء في تحقيق إصابة العين، ومبالغة فيه تجري مجرىٰ التمثيل، لا أنَّه يمكن أن يَرُدَّ القدر شيءٌ، فإن القدر عبارة عن سابق علم الله تعالىٰ ونفوذ مشيئته، ولا رادَّ لأمره، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، وإنما هذا خرج مخرج قولهم : لأطلبنَّك ولو تحت الثرَّىٰ، أو ولو صعدت إلىٰ السماء، ونحوه، مما يجري هذا المجرىٰ، وهو كثير »(٣) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب السَّلام : باب الطبِّ والمرضىٰ والرُّقىٰ ٥/ ٣٢ [المنهاج للنووي] من حديث ابن عباس مرفوعاً به، والترمذي في : السُّنن : كتاب الطب : باب أن العين حقٌ والغسل لها ٤/ ٣٤٧ برقم ٢٠٦٢ من حديث ابن عباس، والنسائي في : السُّنن [الكبرىٰ] كتاب الطب : باب العين ٤/ ٣٨١ برقم ٧٦٢٠/ ٤ من حديث ابن عباس به، وابن ماجة في : السنن : كتاب الطب : باب العين ٢/ ١١٥٩ برقم ٣٥٠٦ من حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه مرفوعاً، وبرقم ٣٥٠٨ من حديث أبي هريرة مرفوعاً، غير أنه اقتصر في الروايتين علىٰ قوله : **«العين حق»**، وبرقم ٣٥٠٨ من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ : **«استعيذوا بالله، فإن العين حق»**، غير أن في إسناده ـ كما قال البوصيري في : مصباح الزجاجة ـ أبا واقد، واسمه : صالح بن محمد بن زائدة الليثي وهو ضعيف.

(٢، ٣) انظر : المفهم ٥/ ٥٦٥، ٥٦٦ .

وبقوله ﷺ :

«والعين حقٌ، ويحضر بها الشيطان، وحسد ابن آدم»(١) .

وبقوله أيضاً :

«أكثر منَ يموت بعض قضاء الله وقدره بالنفس. يعني: بالعين»(٢) .

واستدلوا بأن العقل لا يمنع ذلك كما تقدم ردُّ المازري على الطبعيين .

كما استدلوا بالواقع نفسه، حيث يقول القرطبي :

«فكم من رجل أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أَحَلَّتْهُ القِدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال :

﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٠٢)(٣) .

ويبين أهل السنة والجماعة الكيفية التي يتم بها ذلك قائلين :

لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من العين ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسامَّ جسمه ، فيخلق الله سبحانه الهلاك عندها ، كما يخلق الهلاك عند شرب السُّمِّ ، عادة أجراها الله تعالى ، وليس ضرورة ، ولا طبيعة ألجأ إليها العقل(٤) .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٢/ ٤٣٩ دار صادر بيروت، ٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣ ، برقم ٩٣٧٦ من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

(٣) انظر : المفهم ٥/ ٥٦٥ .

(٤) انظر : المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٦ ، وعنه نقل النووي في : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/ ٣٢ .

وأيدوا هذه الكيفية بما هو مُشاهد في الواقع، حيث أجرىٰ الله العادة بوجود كثير من القوىٰ، والخواص في الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه مَنْ يحتشمه من الخجل، فيرىٰ في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية مَنْ يخافه(١).

يقول ابن حجر:

«وقد أشكل ذلك علىٰ بعض الناس فقال: كيف تعمل العين من بعد حتىٰ يحصل الضرر للمعيون؟ والجواب: أن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك مِنْ سمٍّ يصل مِنْ عين العائن في الهواء إلىٰ بدن المعيون، وقد نقل عن بعض مَنْ كان معياناً أنَّه قال: إذا رأيتُ شيئاً يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عيني، ويقرب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طُهرها لم يفسد، وكذا تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس من غير أن تمسَّها يدها، ومِنْ ذلك أن الصحيح قد ينظر إلىٰ العين الرمداء فيرمد، ويتثاءب واحد بحضرته فيتثاءب هو، أشار إلىٰ ذلك ابن بطال»(٢).

ويقول في موضع آخر:

«وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالىٰ في الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلىٰ العين، وليستْ هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها، وقواها، وكيفياتها، وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك الروح، وكيفيتها الخبيثة، والحاصل أن التأثير بإرادة الله ـ تعالىٰ ـ وخلقه

(١) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٠٠.
(٢) المرجع السابق: ١٠ / ٢٠٠، ٢٠١.

ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارةً به، وتارةً بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذي يحدث من الأدعية، والرُقى، والالتجاء إلى الله، وتارةً يقع ذلك بالتوهم، والتخيُّل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي إن صادف البدن لا وقاية له أثَّر فيه، وإلا لم ينفذ السَّهم، بل ربما رُدَّ على صاحبه كالسَّهْم الحسِّي سواء»[1].

هذا ومن المثبتين من فلاسفة الإسلام، وأصحاب المذهب العقلي مَنْ صورَّ هذه الكيفية قائلاً:

«إن العائن تنبعث من عينه قوَّة سُمِّية تتصل بالمعيون فيهلك أو يفسد، قالوا: لا يستنكر هذا كما لا يستنكر قوَّة سُمِّية من الأفعى والعقرب تتصل باللديغ فيهلك، وإن كان ذلك غير محسوس لنا فكذلك العين»[2].

وقد أبطل المازري هذا التفسير بقوله:

«وهذا عندنا غير مُسلم، لأنَّا بيَّنَّا في كتب علم الكلام ألا فاعل إلا الله تعالى، وبيَّنَّا فساد القول بالطبائع، وبيَّنَّا أن المحدَث لا يفعل في غيره شيئاً، وهذه الفصول إذا تقرَّرت لم يكن بنا حاجة معها إلى إثبات ما قالوه، ونقول: هل هذا المنبعث من العين جوهر أو عرض، فباطل أن يكون عرضاً إذ العرض لا ينبعث، ولا ينتقل، وباطل أن يكون جوهراً، إذ الجواهر متجانسة، فليس بعضها أن يكون مفسداً لبعض أولى من أن يكون الآخر مفسداً له، فإذا بطل كونه عرضاً أو جوهراً مفسداً على الحقيقة بطل مايشيرون إليه»[3].

---

(١) المرجع السابق: ١٠/ ٢٠٠، ٢٠١.

(٢، ٣) انظر: المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٦، وعنه نقل النووي في: المنهاج ٥/ ٣٢.

ويعني المازري بكلامه هذا: بطلان تأثير العين بذاتها كما يقول الفلاسفة، وأصحاب المذهب العقلي، وإنما تؤثر بإرادة الله تعالى وإذنه ومشيئته.

جـ - تقييم أقوال المنكرين والمثبتين للحسد والعين:

والراجح ما ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة: إثباتاً وكيفية لاسيما وقد جاء عن النبي ﷺ ما يصلح أن يُقاس عليه لشرح الكيفية المذكورة آنفاً.

إذ جاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه سمع النَّبيَّ ﷺ يخطب على المنبر يقول:

«اقتلوا الحيات، واقتلوا ذا الطُّفْيتين[1]، والأبتر[2]، فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحَبَل»[3].

---

(1) ذو الطُّفْيتين: الطُّفْية: خوصة المُقل في الأصل، وجمعها طُفىً، شبَّه الخطَّين اللذين على ظهر الحيَّة بخوصتين من خوص المقل، انظر: النهاية ٣/ ٤١.

(2) الأبتر: المقطوع الذنب، ومن الحيات: القصير الذنب الخبيث، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٣٧.

(3) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب قول الله تعالى: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ ٤/ ١٥٤، ومسلم في: الصحيح: كتاب السَّلام: باب قتل الحيات وغيرها ٤/ ١٧٥٢ - ١٧٥٣ رقم ٢٢٣٣ / ١٢٨، ١٢٩، وأبو داود في: السُّنن: كتاب الأدب: باب في قتل الحيَّات ٥/ ٤١١ برقم ٥٢٥٢ والترمذي في: السُّنن: كتاب الأحكام والفوائد: باب ما جاء في قتل الحيات ٤/ ٦٤ - ٦٥ برقم ١٤٨٣، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الطبِّ: باب قتل ذي الطُّفْيَتين ٢/ ١١٦٩ برقم ٣٥٣٥، وأحمد في المسند ٢/ ٩، ١٢١، كلهم من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

وعن أبي لبابة أن النَّبي ﷺ قال: «**لا تقتلوا الجِنَّان إلا كلَّ أبتر ذي طُفْيتين، فإنه يسقط الولد، ويُذهب البصر فاقتلوه**»(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال النبي ﷺ: «**اقتلوا ذي الطُّفْيتين فإنَّه يلتمس البصر، ويصيب الحمل**»(٢).

وفي رواية: «**أمر النبي ﷺ بقتل الأبتر، وقال: إنَّه يصيب البصر، ويُذْهِبُ الحَبَل**»(٣).

إذ ما يصدق على هذا الصنف من المخلوقات يصدق على الحاسد والعاين، فيكون الضرُّ والأذى إذا أراد الله - عز وجل - ذلك، وإلا فلا شيء، أمَّا المنكرون له أو المثبتون على غير وجهه فلا حجة لهم سوى الهوى أو التحكم العقلي المَحْض، غير أنه لابدَّ من التأكيد هنا أن لا يصح الإفراط في: ردِّ كل ضرر أو أذى إلى الحسد والعين، لا سيَّما وأنَّ تأثيرهما ليس من ذات الحاسد أو العائن، وإنَّما بمشيئة الله - عزَّ وجلَّ -.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب بَدْءِ الخلق: باب خير مال المسلم غَنَمٌ يتبع بها شعف الجبال ٤/ ١٥٦، ومسلم في: الصحيح: كتاب السلام: باب قتل الحيات وغيرها ٤/ ١٧٥٣ - ١٧٥٥ برقم ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، وأبو داود في: السُّنن: كتاب الأدب: باب قتل الحيَّات ٤/ ٤١٢ برقم ٥٢٥٣، وأحمد في: المسند ٣/ ٤٥٣ كلهم من حديث أبي لبابة مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(٢، ٣) الحديث بروايتيه أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب بَدْءِ الخلق: باب خير مال المسلم غنم يتبعُ بها شعف الجبال ٤/ ١٥٤، ومسلم في: الصحيح: كتاب السَّلام: باب قتل الحيات وغيرها ٤/ ١٧٥٢ برقم ٢٢٣٢ / ١٢٧، والنسائي في: السُّنن: كتاب المناسك: باب قتل الوزغ ٥/ ١٨٩، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الطبِّ: باب قتل ذي الطفيتين ٢/ ١١٦٩ برقم ٣٥٣٤، وأحمد في: المسند ٦/ ٢٩، ٤٩، ٨٣، ١٥٧، ٢٣٠ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

ولعلَّ الأخذ بأساليب الوقاية ـ التي ستُذكر في موضعها من هذا البحث ـ مما يحمي من آثار الحسد والعين، وكذلك الأخذ بأساليب العلاج مما يبطل هذا الأثر إن وقع لا قدَّر الله.

أجل: إن تجنُّب مثل هذا الإفراط يجعل المرء يمشي في الحياة آمناً مطمئناً وعلى الأخص عندما يتجنَّب المعاصي والسيئات، ويتبع ذلك بالالتزام والمحافظة على الطاعات.

قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ (الأنعام).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد).

وفي ضوء ما تقدم من إثبات الحسد والعين وتأثيرهما بمشيئة الله ـ تعالى ـ لا يقولن قائل: إذا كان للحسد أو للعين تأثير ضار مِنْ غير ملامسة، فلماذا يطير الطيارون بالطائرات الضخمة ولا يصابون بأذى؟ ولماذا يخترع المخترعون، وينبغ النابغون في قوم كفَّار ماديين؟ ولماذا بلغتْ إسرائيل ما بلغتْ من السيطرة على فلسطين، بل على العالم العربي، والإسلامي، والغربي، وتسخير هؤلاء جميعاً في التمكين لها، وترسيخ أقدامها؟

لا يقولنَّ ذلك لأن الله لم يأذن بشيء من ذلك، ولم يشأ، ومادام لم يأذن ولم يشأ فلا تأثير ولا ضرر.

سادساً : حول حكم الحسد والعين والحاسد والعائن :

ولابد من بيان حكم الحسد والعين، وكذلك الحاسد والعائن في ضوء السنة النبوية، على هذا النحو :

أ- حكم الحسد والعين :

يتفق العلماء : أن الحسد، والعين بمعنى تمنِّي زوال النعمة أو عدم نزولها بمن هو أهل لها مع السَّعي في تحقيق ذلك بكل وسيلة ممكنة : حرام، لقوله تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ (الفلق ١-٥).

يقول ابن القيِّم - رحمه الله - :

«وتأمَّل تقييده سبحانه : شرَّ الحاسد بقوله : **﴿إِذَا حَسَدَ﴾** لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه مَّا، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً مِنْ ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحبُّ الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا مَنْ عصم الله.

وقيل للحسن البصري : أيحسدُ المؤمن؟ قال : ما أنساك لإخوة يوسف. لكن الفرق بين القوَّة التي في قلبه مِنْ ذلك، وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعةً لله، وخوفاً، وحياءً منه، وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفةً لله، وبغضاً لما يحبُّ الله، ومحبَّةً لما يبغضه فهو يجاهد

نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتَمنِّي زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقَّق ذلك وحسده، ورتَّب على حسده مقتضاه: من الأذى بالقلب، واللسان، والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمنِّي الزوَّال، ومثله: تمنِّي استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يجب أن يبقى على حاله مِنْ جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه فهو يتمنَّى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدَّر، والأول حسد على شيء محقَّق، وكلاهما حاسد عدوُّ نعمة الله وعدوُّ عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس، ولا يسود أبداً، ولا يواسى، فإنَّ النَّاس لايسوِّدون عليهم إلا مَنْ يريد الإحسان إليهم، فأمَّا عدوُّ نعمة الله عليهم فلا يسوِّدونه باختيارهم أبداً، إلا قهراً يعدُّونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه، وهو يبغضهم»(١) .

ولقوله ﷺ : **«لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً...»** الحديث (٢) .

أمَّا الحسد والعين بمعنى تمنِّي زوال النعمة أو عدم نزولها بمن ليس أهلاً لها من كافر أو فاسق يستعين بها على معاصي الله تعالى، فليس بمذموم بل هو ممدوح»(٣) .

لقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ

---

(١) انظر : بدائع التفسير ٥/ ٤٢٣ـ٤٢٤ .
(٢) الحديث سيأتي تخريجه بعد قليل .
(٣) انظر : فتح الباري ١/ ١٦٧ بتصرف .

الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ (يونس).

يقول ابن عطية :

« معناه : أهلكها، ودمِّرْها، وروىٰ أن الطمسة كانت من آيات موسىٰ ـ عليه السلام ـ التسع، وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ بمعنىٰ اطبع، واختم عليهم بالكفر »(١) .

ولقول نوح ـ عليه السلام ـ :

﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ (نوح).

ورجا النبي ﷺ يوم بدر عير قريش لتكون نافلةً للمسلمين تعويضاً لهم عما تركوه في مكة من ناحية، وإزالة لهذا المال من أيدي الكفار لكونهم يستخدمونه في المعصية، ومنها حرب الله ورسوله والمسلمين من ناحية أخرىٰ.

فقد جاء في الحديث أن النَّبي ﷺ لما سمع بأبي سفيان مُقبلاً من الشام : ندب المسلمين إليهم، وقال :

« هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها.. »(٢) .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ٧/ ٢٠٦ .

(٢) الحديث أورده ابن هشام في : السيرة النبوية ٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧ من طريق ابن إسحاق بسند صحيح حيث صرَّح ابن إسحاق بالتحديث.

وأما الحسد بمعنىٰ الغبطة أي تمنِّي مثل ما عند الغير من النعمة دون زوالها عنه فجائز، لحديث:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها»[1].

وقد اختلف العلماء في المراد بالحسد في الحديث.

فذهب نفر إلىٰ أن المراد به الغبطة يعني: تمنِّي مثل ما للغير من النعمة دون زوالها عنه، وأيَّد هذا الفهم حديثُ أبي هريرة مرفوعاً:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل علَّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النَّهار، فسمعه جارٌ له، فقال: ليتني أُوتيتُ مثلما أوتي فلان، فعملتُ مثلما يعمل، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو يُهلكه في الحقِّ، فقال رجل: ليتني أُوتيت مثلما أوتي فلان، فعملتُ مثلما يعمل»[2].

يقول ابن حجر في تصوير هذا الرأي:

«وأمَّا الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازاً، وهو أن يتمنىٰ أن يكون له مثلما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص علىٰ هذا يسمَّىٰ منافسة، فإن كان في الطاعة فهو محمود، ومنه ﴿ **فليتنافس المتنافسون** ﴾، وإن كان في معصية فهو مذموم، ومنه: ﴿ **ولا تنافسوا** ﴾ وإن كان في الجائزات فهو مباح، فكأنه قال في الحديث: لا غبطة أعظم أو أفضل

---

(١) الحديث سبق تخريجه في الفصل الأول، وسيأتي في الفصل الرابع بتفصيل أكثر.
(٢) الحديث سبق تخريجه في: الفصل الأول.

من الغبطة في هذين الأمرين، ووجه الحصر: أن الطاعات إمَّا بدنية، أو مالية، أو كائنة عنهما، وقد أشار إلىٰ البدنية بإتيان الحكمة والقضاء بها، وتعليمها»[1].

وذهب نفر ثان إلىٰ أن الحسد في الحديث علىٰ حقيقته، والاستثناء منقطع، والمعنىٰ عليه: نفي الحسد مطلقاً، لكن هاتان الخصلتان محمودتان، ولا حسد فيهما، فلا حسد أصلاً[2].

وذهب نفر ثالث إلىٰ أنَّ الكلام جرى مجرىٰ المبالغة في الحثّ علىٰ تحصيل هاتين الخصلتين، كأنَّه قيل: لو لم يمكن تحصيل هاتين الخصلتين إلا بالطريق المذموم وهو الحسد، لكان ما فيهما من الفضل حاملاً علىٰ الإقدام علىٰ تحصيلهما بهذه الطريق، فكيف والطريق المحمود تساعد علىٰ تحصيلهما[3].

ب ـ حكم الحاسد والعائن:

وأمَّا حكم الحاسد والعائن فقد قال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي ت٦٥٦هـ: «مَنْ عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعاً لضرره، قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، وكفّ أذاه عن النَّاس، ولو انتهتْ إصابة العين إلىٰ أن يُعْرَف بذلك، ويُعْلَمَ من حاله أنَّه كلما تكلم بشيء مُعظِّماً له، أو مُتعجِباً منه أُصِيب ذلك الشيء،

(١) انظر: فتح الباري ١/ ١٦٧.
(٢) انظر: فتح الباري ١/ ١٦٧.
(٣) انظر: فتح الباري ٩/ ٧٣ بتصرف.

وتكرر ذلك بحيث يصير ذلك عادةً، فما أتلفه بعينه غرمه، وإن قتل أحداً بعينه عامداً لقتله قتل به كالسَّاحر القاتل بسحره عند مَنْ لا يقتله كفراً»[1].

ويمكن حمل كلام هذا النفر من العلماء على ما إذا استخدم الحاسد والعائن قوىً خفية كالسحر أو الجنِّ مثلاً.

وذهب الشافعية إلى أنَّه لا قصاصَ، ولا ديةَ، ولا كفارةَ على الحاسد أو العائن إذا تسبب بعمله هذا في قتل غيره، معللين: أن ذلك لا يقتل غالباً، ولا يُعد مهلكاً.

قال النووي ـ رحمه الله ـ:

«ولا ديَة فيه ولا كفَّارة، لأنَّ الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال مما لا انضباط له، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً، وإنما غايته حسد، وتمنٍّ لزوال نعمة، وأيضاً فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعيَّن ذلك المكروه في زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين[2].

وتصوُّري أن الأمر أولاً وآخراً مرجعه إلى الإمام يتصرف بما يراه مناسباً، لكن لا يسمح لمثل هذا الصنف من الناس بعد اليقين الذي لاشكَّ معه بخطره أن يخالط الناس ويعايشهم، وعليه أن يوفِّر له ولأهله وولده، وذويه كفايتهم من العيش المناسب، وهذا ما نقله ابن بطال عن بعض أهل العلم: أنه ينبغي للإمام منع العائن إذا عُرف بذلك مداخلة الناس، وأن يلزم بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي أمر عمر ـ

---

(١) انظر: المفهم ٥/ ٥٦٨.

(٢) انظر: روضة الطالبين ٩/ ٣٤٨، وعنه نقل ابن حجر في: فتح الباري ١٠/ ٢٠٥.

رضي الله عنه ـ بمنعه من مخالطة الناس كما تقدَّم واضحاً في بابه، وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع آكله من حضور الجماعة»[1].

وعقَّب النووي على هذا الرأي بقوله:

«وهذا القول صحيح متعيِّن لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه»[2].

وينبغي الانتباه إلى أمر في غاية الأهمية في هذا المقام ألا وهو: عدم اتهام أحد من الناس بالحسد أو العين إلا بالبيِّنة المتمثلة في الإقرار أو العلم من حاله أنَّه كلما تحدَّث بشيء على جهة التعظيم، أو التعجب منه، أُصيب ذلك الشيء، وتكرر منه بحيث تصير عادةً له.

سابعاً: أسباب الحسد والعين:

وهناك أسباب وبواعث توقع في كلٍّ من الحسد، والعين، ودونك هذه الأسباب، وتلك البواعث:

١ ـ وقوف المرء عند النعمة يراها في يد الغير، وقد حُرِم هو منها مع نسيان المنعم وحكمته:

ذلك أن وقوف المرء عند النعمة يراها في يد الغير من: صحة، وعافية، وعلم، ووجاهة، ومال، ورئاسة، وأهل، وولد، وعشيرة، ونحوها، وقد حرم هذا المرء من هذه النعمة مع نسيان المنعم، وأنه سبحانه قسّم النِّعم بين عباده بحكمة وتقدير، بحيث يستوي العباد في نعم الدنيا في النهاية، ولا يبقى التفاضل إلا بالتقوى، وصالح العمل ذلك كله يفتح الطريق أمام

(١، ٢) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٠٥.

الشيطان ليلقي في النفس طائفة من التساؤلات: لم كانت هذه النعمة عند فلان من الناس؟ ولِمَ خُصَّ بها دوني وهو لا يبلغ من الأهلية لها ما بلغتُ؟ ولِمَ لَمْ تكن لي من أول الأمر؟ وإن هذه النعمة التي أصابته دوني جعلتْ له مكاناً مرموقاً بين الناس، ويظل الشيطان يُلقي هذه التساؤلات على النفس، وينفخ فيها حتى تصل إلى حدٍّ كراهية هذه النعمة عند الغير، وتمنِّي زوالها مطلقاً، أعم من أن تؤول إليه أو إلى غيره، بل العمل بالفعل على تحقيق ذلك بوسيلة أو أكثر من وسائل الحسد، والعين التي ذكرنا آنفاً.

وكراهية النعمة عند الغير، وتمنِّي زوالها عنه، والعمل على تحقيق ذلك بوسيلة أو بأخرى إنما هو الحسد أو العين كما قدمنا.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يجتمعان في النَّار: مسلم قتل كافراً، ثم سدَّد وقارب، ولايجتمعان في جوف مؤمن: غبار في سبيل الله، وفحيح جهنَّم، ولايجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد»[1].

والحديث دالٌّ بمنطوقه، أو بلفظه على أنَّ الإيمان بالله المنعم لا يجتمع مع الحسد أبداً، بل إذا وُجِد أحدهما انتفى الآخر، فإذا وجد الإيمان بالله انتفى الحسد، وإذا انتفى الإيمان بالله وُجِد الحسد، سواء فسِّر انتفاء الإيمان بانتفاء أصله - وهو الكفر بكل صوره وأشكاله من الإلحاد والشرك - أم فُسِّر

(١) الحديث أخرجه النسائي في: السنن: كتاب الجهاد: باب فضل مَنْ عمل في سبيل الله على قدمه ٦/ ١٢ - ١٣ (المجتبى) ٣/ ٩ - ١٠ رقم (٤ - ٧) ٤٣١٧ - ٤٣٢٠ (الكبرى) عن عيسى ابن حماد، عن ليث، عن محمد بن عجلان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه ذكوان، عن أبي هريرة به، واختلف فيه على سهيل.

بانتفاء كماله.

يقول العلامة السِّندي في حاشيته على سنن النسائي تعليقاً على الجملة الأخيرة من الحديث:

«هذا تقبيح للحسد، وبيان أنَّه لا ينبغي للمؤمن أن يحسد فإنه ليس من شأنه ذلك، فمعنى لا يجتمعان ههنا: أنه ليس من شأن المؤمن أن يجمعهما، ويحتمل أن المراد بالإيمان كماله، فليتأمَّل: (يعني: المراد بالإيمان أصله، أو كماله) والله تعالى أعلم»(١).

وقد حدثنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه الكريم عن صنفين من الكفار قادهم الكفر بالله إلى الحسد: وهما أهل الكتاب: اليهود والنصارى، ومشركوا مكة، أمَّا أهل الكتاب: اليهود والنصارى فقد حسدوا محمداً وأمَّته على الفضل الذي حباهم الله به، حيث أعطى الله محمداً الرسالة العالمية الخاتمة، ووعد بحفظها بنفسه، وجعل أمته خير أمَّة أُخرِجَت للناس، وبلغ بهم الحسد حدّاً ودُّوا معه أن نصير كفاراً مثلهم، قال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾ (النساء).

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ:

---

(١) ٦/ ١٣ بهامش: المجتبى، وزهر الرُّبى.

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله عاتب اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، فقال لهم في قيلهم للمشركين مِنْ عَبَدَة الأوثان: أنهم أهدى من محمد، وأصحابه سبيلاً على علم منهم بأنهم في قيلهم ما قالوا مِنْ ذلك كذبةً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، وإنَّما قلنا ذلك أولى بالصَّواب، لأن ما قَبْلَ قوله: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله مِنْ فضله مضى بذمٍّ القائلين من اليهود للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، فإلحاق قوله: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله مِنْ فضله، بذمِّهم على ذلك، وتقريظ للذين آمنوا الذين قيل فيهم ما قيل أشبه، وأولى، ما لم يأت دلالة على انصراف معناه، عن معنى ذلك، واختلف أهل التأويل في تأويل الفضل الذي أخبر الله أنَّه آتى الذين ذكرهم في قوله: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله، فقال بعضهم: ذلك الفضل هو النبوَّة، وقيل غير ذلك».

واختار ابن جرير: أن هذا الفضل: هو النبوَّة التي فضَّل بها محمداً وتشرَّف بها العرب، فقال: «وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول قتادة، وابن جريج: أن معنى الفضل في هذا الموضع النبوَّة التي فضل الله بها محمداً، وشرَّف بها العرب إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم»[1].

ويقول الألوسي ـ رحمه الله ـ:

«أم يحسدون الناس: انتقال عن توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد الذي هو مِنْ أقبح الرَّذائل المهلكة من اتصف بها دنيا، وأخرى، وذكره بعده من باب الترقِّي، وأَمْ منقطعة، والهمزة المقدَّرة بعدها لإنكار الواقع والمراد من

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٥/ ٨٨ المجلد الرابع.

الناس: سيِّدهم بل سيد الخليقة على الإطلاق: محمد ﷺ وإلى هذا ذهب عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وأبو مالك، وعطيَّة...

وذهب قتادة، والحسن، وابن جريج إلى أن المراد بهم: العرب، وعن أبي جعفر، وأبي عبدالله: أنهم النبي ﷺ وآله عليه، وعليهم أفضل الصلاة، وأكمل التسليم، وقيل: المراد بهم جميع الناس الذين بعث إليهم النبي ﷺ من الأسود والأحمر، بل أيحسدونهم: يعني النبوةَ... أو بعثة النبي ﷺ منهم، ونزول القرآن بلسانهم: أو جمعهم كمالات تقصر عنها الأماني، أو تهيئة سبب رشادهم ببعثة النبي ﷺ إليهم، والحسد على هذا مجاز، لأن اليهود لما نازعوه في نبوَّته ﷺ التي هي إرشاد لجميع الناس فكأنَّما حسدوهم جمع»[1].

وقال تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... ﴾ (البقرة: ١٠٩).

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ:

«ويعني بقوله ـ جل ثناؤه ـ حسداً من عند أنفسهم: أن كثيراً من أهل الكتاب يودُّون للمؤمنين ما أخبر الله ـ جلَّ ثناؤه ـ عنهم: أنهم يودُّونه لهم من الرِّدَّة عن إيمانهم إلى الكفر، حسداً منهم، وبغياً عليهم، والحسد إذن منصوب على غير النَّعت للكفار، ولكن على وجه المصدر الذي يأتي خارجاً من معنى الكلام الذي يخالف لفظه لفظ المصدر، كقول القائل لغيره: تمنَّيتُ لك ما

(١) انظر: روح المعاني ٥/ ٧٥ المجلد الثاني.

تمنَّيْتُ من السوء حسداً منِّي لك، فيكون الحسد مصدراً من معنىٰ قوله: تمنَّيْتُ من السوء، لأن في قوله: تمنَّيْتُ لك ذلك معنىٰ: حَسَدْتُكَ علىٰ ذلك، فعلىٰ هذا نصب الحسد، لأن في قوله: ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً، يعني حسدكم أهل الكتاب علىٰ ما أعطاكم الله من التوفيق، ووهب لكم من الرشاد لدينه، والإيمان برسوله، وخَصَّكم به من أن جعل رسوله إليكم رجلاً منكم، رءوفاً بكم رحيماً، ولم يجعله منهم، فتكونوا لهم تبعاً، فكان قوله: حسداً مصدراً من ذلك المعنىٰ، وأمَّا قوله: من عند أنفسهم، فإنه يعني بذلك مِنْ قبل أنفسهم، كما يقول القائل: لي عندك كذا، وكذا، بمعنىٰ لي قبلك... وإنما أخبر الله - جل ثناؤه - عنهم المؤمنين أنهم ودُّوا ذلك للمؤمنين مِنْ عند أنفسهم، إعلاماً منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم، وأنهم يؤتون ما يؤتون من ذلك علىٰ علم منهم بنهي الله إياهم عنه»(1).

ويقول سبحانه عن المشركين:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... ﴾ (الزخرف).

يقول ابن جرير - رحمه الله -:

«وقوله: أهم يقسمون رحمة ربك، يقول تعالىٰ ذكره: أهؤلاء القائلون لولا نُزِّل هذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم: يا محمد، يقسمون رحمة

(1) انظر: جامع البيان 1/ 389 المجلد الأول.

ربِّك بين خلقِه، فيجعلون كرامته لمن شاءوا، وفضله لمن أرادوا، أم اللـه الذي يقسم ذلك، فيعطيه مَنْ أحب، ويحرمه مَنْ شاء. . . ؟ وقوله: نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، يقول تعالىٰ ذكره: بل نحن قسمنا رحمتنا وكرامتنا بين مَنْ شئنا مِنْ خَلقِنا فنجعل من شئنا رسولاً، ومَنْ أردنا صديقاً، ونتَّخِذ مَنْ أردنا خليلاً كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات، فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجةً، بل جعلنا هذا غنيّاً، وهذا فقيراً، وهذا مَلِكاً، وهذا مملوكاً، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً»(١).

ويقول ابن كثير - رحمه الله -:

«وقالوا: أي كالمعترضين علىٰ الذي أنزله تعالىٰ، وتقدَّس! لولا نُزِّل هذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم: أي هلاَّ كان إنزال هذا القرآن علىٰ رجل عظيم: كبير في أعينهم، من القريتين: مكة والطائف، وقد ذكر غير واحد من السَّلف أنهم أرادوا بذلك: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف، وقال السُّدِّي: عنوا بذلك: الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عمرو الثقفي، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان، قال تعالىٰ ردّاً عليهم في هذا الاعتراض: أهم يقسمون رحمة ربِّك؟ أي ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلىٰ الله - عز وجل - والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا علىٰ أزكىٰ الخلق قلباً، ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً، ثم قال - عز وجل - مبيِّناً أنه قد فاوت بين خلقه، فيما أعطاهم من الأموال الأرزاق، والعقول،

(١) انظر: جامع البيان ٢٥/ ٤٠، ٤١ المجلد الحادي عشر.

والفهوم، وغير ذلك من القوىٰ الظاهرة والباطنة، فقال: نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. . . الآية»[1].

ويقول سبحانه عن المشركين أيضاً:

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ (القلم).

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ:

«يقول ـ جل ثناؤه ـ وإنْ يكاد الذين كفروا يا محمد، ينفذونك بأبصارهم مِنْ شدة عدواتهم لك، ويزيلونك، فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظاً عليك، وقد قيل: إنه عنىٰ بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مِمَّا عانوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد، ويصرعونك كما تقول العرب كان فلان يصرعني بشدَّة نظره إليَّ، قالوا: وإنما كانت قريش عانوا رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين، فنظروا إليه ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلاً مثله، أو إنه لمجنون، فقال الله لنبيِّه عند ذلك: وإنْ يكاد الذين كفروا ليرمونك بأبصارهم لـمَّا سمعوا الذكر، ويقولون إنه لمجنون» ثم ساق من المأثور ما يؤكد ذلك[2].

ويقول الماوردي:

«فيه ـ أي قوله «ليزلقونك» ـ ستة أوجه: أحدها: معناه، ليصرعونك، قاله الكلبي، الثاني: ليرمقونك، قاله قتادة، الثالث: ليزهقونك، قاله ابن عباس، وكان يقرؤها كذلك، الرابع: لينفذونك، قاله مجاهد، الخامس:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧ بتصرف.
(٢) انظر: جامع البيان ٢٩/ ٢٩.

ليمسُّونك بأبصارهم مِنْ شدَّة نظرهم إليك، قاله السُّدِّي، السادس: ليعتانونك، أي لينظرونك بأعينهم، قاله الفراء، وحكىٰ أنهم قالوا: ما رأينا مثل «حجمه»[1]، ونظروا إليه ليعينوه، أي ليصيبوه بالعين، وقد كانتْ العرب إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً يعني في نفسه، أو ماله، تجوَّع ثلاثاً، ثم يتعرض لنفسه أو ماله، فيقول: تالله ما رأيتُ أقوىٰ منه، ولا أشجع، ولا أكثر مالاً منه ولا أحسن، فيصيبه بعينه، فيهلك هو وماله، فأنزل الله هذه الآية»[2].

ويقول الألوسي ـ رحمه الله ـ:

«والمعنىٰ أنهم لشدَّة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدَمَك، فيرمونك، مِنْ قولهم: نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني، أو يكاد يأكلني، أي لو أمكنه بنظره الصرع، أو الأكل لفعله، وجعل مبالغة في عداوتهم حتىٰ كأنما سرت من القلب والجوارح إلىٰ النظر، فعاد يعمل عمل الجوارح، وأنشدوا قول الشاعر:

يتقارضون إذا التقَوا في موطن ... نظراً يزل مواطئ الأقدام

أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين، إذ روي أنه كان في بني أسد عيانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ فنزلتْ، وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فتسقط طائفة منها، وتهلك، فاقترح الكفار منه أن يصيب رسول الله ﷺ فأجابهم وأنشد:

---

(١) ولعل الصواب «حُجَّتَهُ» انظر: بدائع التفسير ٥/ ٤١٦.
(٢) انظر: النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

قد كان قومُك يحسبُونَكَ سيِّداً وأخالُ أنكَ سيِّدٌ مَعيون

فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل عليه هذه الآية »[1].

٢ - بسط الدنيا وتنافسها :

وقد يكون من أسباب الحسد والعين: بسط الدنيا وتنافسها: ذلك أنَّ الدنيا إذا أقبلتْ على الناس، ولم يكونوا على بصيرة بالضوابط التي وضعها الشارع الحكيم للتعامل مع هذه الدنيا، فإنهم يقعون في شراك التنافس فيها، ويقودهم هذا التنافس إلى الحسد: وذلك ما لفت النبيُّ ﷺ النظر إليه حين قال:

« إذا فُتِحت عليكم فارس والروم، أي قومٍ أنتم؟ »

قال عبدالرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله[2]، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٩/ ٣٨.

(٢) قوله: «نقول كما أمرنا الله»: معناه - كما ذكر النووي في: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٨/ ٩٦م٩ -: «نحمده، ونشكره، ونسأله المزيد من فضله»: - وكما ذكر القرطبي في: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٧/ ١١٤ -: «أي نقول قولاً مثل الذي أمرنا الله وكأنَّ هذا منه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل...**﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وذلك أنه فهم أن رسول الله ﷺ خاف عليهم الفتنة من بسط الدنيا عليهم، فأجابه بذلك، فكأنَّه قال: «نَسْتكفي الفتن، والمحن بالله، ونقول كما أمرنا الله، وهذا إخبار منهم عما يقتضيه حالهم في ذلك الوقت، فأخبرهم النبي ﷺ بأنهم لا يبقون على تلك الحال، وأنها تتغيَّر بهم» أقول والرأي أنه لا تعارض بين التفسيرين، إذ المسلم يرى أنَّ إقبال الدنيا مثل إدبارها محنة، بل أشد كما قال سليمان عليه السلام حين منَّ الله عليه بما منَّ: ﴿**قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾**﴾ (النمل)، والواجب عليه حينئذٍ هو: الحمد، والشكر بالعطاء، وسؤاله المزيد من فضله، وكذلك الاستعانة به سبحانه خشية الافتتان، واستخدامها في غير مرضاة الحق - تبارك وتعالى -.

«أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون إلى مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»(١) .

وحين قال :

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب ما يحذر من بسط الدنيا، ومن التنافس ٤/ ٢٢٧٤ ـ ٢٢٧٥ رقم ٢٩٦٢، وابن ماجه في : السُّنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٤ رقم ٣٩٩٦ كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً، واللفظ لمسلم، وقوله : «**ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين...**» الحديث، فسَّره بعضهم : أنه إذا وقع التنافس بينهم والتحاسد، والتباغض : أخذ القويُّ حقَّ المسكين من المهاجرين الذي لا يقدر على مدافعته بالقهر والغلبة، مستدلاً بسياق الحديث وبرواية السمرقندي : «فيحملون» بدل «فيجعلون»، ولكن القاضي عياض لم يرض هذا التفسير محتجاً: أن هذا كلام مستأنف لا ارتباط له بما قبله، ثم قال: «والأشبه أن يكون الكلام على وجهه، وأراد أن مساكين المهاجرين، وضعفتهم ستفتح عليهم إذ ذاك الدنيا حتى يكونوا أمراء بعضهم على رقاب بعض»، ولم يرتض القرطبي إبطال القاضي عياض هذا الرأي، ولا تفسيره الذي اختاره قائلاً كما في المفهم ٧/ ١١٥ـ ١١٦ـ: «قلتُ: والعجب من إنكار القاضي على هذا المتأول، واختياره هذا المعنى الذي لا يقبله مساق الحديث، ولا يشهد له معناه، وذلك أن معنى الحديث : أنه أخبرهم أنهم تتغيَّر بهم الحال، وأنهم يصدر عنهم أو عن بعضهم أحوال غير مَرضية، تُخالف حالهم التي كانوا عليها معه من التنافس والتباغض، وانطلاقهم في مساكن المهاجرين، فلابدَّ أن يكون هذا الوصف غير مرضيٍّ كالأوصاف التي قبله، وأن تكون تلك الأوصاف المتقدمة توجبه، وحينئذ يلتئم الكلام أوله وآخره، ولا يصح ذلك إلا بذلك التقدير الذي أنكر القاضي، فيكون معنى الحديث : أنه إذا وقع التنافس، والتحاسد، والتباغض، حملهم ذلك على أن يأخذ القويُّ ما أفاءه الله تعالى على المسكين الذي لا يقدر على مدافعته فيمنعه عنه ظلماً، وهذا بمقتضى التنافس، والتحاسد، والتباغض، ويعضده رواية السمرقندي : «فيحملون بعضهم على رقاب بعض»، أي بالقهر والغلبة، وأما ما اختاره القاضي فغير ملائم للحديث، فتدبَّرْهُ تجده كما أخبرتك، والله تعالى أعلم».

«فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطتْ على مَنْ قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم»(١) .

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن النَّبيَّ ﷺ خرج يوماً فصلَّى على أهل أُحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: **«إني فرط لكم، وإني شهيدٌ عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»**(٢) .

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الجزية: باب الجزية والمواعدة... ٤/ ١١٧ ـ ١١٨، وكتاب المغازي: باب منه ٥/ ١٠٨، وكتاب الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/ ١١٢، ومسلم في: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب ما يحذر من بسط الدنيا ومن التنافس ٤/ ٢٢٧٣ رقم ٢٩٦١، والترمذي في: السُنن: كتاب صفة القيامة.. باب منه ٤/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣ رقم ٢٤٦٢، وابن ماجه في: السُنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٤ ـ ١٣٢٥ رقم ٣٩٩٧، وأحمد في: المسند ٤/ ١٣٧، ٣٢٧، كلهم من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ـ وهو حليف لبني عامر بن لؤي، وكان شهد بدراً ـ أن رسول الله ﷺ بعث أباعبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ قد صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النَّبي ﷺ فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: **«أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟»** قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا....» الحديث، وعقَّب الترمذي على روايته بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الجنائز: باب الصلاة على الشهيد ٢/ ١١٤ ـ ١١٥، وكتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام ٤/ ٢٤٠، وكتاب المغازي: باب غزوة أحد وباب أحد جبل يحبنا ٥/ ١٢٠، ١٣٢، وكتاب الرقاق: باب في الحوض=

وعن أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم مِنْ زهرة الدنيا**» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟، قال: «**بركاتُ الأرض...**» الحديث(١).

وقد علَّق العلاَّمة القرطبي على حديث عبدالرحمن بن عوف بقوله: «أي: تتسابقون إلى أخذ الدنيا، ثم تتحاسدون بعد الأخذ، ثم تتقاطعون فيولِّي كل واحد منكم دبره عن الآخر معرضاً عنه، ثم تثبتُ البغضاء في القلوب، وتتراكم حتى يكون عنها الخلاف، والقتال، والهلاك، كما قد وجد»(٢).

كما علَّق عليه الإمام النووي بقوله:

«قال العلماء: التنافس إلى الشيء: المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إيَّاه، وهو أول درجات الحسد...»(٣).

=٨/ ١٥١، ومسلم في: الصحيح: كتاب الفضائل: باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ٤/ ١٧٩٥-١٧٩٦ رقم ٢٢٩٦ / ٣٠-٣١، وأحمد في المسند ٤/ ١٤٩ كلهم من حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتامى ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠، وكتاب الجهاد: باب فضل النفقة في سبيل الله ٤/ ٣٢، ومسلم في: الصحيح: كتاب الفضائل: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ٢/ ٧٢٧- ٧٢٩ رقم ١٠٥٢ / ١٢١ ـ ١٢٣، والنسائي في: السُّنن: (الصغرى): كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتيم ٥/ ٩٠ ـ ٩١ (الكبرى) ٢/ ٤٨ رقم ٢٣٦٢، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٣ رقم ٣٩٩٥، وأحمد في: المسند ٣/ ٧، ٢١، ٩١، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: المفهم لما أُشكِل مِنْ تلخيص كتاب مسلم ٧/ ١١٤.

(٣) انظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١٨/ ٩٦/ م٩.

٣ ـ الاستعلاء والتكبر:

وقد يكون السبب في الحسد إنَّما هو الاستعلاء والتكبر ذلك أنَّ مَنْ يستعلي أو يتكبر في الأرض بغير الحقّ لا يحبُّ أن يرىٰ أحداً فوقه أو أعلىٰ منه، ولئن رأىٰ مَنْ يفوقه أو يتقدم عليه، وهو غير قادر علىٰ مضاهاته أو مساواته فإنه يحقد عليه، وبمرور الزمن يتحول الحقد إلىٰ حسد، ولعل هذا من السَّير في سبيل الغيِّ الذي هو دأب المتكبرِين، قال تعالىٰ:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾.

(الأعراف).

ولعلَّ منه أيضاً امتناع إبليس من السجود لآدم استعلاءً وتكبراً بدعوىٰ أنه خير منه من حيث إن الله خلقه من نار، وآدم من طين، وعنده أن النار أفضل من الطين، قال تعالىٰ:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾ (ص).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ (البقرة).

وقد نقل أبو الليث السمرقندي تلميح بعض الحكماء إلىٰ ذلك، ثم عقب عليه بما يجلِّيه ويوضحه فقال: «وقال بعض الحكماء: إياكم والحسد فإن الحسد أول ذنب عُصي الله تعالىٰ به في السَّماء، وأول ذنب عُصي الله تعالىٰ به في الأرض، وإنَّما أراد بقوله: أول ذنب عُصي الله تعالىٰ به في السَّماء يعني: إبليس حين أبىٰ أن يسجد لآدم، وقال: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾، فحسده، فلعنه الله تعالىٰ بذلك، وأمَّا الذي عصىٰ الله تعالىٰ به في الأرض فهو قابيل بن آدم حين قَتَلَ أخاه هابيل حسداً، وهو قوله تعالىٰ:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ (المائدة)»[1].

٤ ـ العداوة والبغضاء مع عدم القدرة على الانتقام:

وقد تكون العداوة والبغضاء مع عدم القدرة على الانتقام من بين الأسباب أو البواعث التي تدفع إلىٰ الحسد.

وهذا ما لفت الحق ـ تبارك وتعالىٰ ـ النظر إليه في قوله سبحانه:

(١) انظر: تنبيه الغافلين بأحاديث سيِّد الأنبياء والمرسلين: باب الحسد ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... ﴾ (آل عمران).

يقول الألوسي ـ رحمه الله ـ :

«[إن تمسسكم] أيها الذين آمنوا [حسنة] نعمة من ربِّكم، كالألفة، واجتماع الكلمة، والظفر بالأعداء [تسؤهم] أي تحزنهم، وتغظهم، [وإن تصبكم سيئة] أي محنة، كإصابة العدو منكم، واختلاف الكلمة فيما بينكم [يفرحوا]، أي يبتهجوا [بها]، وفي ذلك إشارة إلى تناهي عداوتهم إلى حدِّ الحسد، والشماتة»(١).

ولفت النبي ﷺ النظر إليه في قوله في حديث أنس بن مالك:

«لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»(٢).

---

(١) انظر: روح المعاني ٤/ ٤٠ م٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر وقوله تعالى ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ ٨/ ٣٣ عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة الحمصي ـ مولى بني أمية ـ عن الزهري عن أنس، وباب الهجرة، وقول رسول الله ﷺ: =

وعن أبي هريرة أن النَّبي ﷺ قال :

« لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا إخواناً كما أمركم الله » (١) .

= **« لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث »** ٨/ ٢٥ - ٢٦ عن عبدالله بن يوسف، ومسلم في : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب : باب تحريم التحاسد، والتباغض، والتدابر ٤/ ١٩٨٣ رقم ٢٥٥٩ / ٢٣ عن يحيىٰ بن يحيىٰ، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب : باب فيمن يهجر أخاه المسلم ٥/ ٢١٣ - ٢١٤ رقم ٤٩١٠ عن عبدالله بن مسلمة (القعنبي) ثلاثتهم، عن مالك عن ابن شهاب، عن أنس أن النبي ﷺ قال : **« لا تباغضوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً... »** الحديث، والترمذي في : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء في الحسد ٤/ ٢٩٠ - ٢٩١، رقم ٩٣٥ عن عبدالجبار بن العلاء العطار، وسعيد بن عبدالرحمن، كلاهما عن سفيان، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً : **« لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »**، وعقَّب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أبي بكر الصديق، والزبير بن العوام، وابن مسعود، وأبي هريرة»، ومالك في : الموطأ : كتاب حُسن الخُلق : باب ما جاء في المهاجرة ص ٥٦٦ رقم ١٤ عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : **« لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلم أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال »** .

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الظنِّ والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها ٤/ ١٩٨٦ عن الحسن بن علي الحُلْوانيِّ، وعلي بن نصر الجهضميُّ كلاهما عن وهب بن جرير، عن شعبة عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ، والبُخاريُّ في : الصحيح : كتاب النكاح : باب لا يخطب على خطبة أخيه حتىٰ ينكح أو يدع ٧/ ٢٤ عن يحيىٰ بن بكير، عن الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج قال : قال أبو هريرة يأثر عن النبي ﷺ قال : **« إياكم والظن فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخواناً، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك »**، وكتاب الفرائض : باب تعليم الفرائض، وقال عقبة بن عامر : تعلموا قبل الظانين، يعني : الذين يتكلمون بالظنِّ ٨/ ١٨٥ عن موسىٰ بن إسماعيل عن وهيب عن عبدالله ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة : **« إياكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث »** =

. . . .

=**ولاتحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**»، وكتاب الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد، والتدابر، وقوله تعالى: ﴿ومن شر حاسد إلى حسد﴾ ٨/ ٢٣ عن بشر بن محمد، عن عبدالله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن همَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولاتحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً**»، وباب ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا﴾ ٨/ ٢٣، عن عبدالله بن يوسف، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**».

ومسلم في: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظنَّ، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها ٤/ ١٩٨٥ رقم ٢٥٦٣ / ٢٨، عن يحيى، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**».

وأبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب في الظنَّ ٥/ ٢١٦ - ٢١٧ عن عبدالله بن مسلمة، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إياكم والظنَّ، فإنَّ الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا**».

والترمذي في: السنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء في ظنِّ السوء ٤/ ٣١٣ رقم ١٩٨٨ عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إياكم والظن، فإن الظنَّ أكذب الحديث**»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

ومسلم في: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظنِّ والتجسس... ٤/ ١٩٨٥ رقم ٢٥٦٣ / ٢٩ عن قتيبة بن سعيد، عن عبدالعزيز بن محمد عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لا تهجروا - وفي رواية: لا تهاجروا - ولا تدابروا، ولاتحسسوا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا**»، وعن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير بن عبدالحميد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لا تحاسدوا ولاتباغضوا، ولاتجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا**»، وعن أحمد بن سعيد الدَّارمي، عن حَبَّان، عن وهيب، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ولاتباغضوا**،=

. . . .

=**ولا تدابروا، ولا تنافسوا، وكونوا عباد الله إخوانا**، ٤/ ١٩٨٦ رقم ٢٥٦٣ / ٣١، وباب تحريم ظلم المسلم وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله ٤/ ١٩٨٦ رقم ٢٥٦٤/ ٣٢ عن عبدالله ابن مسلمة بن قعنب، عن داود بن قيس، عن أبي سعيد - مولى عبدالله بن عامر بن كريز - عن أبي هريرة مرفوعاً «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولاتدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لايظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا** - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعرضه**»، وعن أبي الطاهر بن السرح، عن ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي سعيد - مولى عبدالله بن عامر بن كريز - عن أبي هريرة مرفوعاً: نحوه، وزاد ونقص، ومما زاد فيه: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشار بأصابعه إلى صدره، وابن ماجه في: السنن: كتاب الزهد: باب البغي ٢/ ١٤٠٩ رقم ٤٢١٣ عن يعقوب بن حميد المدني، عن عبدالعزيز بن محمد، عن داود بن قيس، عن أبي سعيد - مولى بني عامر - عن أبي هريرة مرفوعاً: «**حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»، وكتاب الفتن: باب حرمة دم المؤمن وماله ٢/ ١٢٩٨ رقم ٣٩٣٣، عن بكر بن عبدالوهاب، عن عبدالله بن نافع، ويونس بن يحيى كلاهما عن داود بن قيس، عن أبي سعيد - مولى عبدالله بن عامر بن كريز - عن أبي هريرة مرفوعاً: «**كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعرضه**».

وأخرج ابن ماجه: في: السنن: كتاب الدعاء: باب الدعاء بالعفو والعافية ٢/ ١٢٦٥ رقم ٣٨٤٩ عن أبي بكر، وعلي بن محمد كلاهما عن عبيد بن سعيد، عن شعبة، عن يزيد بن خُمير، عن سُلَيم بن عامر، عن أوسط بن إسماعيل البجلي أنه سمع أبا بكر حين قبض النبي ﷺ يقول: قام رسول الله ﷺ في مقامي هذا عام الأول - ثم بكى أبو بكر - ثم قال: «**عليكم بالصدق، فإنه مع البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما في النار، وسلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولاتباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا، عباد الله إخوانا**»، والنسائي في: السنن الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة: باب مسألة المعافاة ٦/ ٢٢٠ - ٢٢٢ رقم ١٠٧١٥ - ١٠٧٢٤ / ١ - ١٠ من عدة طرق إلى بكر، وبألفاظ متفاوتة، ومالك في: الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب ما جاء في المهاجرة ص ٥٦٦ رقم ١٥ عن أبي الزناد، عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولاتحسسوا، ولاتنافسوا، ولاتحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا**».

يقول أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ تصويراً لهذا السبب، وكيف يؤدي إلىٰ الحسد:

«العداوة والبغضاء، وهما أشد أسباب الحسد، فإن مَنْ آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض لوجه من الوجوه أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفِّي، والانتقام فإن عجز المبغض عن أن يتشفَّىٰ بنفسه أحب أن يتشفَّىٰ منه الزَّمان، وربما يحيل ذلك علىٰ كرامة نفسه عند الله تعالىٰ، فمهما أصابت عدوَّه بليَّة فرح بها، وظنَّها مكافأةً له من جهة الله علىٰ بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، لأنها ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم له من عدوِّه الذي آذاه، بل أنعم عليه، وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة، ولا يفارقهما، وإنما غاية التقىٰ ألا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه، فأمَّا أن يبغض إنساناً، ثم تستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالىٰ الكفَّار به، أعني: الحسد بالعداوة، إذ قال الله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ... ﴾ (آل عمران: ١١٩، ١٢٠).

وكذلك قال:

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع، والتقاتل، واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل، والسعاية، وهتك الستر، وما يجري مجراه»(١).

٥ ـ استحسان الشيء والإعجاب به:

وقد يكون استحسان الشيء، والإعجاب به من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد أو العين.

ذلك أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيَّف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين بإذن الله ومشيئته، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويُعجبون منه فيُصاب بذلك»(٢).

وتقدم حديث سهل بن حنيف حين حسده ورماه بالعين من شدة إعجابه واستحسانه ببياض جلده: عامر بن ربيعة.

٦ ـ عدم الاستعاذة والتحصن من شرِّ الحاسد والعائن:

وقد يكون عدم الاستعاذة والتحصُّن من شرِّ الحاسد والعائن من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد والعين.

ذلك أن ذكر الله حصانة من كلِّ شيء مؤذي لاسيما الحاسد، والعائن، كما قال النبي ﷺ:

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٣ / ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٣٢ بتصرف.

« إن الله ـ عز وجل ـ أمر يحيى بن زكريا ـ عليه السلام ـ بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، وكاد أن يبطئ، فقال له عيسى: إنك قد أُمِرتَ بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، فإمَّا أن تبلغهُنَّ، وإمَّا أن أُبَلّغهن، فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذَّب، أو يُخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشُرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنَّ، وآمركم أن تعملوا بهنَّ:

أولهنَّ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجلٍ اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدِّي غلَّته إلى غير سيِّده، فأيُّكم سرَّه أن يكون عبده كذلك، وإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وآمركم بالصلاة، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفتْ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه جرَّة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب مِنْ ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوُّ، فشدُّوا يديه إلى عنقه، وقدَّموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه.

وآمركم بذكر الله ـ عز وجل ـ كثيراً، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوُ سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصَّن فيه، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان، إذا كان في ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

فقال رسول الله ﷺ وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهنَّ: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنَّ مَنْ خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم، قالوا: يا رسول الله، وإنْ صامَ، وإنْ صلَّى، قال: وإنْ صامَ، وإنْ صلَّى، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سمَّاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المسلمين، المؤمنين عباد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»[1].

٧ ـ البُخل أو الشُّحُّ:

وقد يكون البخل أو الشُّحُّ من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد أو العين، ذلك أن البخيل أو الشحيح يكرهه الناس، وقد تنتهي الكراهية غالباً إلى الحسد أو العين.

وهذا هو المفهوم من قوله تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ (التوبة)

(١) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٤/ ١٣٠، ٢٠٢ من حديث الحارث الأشعري مرفوعاً به.

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ :

«فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمَنْ لم يكن له جند ولا عسكر، وله عدوٌّ، فإنَّه يوشك أن يظفر به عدوُّه، وإن تأخَّرتْ مدَّة الظفر»(١) .

ويقول القرضاوي :

«والزَّكاة ـ لآخذها أيضاً ـ تطهير من داء الحسد، والكراهية، فالإنسان إذا عضتّهُ أنياب الفقر، ودهته داهية الحاجة ورأىٰ مَنْ حوله ينعمون بالخير، ويعيشون في الرَّغد، ولا يمدُّون له يداً بالعون، بل يتركونه لمخالب الفقر وأنيابه، هذا الإنسان لا يسلم قلبه من البغضاء، والضَّغينة علىٰ مجتمع يهمله، ولا يُعنَىٰ بأمره، وتربة الشحِّ، والأنانية لا تنبتُ إلا الحقد، والحسد لكلِّ ذي نعمة»(٢) .

٨ ـ التفريق في المعاملة :

وقد يكون التفريق في المعاملة من بين الأسباب المؤدية إلىٰ الحسد والعين، ذلك أن الإنسان يحبُّ أنْ يعامله الناس بمبدأ المساواة والمماثلة لأقرانه، وأترابه، فإذا رأىٰ ظلماً وتفريقاً في المعاملة، ولا يستطيع الانتقام لسبب أو لآخر عوَّض عن ذلك بالحسد والعين.

وهذا أكثر ما يكون بين الضرائر، وبين الأولاد، وبين المرءوسين مع المسؤولين عنهم أو رؤسائهم.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٣ .

(٢) انظر : فقه الزكاة ٢/ ٨٧٦ .

٩ ـ عدم التزام الحاسد أو العائن بحقيقة وآداب الشرع الحنيف :

وقد يكون عدم التزام الحاسد أو العائن بحقيقة وآداب الشرع الحنيف من قوله إذا رأىٰ شيئاً يعجبه: «بسم الله ما شاء الله، لا قوة إلا بالله»، «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وقراءة: المُعوِّذتين، والإخلاص، وآية الكرسي، وفاتحة الكتاب، ونحوها من أسباب الوقوع في الحسد أو العين، إذ جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: **«إذا رأى أحدكم منْ أخيه ما يعجبه، فَلْيَدْعُ له بالبركة»**(١).

ومفهومه أنَّه إذا لم يَدْعُ ربَّه بذلك ربما وقع ما لا يُحمد عُقباه، وكان الحسد، والعين.

١٠ ـ الغفلة عن عواقب الحسد والعين :

وقد تكون الغفلة عن عواقب الحسد والعين من بين الأسباب المؤدية إلىٰ الحسد والعين، ذلك أن مَنْ جَهِلَ عواقب أمرٍ مَّا: أتىٰ هذا الأمر من غير أن يلوىٰ علىٰ شيء.

ثامناً : آثار الحسد والعين :

وللحسد والعين آثار ضارَّة، وعواقب مهلكة تصيب الفرد والجماعة، وتتجاوز الدنيا في الحاسد والعائن إلىٰ الآخرة، ودونك طرفاً من هذه الآثار:

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل تقدم لفظه، وتخريجه.

أ - آثار الحسد والعين على الحاسد والعاين :

١ - القلق والاضطراب النفسي :

ذلك أنهما بعيدان عن الله ، غير راضيين بقسمته ، وأقل ما يعاقب به من كان على هذا الحال : القلق والاضطراب النفسي ، كما قال سبحانه في شأن الأنصار :

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ (الحشر : ٩) .

يقول أبو حامد الغزالي بعد ذكره الآية : «أي لا تضيق صدورهم به ، ولا يغتمون ، فأثنى عليهم بعدم الحسد»(١)

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ (الجن) .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا . . . ﴾ (طه) .

وهذا أيضاً هو المفهوم من قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ . . . ﴾ (التغابن : ١١) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ (الأنعام) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد) .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٣ / ١٩٠ .

٢ ـ القعود عن العمل وأداء الواجب :

ذلك أنَّهما يعيشان علىٰ الأماني والآمال في بعض الأحوال مِنْ تَمَنِّي زوال نعمة الغير وصيرورتها إليهما ، تاركين العمل ، وأداء الواجب وراءهما ظهرياً ، ومَنْ كان علىٰ هذه الشاكلة فهو عنصر سلبيٌّ في المجتمع يعوق نموَّه ، وتقدُّمه ، بل ربَّما تتعدىٰ عدواه إلىٰ الآخرين ، والأولىٰ أن يُغَيَّب عن أعين الناس حصراً للخطر والضرر في أضيق دائرة ، ويجري عليه رزقه ، وكذلك أهله وذويه كما تقدم .

٣ ـ ملازمة الهموم والغموم له :

ذلك أنَّ الأمور تسير بتقدير من الله العليم الحكيم ، وليس بهوىٰ الحاسد والعائن ، وما عُرِفَ أنَّ الله استجاب لهذا الصنف من الناس الذي يحقد علىٰ الناس بالباطل ، وحوَّل النعمة من الغير إليهم ، بل يتركهم هكذا في همومهم وغمومهم يتلظون ، ويصطلون .

٤ ـ الذهاب بالحسنات إنْ كانتْ حسنات :

ذلك أن الحاسد أو العاين ربما تكون له حسنات لبعض الطاعات ولكنَّه بالحسد والعين يضيِّع هذه الحسنات أولاً بأول ، فيكون أشبه ما يكون بالسَّفيه ، لديه من المال الشيء الكثير ، ويبدده كل يوم هنا وهناك ، وقد ورد حديث ضعيف في هذا المعنىٰ : **«إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب»** [١] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داوود في : السنن : كتاب الأدب : باب في الحسد ٥/ ٢٠٨ـ٢٠٩ رقم ٤٩٠٣ من حديث إبراهيم بن أبي أسيد عن جده عن أبي هريرة مرفوعاً به ، وفيه جهالة الجد .

٥ ـ سوء العقبى :

وهذا بدهي فإنَّ مَنْ كانتْ حياته على النحو الذي تقدم تسوء عاقبته، ويلقى من العقاب ما يلقى جزاءً وفاقاً، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد.

قال تعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)﴾ (المائدة).

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فُصِّلَت : ٤٦، والجاثية : ١٥).

بل أقلُّ ما يُقال : أنه يتحمل إثم مَنْ ألحق بهم أذىً أو ضرراً، وتنتهي به الآثام إلى سوء العقبى.

ب ـ آثار الحسد والعين على المحسود والمعيون :

١ ـ الضُّرُّ والأذى :

ذلك أن الحسد أو العين يلحقان بالمحسود والمعيون ضرراً وأذىً ـ إن أراد الله ـ يتمثل في مرض بدني أو نفسي أو هما معاً، أو نكبة في مال، أو أهل، أو ولد، أو وظيفة، أو عشيرة، أو وجاهة، أو نحو ذلك، وقد تكون هذه جميعاً، يعني الضر والأذى يكونان مؤلفين من كل هذه الصور.

٢ ـ القعود عن العمل وأداء الواجب :

ذلك أن مَنْ نزل به ضرٌّ أو أذىً، ولم يكن مؤهلاً لمثل هذا الضر والأذى يقعد عن العمل وأداء الواجب الأمر الذي يؤدي إلى تأخر الأمة وانحطاط الجماعة، ويفتح الباب لتمكن الأعداء، وسيادتهم على هذه الأمة ومقدَّراتها.

٣ـ كراهية الحاسد أو العائن :

لاشكَّ أنَّ مَنْ تأكد له بالدليل اليقيني القطعي أن فلاناً كان سبباً في إنزال ضرٍّ أو أذىً به : يتوجه إليه بالكُرْهِ، والبغضاء، بل بالفرقة والقطيعة، وحينئذٍ تسنح الفرصة للأعداء بالدخول، والسيطرة وتحقيق ما يريدون من مكائد، ومخططات.

٤ـ السعي للثأر والانتقام :

وقد لا يكتفي المحسود أو المعيون بالكراهية، بل يتجاوز ذلك إلى الثأر والانتقام هو أو ذووه، ويكون ما لا تُحمد عقباه من القطيعة وخسارة الأمة لعناصر بشرية كان مأمولاً مِنْ ورائها أن تساعد في نهضتها وتقدُّمها.

٥ـ فتح باب جديد لتحصيل الأجر والثواب :

وقد يكون المحسود أو المعيون مِنْ قوَّة الإيمان واليقين بحيث يجاهد نفسه، ويحملها على الرضا بقضاء الله وقدره، ويأتي مزيداً من الطاعات والقربات بغية أن يصرف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه، ويعافيه، فيكتب له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ (الزُّمَر).

وكما قال النبي ﷺ : «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له**»[(١)].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الزهد والرَّقائق: باب المؤمن أمره كله خير =

وما أجمل قول بعض الحكماء في الطرفين جميعاً الحاسد والمحسود والعائن والمعيون :

«بَارَزَ الحاسد ربَّه من خمسة أوجه : أحدها : أنَّه أبغض كل نعمة ظهرتْ على غيره ، ثانيها : أنَّه ساخط لقسمة ربِّه ، كأنه يقول : لِمَ قسمتَ هذه القسمة؟ ثالثها : أنَّه ضادَّ فعل الله ، أي أن فضل الله يؤتيه منْ يشاء وهو يبخل بفضل الله ، ورابعها : أنَّه خذل أولياء الله ، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم ، وخامسها : أنَّه أعان عدوَّه إبليس»(١) .

تاسعاً : حول الوقاية والعلاج من الحسد والعين :

وإذ قد تم التعرف على ماهية الحسد والعين ، وحكمهما ، وتأثيرهما ، وأسبابهما ، وآثارهما : فإنَّه يصبح من السهل رسم طريق الوقاية والعلاج على هذا النحو :

١ ـ التحصُّن بالله والتعوذ به سبحانه وتعالى :

وذلك بالمواظبة على ذكر الله بعموم والاستعاذة من شرِّ الحاسد إذا حسد ، وكذلك العائن بخصوص ، فإن هذا الذكر أكبر حماية وحصانة للعبد من شرِّ شياطين الجن ، وشياطين الإنس .

=٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩ / ٦٤ والدارمي في : السُّنن : كتاب الرقائق : باب المؤمن يُؤجر في كلِّ شيء ٢/٣١٨ كلاهما من حديث صهيب مرفوعاً ، وأحمد في : المسند ٥/ ٢٤ من حديث أنس مختصراً ، واللفظ لمسلم .

(١) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ٦/ ٩٧ ، وفيض القدير للمناوي ٣/ ١٢٥ .

وقد أمر الله بذلك في قوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ (سورة الفلق) .

٢ ـ تقوى الله ـ عز وجلَّ ـ :

المتمثلة في توحيده سبحانه ، والإقلاع عن المعاصي ، والمواظبة على فعل الطاعات ، قال تعالى :

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (آل عمران : ١٢٠) .

وقال ﷺ لابن عمه : عبدالله بن عباس :

«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[١] .

٣ ـ الصبر والتحمل :

فلا يحدّث نفسه بأذى الحاسد أصلاً ، ولا يقاتله ، ولا يشكوه ، وتمادي الحاسد والعائن يكون سبباً في هلاكه من حيث لا يدري ولا يشعر .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ برقم ٢٥١٦ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ : **«كنتُ خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال، يا غلام إنّي أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام، وجفّت الصُّحف»**، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد في : المسند ١/ ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ـ ٣٠٨ ، من حديث ابن عباس مرفوعاً به، وبنحوه.

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ :

«السبب الثالث : الصبر على عدوِّه، وألا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدِّث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصِر على حاسده، وعدوُّه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره، وبغيه، فإنه كلَّما بغى عليه كان بغيه جنداً، وقوَّة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها مِنْ نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغيُّ عليه ذلك لسرَّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى :

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ (الحج : ٦٠)

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقَّه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئاً مِنْ حقِّه، بل بُغِيَ عليه وهو صابر، وما مِنْ ذنبٍ أسرع عقوبة من البغي، وقطيعة الرحم، وقد سبقتْ سُنَّة الله : أنه لو بَغَى جبلٌ على جبل جعل الباغي منهما دكّاً»[1] .

٤ ـ التوكل على الله :

وذلك بالأخذ بالأسباب التي مضتْ مع الاعتماد التام على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن هذا التوكل بهذه الصورة من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم، وعدوانهم، قال تعالى :

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق : ٣) .

---

(١) انظر : بدائع الفوائد لابن القيِّم ٢/ ٢٤١ .

وقد قيل: «لو توكَّل العبدُ على الله حقَّ توكله، وكادته السموات والأرض، ومَنْ فيهنَّ، لجعل الله له مخرجاً مِنْ ذلك، وكفاه ونصره»(1).

٥ ـ التوبة النصوح:

بأن يتذكر نعمة الله عليه، وسوء أدبه مع هذه النعمة، حيث استخدمها في معصية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فينقدح في قلبه الخوف من الله ومن عقابه فيقلع، ويرد المظالم إلى أصحابها فوراً، ويعزم عزماً أكيداً ألاَّ يعود وإن قُطِّع وحُرِّق بالنار، عند ذلك يكون العفو عنه من الله وصرف كيد الحُسَّاد والعيَّانين.

قال تعالى:

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (هود: ٣).

وقال تعالى:

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور).

٦ ـ الإحسان إلى الحاسد والعائن:

وذلك بالكلمة الطيبة، والهدية، والصدقة، وإطعام الطعام، والاحترام، والسؤال، والتهنئة بنعمة، والمواساة في الشدة، والإفساح في المجلس، وطلاقة الوجه ونحوها، قال تعالى:

---

(1) انظر: بدائع الفوائد لابن القيِّم ٢/ ٢٤١.

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ (فُصِّلَت).

وقال تعالى:

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ (القصص).

ووجه الدلالة أن الإحسان يستل سخائم النفوس وحقدها فإذا هي تتحول من عدوٍّ إلى صديق.

٧ - الرُّقية بالمشروع:

إذ كان جبريل - عليه السلام - يرقي رسول الله ﷺ، وأمر النبي ﷺ بها.

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، قال: «باسم الله يُبْرِيك، ومن كلِّ داءٍ يشفيك، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، وشرِّ كل ذي عين»(١).

وعن أبي سعيد: أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمد اشتكيتَ؟ فقال: «نعم»، قال: «باسم الله أرقيك من كلِّ شيء يؤذيك، مِنْ شرِّ كلِّ نفسٍ أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»(٢).

---

(١) الحديث أخرجه مسلم: في الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرض والرقى ٤/ ١٧١٨ رقم ٢١٨٥ / ٣٩ من حديث عائشة مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرض والرقى ٤/ ١٧١٨-١٧١٩ رقم ٢١٨٦ / ٤٠، والترمذي في: السُّنن: كتاب الجنائز: باب ما جاء في=

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : «أن النبي ﷺ كان يَنْفُثُ على نفسه ـ في المرض الذي ماتَ فيه ـ بالمعوِّذات، فلما ثقل كنتُ أنفث عليه بهنَّ، وأمسح بيده نفسه لبركتها»(١) .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أمرني رسول الله ﷺ ـ أو أمر ـ أن يسترقي من العين»(٢) .

وعن أمِّ سَلمة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ رأىٰ في بيتها جاريةً.. في وجهها سَفْعَةٌ»(٣) ، فقال: «**استرقوا لها فإن بها النظرة**»(٤) .

=التعوذ للمريض ٣/ ٣٠٣ رقم ٩٧٢، وعقب عليه بقوله: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في: السنن: كتاب الطب: باب ما عَوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به ٢/ ١١٦٤ رقم ٣٥٢٣ كلهم من حديث أبي سعيد مرفوعاً به.

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الطب: باب الرُّقىٰ بالقرآن والمعوِّذات ١٠/ ١٩٥ رقم ٥٧٣٥ (فتح الباري) من حديث معمر عن الزهري، عن عروة عن عائشة مرفوعاً بهذا اللفظ، وفي آخره: قال معمر: «فسألت الزهري: كيف ينفث؟ قال: كان ينفثُ علىٰ يديه، ثم يمسح بهما وجهه»

(٢) الحديث أخرجه البخاريُّ في: الصحيح: كتاب الطب: باب رقية العين ١٠/ ١٩٩ رقم ٥٧٣٨ من حديث عائشة مرفوعاً بهذا اللفظ [فتح الباري] .

(٣) السفعة ـ بفتح المهملة، ويجوز ضمها، وسكون الفاء بعدها عين مهملة ـ سواد في الوجه، ومنه سفعة الفرس: سواد ناصيته، وقيل: حمرة يعلوها سواد، وقيل: صفرة، وقيل: سواد مع لون آخر. قال ابن حجر في: فتح الباري ١٠/ ٢٠٢: «وكلها متقاربة، وحاصلها: أن بوجهها موضعاً علىٰ غير لونه الأصلي، وكأن الاختلاف بحسب اللون الأصلي، فإن كان أحمر فالسفعة سواد صرف، وإن كان أبيض فالسفعة صفرة، وإن كان أسمر فالسفعة حمرة يعلوها سواد».

(٤) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الطب: باب رقية العين ١٠/ ٢٠١ رقم ٥٧٣٩ [فتح الباري] من حديث محمد بن الوليد الزبيدي، عن الزهري، عن عروة بن =

٨ ـ أمر العائن بالاغتسال :

بعد التأكد من أنَّه صنع ذلك على النحو الذي ذُكر آنفاً، ثم صبّ فضل هذا الماء على المعيون، لاسيَّما مواضع الضعف منه.

فقد تقدم حديث أبي أمامة سهل بن حنيف: أن أباه حدثه أن النبي ﷺ خرج، وساروا معه نحو ماء، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ـ وكان أبيض حسن الجسم، والجلد ـ فنظر إليه عامر بن ربيعة، فقال: ما رأيتُ كاليوم، ولا جلد مُخبَّأة، فلبط ـ أي صرع وزناً ومعنى ـ سهل، فأتي رسول الله ﷺ فقال: **«هل تتهمون به من أحد؟»** قالوا: عامر ابن ربيعة، فدعا عامراً فتغيَّظ عليه، فقال: **«علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يُعجبك برَّكتَ، ثم قال: اغتسل له، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثم يصب ذلك الماء عليه رجل من خلفه، على رأسه وظهره، ثم يكفأ القدح، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس»**[1].

يقول ابن القيِّم:

«هذه الكيفية لا ينتفع بها مَنْ أنكرها، ولا مَنْ سخر منها، ولا مَنْ شكَّ فيها أو فعلها مجرِّباً غير معتقد، وإذا كان في الطبيعة خواص لا يعرف الأطباء عللها، بل هي عندهم خارجة عن القياس، وإنما تفعل بالخاصية، فما الذي

=الزبير، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقّب عليه البخاري بقوله: «وقال عقيل عن الزهري، أخبرني عروة عن النبي ﷺ، تابعه عبدالله بن سالم عن الزبيدي».

(١) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٣/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧، وابن ماجه في: السنن: كتاب الطب: باب العين ٢/ ١١٦٠ رقم ٣٥٠٩ كلاهما من حديث سهل واللفظ لأحمد.

تنكر جهلتهم من الخواص الشرعية؟ هذا مع أن في المعالجة بالاغتسال مناسبة لا تأباها العقول الصحيحة، فهذا ترياق سُمِّ الحيَّة يؤخذ من لحمها، وهذا علاج النفس الغضبية توضع اليد على بدن الغضبان فتسكن، فكأنَّ أثر تلك العين كشعلة نار وقعتْ على جسد، ففي الاغتسال إطفاء لتلك الشعلة، ثم لـمَّا كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد لشدة نفوذها فيها، ولا شيء أرقَّ من المغابن فكان في غسلها إبطال لعملها، ولاسيَّما أن للأرواح الشيطانية في تلك المواضع اختصاصاً، وفيه أيضاً وصول أثر الغُسل إلى القلب مِنْ أرقِّ المواضع، وأسرعها نفاذاً، فتنطفىء تلك التي أثارتها العين بهذا الماء»(١) .

وقال ابن حجر :

(هذا الغسل ينفع بعد استحكام النظرة، فأمَّا عند الإصابة وقبل الاستحكام فقد أرشد الشارع إلى ما يدفعه بقوله في قصة سهل بن حنيف المذكورة كما مضى: «ألا بركت عليه»، وفي رواية ابن ماجه «فليدع بالبركة»)(٢) .

* * *

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيِّم ٢/ ٢٤٥ .

(٢) انظر : فتح الباري ١٠ / ٢١٥ .

الموضوع | الصفحة

فهرس المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الصفحة | الموضوع

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع: ٩٨/١٧٠٣١
الترقيم الدولي: .I.S.B.N
977 - 5268 - 92 - 3